



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُورِيقِ الْقِزْبَاوِيِّ

المجلد التاسعون





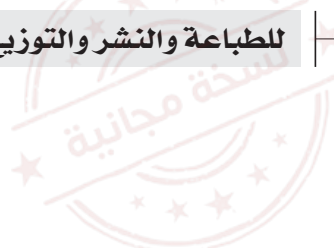
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

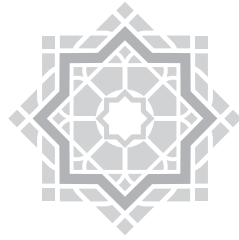
١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

دار الشَّامِيتِ

للطباعة والنشر والتوزيع



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُؤَيْيْفِ الْقُرْضَاوِيِّ



الْجُورُ الْخَادِي عَشْر

خُطَبُ الْجَمْعَةِ

- ١٧٨ خطب الشيخ القرضاوي ١٥
١٧٩ خطب الشيخ القرضاوي ١٦





مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْضَاوِيِّ



المحور الحادي عشر

خطب الجمعة



خطب الشيخ القرضاوي

١٥

إعداد
المكتب العلمي للشيخ



غير مرخصة للطباعة

من الدستور الإلهي للبشرية

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ۖ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۖ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۖ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۖ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ - ٤].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة». رواه الحاكم.

عن عائشة قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا، ولا صخابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلهما، ولكن يعفو ويصفح. رواه أحمد والترمذي.

عن جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «من أكل ثومًا أو بصلاً فليعتزلنا، أو ليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته». متفق عليه.

عن عبد الله بن مسعود قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب، زميلي رسول الله ﷺ. قال: وكانت عقبه رسول الله ﷺ قال: فقالا: نحن نمشي عنك. فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما». رواه أحمد.





مولد النبي ﷺ

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

المولد النبوي تذكير بالرسول ﷺ :

كَلَّمَا أَهْلًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ شَهْرَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، أَطَلَّتْ عَلَيْهِمْ ذِكْرَى
عَزِيزَةً عَلَى نَفُوسِهِمْ، حَبِيبَةً إِلَى قُلُوبِهِمْ، هِيَ ذِكْرَى مَوْلِدِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَسْنَا مَمَّنْ يَنْتَهَزُونَ هَذِهِ الذِّكْرَى لِإِقَامَةِ الْإِحْتِفَالِ، أَوْ
تَعْلِيقِ الزِينَاتِ، أَوْ تَوْزِيعِ الْحُلُوفِ، وَإِنَّمَا نَنْتَهِزُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ لِتَذْكِيرِ
النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَشْرَفِ مَوْلُودِ وَأَعْظَمِ إِنْسَانٍ فِي الْوُجُودِ، بِذَلِكَ
الَّذِي أَخْرَجَهُمُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَهَدَاهُمُ الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ، نَذَّرَهُمُ بِالرَّحْمَةِ الْمُهْدَاةِ، وَالنِّعْمَةِ الْمُسْدَاةِ، وَالسَّرَّاجِ
الْمُنِيرِ، وَالْبَشِيرِ النَّذِيرِ، مُحَمَّدٍ ﷺ.

ميلاد رسالة:

وَنَحْنُ عِنْدَمَا نَذْكُرُ بِهَذَا لَا نَذْكُرُ بِمِيلَادِ رَسُولٍ، إِنَّمَا نَذْكُرُ فِي الْحَقِيقَةِ
بِمِيلَادِ رِسَالَةٍ، رِسَالَةٍ عَظِيمَةٍ، أَعْظَمُ رِسَالَةٍ فِي هَذَا الْوُجُودِ، خُتِمَتْ بِهَا

الرسالات، رسالة عامّة خالدة، امتدّت طولاً حتّى شملت آباد الزمن، وامتدّت عرضاً حتّى انتظمت آفاق الأمم، وامتدّت عمقاً حتّى استوعبت شؤون الدُّنيا والآخرة، والأفراد والمجتمعات والأمم.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

يجب علينا نحن المسلمين أن ننتهز الفرص لتذكر رسول الله ﷺ لتذكر سيرته، وتذكر رسالته، لتذكر حياته، لتذكر تلك الدعوة التي قام بها إلى البشرية عامّة، ليزكّي بها النفوس، ويصلح بها البيوت، ويسعد بها المجتمعات، ويهدي بها الإنسانية إلى التي هي أقوم.

ميلاده ﷺ ونشأته:

في شهر ربيع الأوّل وُلد أعظم مولود، يوم ولد لم يكن يحسب الناس أنّ لهذا المولود شأنًا أيّ شأن، إنّهُ لم يولد كما يولد أبناء الملوك، حينها تُرتفع الرايات، وتُعلق الزينات، وتطلق المدافع، إنّهُ قد ولد وأبوه قد مات وهو حمل في بطن أمه، شاء الله تعالى أن ينشأ يتيماً حتّى يؤويه سبحانه، حتّى ينشأ بعيداً عن اتّكال الأبناء على الآباء، ليكون اتّكاله على الله وحده!

نشأ فقيراً يتيماً، لم يدع له أبوه من الثروات كما يدع أبناء الأغنياء لأبنائهم، لم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، لم يعيش في الحرير والدّيباج، بل كان مكافحاً منذ نعومة أظفاره، منذ صغره، كافح ليكسب لقمة عيشه.

وكان شبابه شباب التعب والمعاناة والكفاح، صحيح أنّه من قريش، ومن ذؤابة بني هاشم، ومن أشهر الأحساب وأفضل الأنساب، ولكنّه لم يتكل على حسبه ونسبه، إنّما عمل بكدّ يمينه، وعرق جبينه؛ فرعى الغنم، رعاها بالأجرة،

ولم يجعل ذلك عارًا عليه، العار أن تبطل أو تتعطل، والشرف أن تعمل وتكافح، عمل في رعي الغنم، وعمل في التجارة مضاربًا ومشاركًا لعدد من الناس، حتّى عمل في مال خديجة التي رضيته زوجًا لها؛ وكانت نعم الزوجة، وكان لها نعم الزوج! هكذا كانت حياته ﷺ حياة عمل وحياة كفاح.

الرسول ﷺ قدوة للشباب:

كان ﷺ في شبابه نعم القدوة للشباب، كان الشابّ العامل الشريف، الذي لا يتكل على نسبٍ ولا حسَبٍ، ولا على أبٍ ولا جدٍّ، ولكن يعتمد بعد الله تعالى على نفسه، فكان مثلاً للشابّ النقيّ، طاهر السلوك، حسن السيرة، الصادق في قوله، الأمين في عمله، حتّى لقبته قريش بالأمين، إذا رأوه قالوا: جاء الأمين، وذهب الأمين، وقال الأمين.

لم يُجربوا عليه كذبةً قطُّ، ولم يُجربوا عليه خيانة قطُّ، ما لوّث نفسه بملوثات الجاهليّة، فلم يسجد لصنم كما يسجد الناس من حوله، ولا طاف بتلك الآلهة المزيفة يدعوها ويلتمس عندها القُربى، ما فعل ذلك قط، ما ذاق الخمر في الجاهليّة وهي مباحة للناس، يشربونها هنا وهناك، وولعوا بها وعشقوها، وسَمّوها أكثر من مائة اسم، دلالة على شغفهم بها! ولم يعرف الزنى ولا الخنا، لم يعرف شيئاً من ذلك، كيف وأبوه في الجاهليّة عبد الله بن عبد المطلب وقد كان شابًا وسيماً نصرًا، تتطلّع إليه النساء في البيوت، أبوه راودته امرأة عن نفسه، فأبى وقال كما يروي أصحاب السير:

أَمَّا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهُ وَالْحَلُّ لَا حَلَ فَأَسْتَبِيْنَهُ
يَحْمِي الْكَرِيْمُ عَرْضَهُ وَدِيْنَهُ فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَبْغِيْنَهُ^(١)

(١) انظر: الشكوى والعتاب ص ١٤٨، تحقيق د. إلهام عبد الوهاب، نشر المجلس الوطني للثقافة

والفنون والآداب، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

رفض عبد الله بن عبد المطلب، فلا عجب أن ينشأ ابنه مُحَمَّد الأمين طاهراً عفاً كريماً نقيّاً، حتّى ما كان يصنعه الشباب من لهو وسمر، واجتماع على الآلات والمعازف، والأغاني والقينات والجواري، لم يشارك في لهو الجاهليّة بشيء.

فكر يوماً أن يحضر عرساً من الأعراس، ويسمر في ليلة من الليالي، فذهب ولكن الله ﷻ ألقى عليه النعاس، فلم يقم إلّا والشمس قد طلعت وضربت في أذنيه، «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ عَلَيَّ النَّوْمَ، فَلَمْ أُسْتَيْقِظْ حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ»^(١). عافاه الله تعالى من لهو الجاهليّة وآثام الجاهليّة، كان ﷺ نعم الشاب.

النبي ﷺ قدوة في حياته كلّها:

وكان ﷺ نعم الإنسان، وكان في حياته كلّها قدوة، إذا بحثت عنه شابّاً، أو بحثت عنه زوجاً، أو بحثت عنه أباً، أو بحثت عنه جدّاً، أو بحثت عنه صديقاً، أو بحثت عنه تاجراً، أو بحثت عنه رئيساً، أو بحثت عنه قائداً، أو بحثت عنه رئيس دولة، أو قائد أمّة، وجدته في كل ذلك نعم الإنسان، وجدته قمة يُقتدى به في أموره كلّها.

الأنبياء الآخرون يمكن أن تقتدي بهم في ناحية من النواحي، وفي جانب من الجوانب، وفي مجال من المجالات لا يتعداه، إذا اقتديت بسليمان عليه السلام ممكن أن تقتدي به في الحُكم الصالح؛ لأنّه كان حاكماً،

(١) رواه ابن حبان في التاريخ (٦٢٧٢)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن. والحاكم في التوبة والإنباء (٢٤٥/٤)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. من طريق محمد بن إسحاق. وقال ابن حجر في المطالب العالية (٤٢١٢): رواه محمد بن إسحاق في السيرة، وهذه الطريق حسنة جليّة... وهو حديث حسن متصل، ورجاله ثقات. عن علي بن أبي طالب.

أو تقتدي به في الغنى؛ لأنّه كان ذا مال كبير، ولكنك لا تستطيع أن تقتدي به إذا كنت فقيرًا، ولا تستطيع أن تقتدي به إذا كنت محكومًا.

تستطيع أن تقتدي بعيسى ابن مريم في الزهد، ولكنك لا تستطيع أن تقتدي به إذا كنت زوجًا؛ لأنّه لم يتزوج، وإذا كنت أبًا لا تستطيع أن تقتدي به؛ لأنّه لم ينجب، ولو كنت حاكمًا لا تستطيع أن تقتدي به؛ لأنّه لم يحكم، وإذا كنت مقاتلاً لا تستطيع أن تقتدي به؛ لأنّه لم يقاتل، أمّا مُحَمَّدٌ ﷺ، فتستطيع أن تقتدي به في كل جوانب الحياة.

كلُّ من أراد القدوة وجد فيه ﷺ القدوة، سيرته ﷺ شاملة كرسالته، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]؛

الواجب علينا نحو سيرته ﷺ :

لهذا كان علينا أن نتفهّم سيرته، وأن نتعرّف عليها، نعرفها على حقيقتها حتّى نستطيع أن نقتدي وأن نتبع. كان الصحابة كما قال عليّ بن الحسين: كُنَّا نُرَوِّي أَبْنَاءَنَا مَغَازِيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كما نَعْلَمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ^(١)!

كانوا يروون لهم أحداث السيرة؛ خاصّة المغازي في العهد المدني، فإنّ سيرة النبي ﷺ كانوا يُسَمُّونها المغازي، لماذا؟ لأنّ المغازي أهمُّ ما في السيرة، فأهمُّ ما في السيرة العهد المدني، والعهد المدني عهد جهادٍ مُسَلَّحٍ، وصدام دائم مع الوثنيّة المُتَجَبِّرة، ومع اليهوديّة الغادرة، ومع النصرانيّة المُتَرَبِّصة، ومع المنافقين وغيرهم.

(١) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٥٩١)، تحقيق محمود الطحان، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

كان عهد كفاح وجهاد، ولذلك غزا النبي ﷺ بنفسه سبعا وعشرين غزوة، قادها بنفسه، وأرسل أكثر من خمسين سرية من أصحابه، كانت هذه السنوات في العهد المدني سنوات كفاح وجهاد، ما من بيت إلا وقدّم شهداء، ما من أسرة إلا كان لها عند الله من يشفع لها من أبنائها، كان هذا هو شأن المسلمين!

هذا الدين الذي ننعم اليوم بظلاله، ونعيش في رحابه، لم يأتنا عفواً صفواً، لم يأتنا لقمة سائغة، ولا غنيمة باردة، لقد أزهقت في سبيله أرواح، وأنفقت أموال، وسالت دماء، فعلينا أن نحافظ عليه، يجب أن نتعلم سيرة رسول الله ﷺ، يجب أن نتعرف عليها بأنفسنا، ونحكيها لأبنائنا وبناتنا، نعيش عليها بدل الأفلام والمسلسلات والقصص الخرافية، ينبغي أن نحكي لأبنائنا وأحفادنا سيرة رسول الله ﷺ، وأن ندرس سيرته ﷺ.

سيرته ﷺ محفوظة:

ومن حُسن حظنا نحن المسلمين أن السيرة الوحيدة من سير الأنبياء التي حُفظت وجمعت، وحُكِيت ورُويت، وبُلّغت بحذافيرها هي سيرة مُحَمَّد ﷺ. ليس هناك نبي حُفظت سيرته، وبُلّغت لقومه كما حُفظت سيرة رسولنا ﷺ. ما عُرف من سيرة الأنبياء شيء قليل، أمّا سيرة النبي مُحَمَّد ﷺ فقد عُرفت من الميلاد إلى الوفاة، عُرف أين ولد، ومتى ولد، وكيف ولد، من أرضعته، وكيف نشأ، وكيف عاش، إلى أن تزوج، وإلى أن بُعث.

عُرف ماذا لاقى في العهد المكي، وكيف صبر وصابر وتحمل هو وأصحابه ثلاث عشرة سنة في مكة، ثم كيف هاجر، وكيف تمت



الهجرة، ثم كيف جاهد، وكيف حارب وسالم، وكيف انتصر في بعض الأحيان، وكيف لم ينتصر؛ إلى أن تُوفِّيَ ﷺ، واختاره الله إلى الرفيق الأعلى، وانتقل إلى جوارِ ربِّه راضيًا مرضيًا.

سيرة متكاملة ليس فيها دائرة حمراء:

السيرة كلّها حلقات متكاملة، ليس فيها دائرة حمراء، أو منطقة محظورة، يقال: هذه لا تكتب، كلُّ شيء أمر المسلمون أن يبلغوه عن رسول الله ﷺ حتى حياته الخاصّة.

العباقة والزعماء والعظماء لهم حياة خاصّة لا تُحكى ولا تُروى ويقال: هذا من الخصوصيّات، لا ينبغي أن يُتناقل، ولكن خصوصيّات رسول الله ﷺ تتناقل؛ لأنّها تشريع، حتى ما كان بينه وبين زوجاته، تسع زوجات تحكين حياته الخاصّة، لو نسيت واحدة منهن ذكّرتها الأخرى، ولعلّ هذا من الحكم التي تضاف إلى أسباب تعدّد زوجاته ﷺ ليبلغن عنه، ويروين عنه كيف كان يعاشر أهله، كيف كان يأكل ويشرب، وينام ويستيقظ، كيف كانت حياته في خلوته كما كانت معروفة في جلوته!

سيرة معروفة وواضحة:

سيرة النبي ﷺ معروفة، القرآن حدّثنا عنها، وكتب السيرة حدّثنا عنها، وكتب الحديث حدّثنا عنها، أحاديث كثيرة وطويلة، وكتب دلائل النبوة والشّمائل، هذه ذكرت لنا حياته، ذكرت لنا هديه في مأكله ومشربه، وملبسه وتجمّله وزينته، ومركبه، وتعبّده وذكره، وتسبيحه وتهليله، وصلاته وقيامه وصيامه، وحجه وعمرته، وضحكه وبكائه، وسفره وحضره، وجهاده وغزواته.. كل شيء بُلّغ لنا عن رسول الله ﷺ،

وكلُّ شيء عنه ﷺ مشرف كلَّ التشريف، إنَّه يمثل الإنسان الكامل، الَّذي أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه، وهيَّاه لتلقي أعظم رسالة وأعظم كتاب، ﴿وَإِنَّكَ لَلتَّالِي الْقُرْآنَ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

هيَّاه الله، واصطفاه لنفسه، وصنعه على عينه، وأعدَّه لهذه المهمة العُظمى ليكون ﴿شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وداعيًا إلى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿[الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. ومبشِّرًا للمؤمنين بأنَّ لهم من الله فضلًا كبيرًا، هكذا كان رسول الله ﷺ

لهذا كان علينا أن نتعرَّف على هذه السيرة الطاهرة العاطرة الذكية، علينا أن نتعرَّف عليها لا لمجرَّد التسلي بقراءتها، أو لمعرفة فحسب، ولكن لتتخذ منها نبراس هداية، لتتخذ منها قدوة وأسوة.

أبلغ دليل على صدقه ﷺ :

هذه السيرة من أبلغ الأدلة على صدقه ﷺ، وعلى صحَّة نبوته، وعلى أنَّه لا ينطق عن الهوى، إنَّه هو إلَّا وحيُّ يُوحى.. على أنَّه لا يُمثَّل نفسه، وإنَّما يمثل الإرادة الإلهية، على أنَّه نبيُّ مرسل من الله ﷻ، لا يمكن أن تكون هذه السيرة سيرة رجل دجَّال، هذا الإنسان الَّذي كان موصول القلب بربه ليل نهار، كان يراقب الله في حركاته وسكناته، ويذكره في غدواته ورؤوحاته، ولا يغفل عن ربه طرفة عين، تنام عيناه وقلبه لا ينام، بأبي وأمي ﷺ!

هذا الإنسان لا يمكن أن يكون دجَّالًا، هذا الَّذي كان يقوم الليل حتَّى تتورَّم أو تتفطر قدماه، من طول القيام لربه قائمًا قانتًا، راکعًا ساجدًا، كان ﷺ يبكي حتَّى تَبُلَّ دموعه لحيته، وكان يشفق عليه

أصحابه، وكانت تشفق عليه زوجاته، حتّى قالت له عائشة: يا رسول الله، لمّ هذا كله؟ تقوم حتّى تشفق قدماك، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر! فيقول لها: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟!»^(١).

أفلا أكون عبداً شكوراً؟ ألا تستحق هذه النعمة مغفرة ما تقدّم من الذنب وما تأخر أن أشكرها؟ فأزداد إقبالاً على الله وحبّهِ، أفلا أكون عبداً شكوراً؟!!

كان مقبلاً على الله قائماً صائماً، حتّى إنّه كان ينهى أصحابه عن الوصال ويواصل هو الصيام، يأتي المغرب فلا يفطر، ويأتي الفجر وهو صائم، يواصل اليوم بيوم آخر، فيقول له أصحابه: إنك تواصل يا رسول الله! فيقول: «وأيكم مثلي؟ إنني أبيتُ يُطعمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»^(٢).

لا تظنّوا أنّه يُطعمه اللحم والأرز، أو الفاكهة، أو يسقيه الماء، لا، إنّهُ غذاء آخر، وشراب من نوع آخر، إنّهُ غذاء القلب، وشراب الرّوح، إنّهُ مشغول بمعرفة ربّه وحبّه وخشيته، لذلك شغله هذا عن الشراب والطعام والدنيا، كما قال القائل:

لها أحاديثٌ من ذكراك تشغلها عن الشّرابِ وتلهيها عن الزّادِ
لها بوجهك نورٌ يُستضاء له ومن حديثك في أعقابها حادِ
إذا شكّت من كلالِ السّيرِ أوعدّها رَوْحُ القُدومِ فتحيّا عند ميعادِ^(٣)

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٢٠)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣)، كلاهما في الصيام، عن أبي هريرة.

(٣) البيتان الأولان من شعر إدريس بن أبي حفصة كما في زهر الآداب للحصري القيرواني

(٥٥١/٢)، نشر دار الجيل، بيروت. والأبيات جميعاً ذكرها غير منسوبة ابن القيم في مفتاح =

لم يكن ﷺ طالب ملك:

هذا المتعبد لربه، هذا الذي روي عنه من الأذكار والأدعية في الليل والنهار، والصباح والمساء، وفي كل حركة من حركات الحياة، ما يربط القلوب بذكر الله، والألسنة بالتسبيح والتهليل لله، هذا الشاكر الذاكر لا يمكن أن يكون دجالاً، لا يمكن أن يكون كذاباً، ولا يمكن أن يكون طالب ملك، وأي ملك يبغي؟ وماذا يريد من الملك؟ وماذا ظهر عليه من آثار الملك، وقد عاش لم يشبع ثلاثة أيّام متوالية من خبز الشعير، لم يأكل على مائدة قط، يأكل على الأرض، لم يعرف الخبز المرقق؛ لأنّه في حياته ﷺ لم يعرفوا المناخل، إنّما هو خبز من شعير طحينه غير منخول، طحين خشن!

لم يأخذ من الدنيا كما يأخذ منها الملوك وطلاب الملك، طالما اشتكى الجوع حتّى شدّ الحجر على بطنه، اشتكى أصحابه يوماً من شدة الجوع، وكشفوا عن بطونهم، فكان كل واحد منهم يضع على بطنه حجراً مشدوداً من طول ما مرّ به من الزمن لم يأكل! فكشف ﷺ عن بطنه؛ فوجدوه قد شدّ عليها حجرين، شدّ عليها حجرين، ولو أراد أن تنقلب له الجبال ذهباً لأعطاه الله ما أراد، ولكنّه أراد كما قال لجبريل: «أجوع يوماً فأصبر، وأشبع يوماً فأشكر»^(١). إذا جعت يا رب، صبرت وتضرعت إليك، وإذا شبع، شكرتك وأثنت عليك!

= دار السعادة (٩٨/١) تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، نشر دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٣٢هـ.

(١) رواه أحمد (٢٢١٩٠)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف جداً. والترمذي في الزهد (٢٣٤٧)، وحسنه، والطبراني (٢٠٧/٨)، عن أبي أمامة.

هكذا عاش النبي ﷺ. يقول عروة بن الزبير ابنُ أسماء بنت أبي بكر؛ راويًا عن خالته عائشة أم المؤمنين تقول: والله يا ابن أختي إن كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ: ثلاثة أهلة في شهرين، وما أُوْقِدَ في أبيات رسول الله ﷺ نَارٌ، (لا يطهون طبخًا)، قلتُ: يا خالَةُ فما كان يُعِيشُكُمْ؟ قالت: الأسودان: التَّمْرُ والماء، (تمر المدينة، والماء سمي أسود؛ لأنَّه ماء آبار، والماء في البئر يظهر أسود) إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ^(١)، فَكَانُوا يَرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَيَسْقِيْنَاهُ^(٢).

ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين وسقًا من شعر، استلفها في نفقة عياله، ورهن عند اليهودي درعه^(٣)، أهذا ملك؟ أهذا طالب ملك؟ إنَّه لم يورث أهله شيئًا، «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»^(٤)، ما تركناه صدقة، هذا هو رسول الله ﷺ.

إِنَّ سِيرَتَهُ لَمَنْ تَأْمَلُهَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَدَلَّةِ وَأَبْلَغُهَا عَلَى صَدَقِ رِسَالَتِهِ، وَصَحَّةِ دَعْوَتِهِ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ عَنْ رَبِّهِ لَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ.

سيرة التوازن والاعتدال:

علينا أن نُدْرِسَ سِيرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وعلينا أن نَتَّخِذَ مِنْهَا الْقُدْوَةَ، حَتَّى نَعِيشَ لِلَّهِ، نَعِيشَ لِهَذَا الدِّينِ، نَعْطِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، هُوَ ﷺ رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ

(١) المنائح: جمع منيحة، وهي الناقة أو الشاة ذات اللبن.

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في الهبة (٢٥٦٧)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٢).

(٣) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في الجهاد (٢٩١٦)، ومسلم في المساقاة (١٦٠٣)، عن عائشة.

(٤) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٢، ٣٠٩٣)، ومسلم في الجهاد (١٧٥٩)، عن

أبي هريرة.

يعيش لربّه، يعيش لدينه، يقوم الليل حتّى تتفطر قدماه، رغم هذا كله لم يفرط في حقّ من حقوق البشر، أعطى كلّ ذي حقّ حقّه؛ ولهذا عندما ذهب جماعة من أصحابه يسألون أزواجه عن عبادته ﷺ فعرفوا أنّه كان يقوم بعض الليل وينام بعضه، ويصوم بعض الأيام ويُفطر بعضها، فكأن هذا لم يُشبع نهمتهم، فقالوا: وما لنا ورسول الله ﷺ، وأين نحن منه، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! فقال أحدهم: أمّا أنا فإنّي أصليّ الليل أبداً. وقال آخر: وأنا أصوم الدهر، ولا أفطر أبداً. وقال آخر: وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوّج أبداً! فجاء رسول الله ﷺ إليهم، وقال: «أنتم القوم الذين قلّتم كذا وكذا؟ أمّا والله، إنّني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنّي أصوم وأفطر، وأصليّ وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»^(١).

إنّ سنّته ومنهجه هو التوازن والاعتدال، التوازن بين الدُّنيا والآخرة، بين حقّ الربّ وحظّ النفس، بين حقّ الله وحقوق الأسرة وحقوق المجتمع؛ ولهذا عندما رأى من بعض أصحابه وهو عبد الله بن عمرو مبالغة في التعبّد؛ إلى حدّ أنّه جار على حقّ زوجته وحقّ من حوله، قال له: «ألم أُخبر أنّك تصوم النهار وتقوم الليل؟!». قال: بلى، يا رسول الله، وما أردتُ بذلك إلّا الخير. قال له: «صُمْ ثلاثة أيّام من كلّ شهر». قال له: أستطيع أكثر من ذلك. قال: «صُمْ يوماً وأفطر يوماً». قال له: أستطيع أكثر من ذلك. قال: «عليك بأحبّ الصيام إلى الله: صيام داود، كان يصوم يوماً ويُفطر يوماً، ينام بعض الليل ويقوم بعض الليل». ثمّ قال له: «فإنّ لبدنك عليك حقّاً، وإنّ لأهلك عليك حقّاً - يعني لزوجتك - وإنّ لعينك عليك حقّاً، وإنّ لزورك عليك حقّاً».

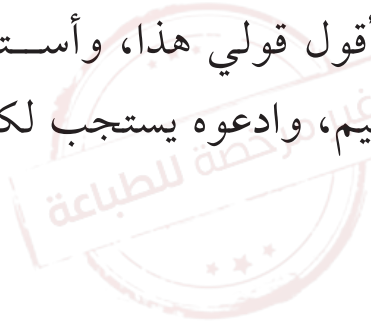
(١) متّفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس بن مالك.



فَإِنَّ لِبَدَنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فِي الرَّاحَةِ، وَإِنَّ لَعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فِي النَّوْمِ،
وَإِنَّ لَزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فِي الْإِمْتَاعِ وَالْإِحْصَانِ وَالْمَعَاشِرَةِ، وَإِنَّ لَزَوْرِكَ
أَيَّ زَوَّارِكَ (الْمَجْتَمَعِ) عَلَيْكَ حَقًّا، بِالمُشَارَكَةِ وَالْخِدْمَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، فَأَعْطِ
كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَكَمَا أَنَّ اللَّهَ عَلَى الْإِنْسَانِ حَقًّا، فَإِنَّ لِلْمَجْتَمَعِ وَلِلنَّفْسِ
وَلِلْأُسْرَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ حَقُوقٌ، هَكَذَا كَانَتْ سِيرَتُهُ ﷺ هِيَ سِيرَةُ التَّوْازَنِ
وَالْإِعْتِدَالِ؛ فَعَلَيْنَا أَنْ نَغْرِسَهَا وَنَتَعَرَّفَ عَلَيْهَا، وَنَرْجِعَ إِلَيْهَا؛ فَفِيهَا الْخَيْرُ
كُلُّ الْخَيْرِ، وَفِيهَا الْهَدْيُ كُلُّ الْهَدْيِ، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ
تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ، وادعوه يستجب لكم.

* * *



الخطبة الثانية

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة:

مساعدة إخواننا المحتاجين في إفريقيا:

ما زالت المجاعة في إفريقيا مستمرة، وما زال إخواننا في بلاد شتى من بلاد الإسلام يشكون الجوع لحد الهلاك والموت، ولا زال الواجب الإسلامي ينادينا أن نمدّ أيدينا إلى هؤلاء، ممّا أفاء الله علينا؛ شكرًا للنعمة، وأداءً للواجب، وإبقاءً لهذه النعمة أن تزول، وطلبًا للزيادة عند الله وَعَلَى، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

ورد أنّ في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يُصادفها عبدٌ مسلم يدعو الله بخيرٍ إلّا استجاب له^(١)، ولعلّها تكون هذه الساعة!

اللهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دُنياً التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كلّ خير، واجعل الموت راحة لنا من كلّ شرّ، اللهمّ اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢)، كلاهما في الجمعة، عن أبي هريرة.

اللهم إِنَّا نَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِنَا وَدُنْيَانَا، وَأَهْلِينَا وَأَمْوَالِنَا،
اللهم اسْتَرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا،
وعن أيمننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نُغْتَالَ من تحتنا،
اللهم أكرمنا ولا تُهِنَّا، وأعطينا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا
ولا تؤثر علينا. وارض عنا وأرضنا.

اللهم انصُرْ إخواننا المجاهدين في فلسطين، وانصُرْ إخواننا
المجاهدين في أفغانستان، وانصُرْ إخواننا المجاهدين في إريتريا، وانصُرْ
إخواننا المجاهدين في الفلبين، وانصُرْ إخواننا المجاهدين في كل مكان،
اللهم خذ بأيديهم إلى مواطن النصر، اللهم أيدهم بملا من جندك،
وأمدّهم بروح من عندك، واحرّسهم بعينك التي لا تنام، واكلاًهم في
كنفك الذي لا يُضام، اللهم عليك باليهود الغادرين، اللهم عليك
بالشيوعيين المُلحدين، اللهم عليك بالصليبيين المستعمرين، اللهم
عليك بأعدائك أعداء الدين، اللهم ردّ عن المسلمين كيدهم، وفلّ
حدّهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من
عبادك المؤمنين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ
فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

عباد الله، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. اللهم صل
وسلم وبارك على عبدك ورسولك مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ
اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].



ذكرى ميلاد النبي ﷺ (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

كَلَّمَا أَهْلَ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ أَهَلَّتْ عَلَيْنَا ذِكْرَى طَيِّبَةً، مَا أَعْظَمَ هَذِهِ
الذِّكْرَى، وَمَا أَرْوَعَهَا وَمَا أَحْلَاهَا! إِنَّهَا ذِكْرَى مَوْلِدِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ،
خَاتَمِ رُسُلِ اللَّهِ ﷺ.

لَمْ يَكُنِ الصَّحَابَةُ وَلَا التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ يَحْتَفِلُونَ بِهَذِهِ الذِّكْرَى،
وَلَا بغيرها من الذِّكْرِيَّاتِ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ حَيًّا مَعَهُمْ، وَكَانَتْ كُلُّ
مَوَاقِفِهِ حَاضِرَةً فِي حَيَاتِهِمْ، فَلَمْ يَكُونُوا يَحْتَاجُونَ إِلَى أَنْ يُذَكِّرُوا أَنْفُسَهُمْ
بِهَذِهِ الْمَوَاقِفِ، كَانُوا يُذَكِّرُونَ أَنْفُسَهُمْ بِمَا قَالَ عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ: كُنَّا نُرَوِّي
أَبْنَاءَنَا مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا نَحْفَظُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢). يَقْصُونَ
عَلَيْهِمْ مَا حَدَّثَ فِي بَدْرٍ، وَفِي أُحُدٍ، وَفِي الْخَنْدَقِ، وَفِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ،
وَفِي فَتْحِ مَكَّةَ، وَفِي الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَفِي هَذَا الْأَحْدَاثِ، يَتْلُونَهَا عَلَيْهِمْ
كَمَا يَحْفَظُونَهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ.

(١) أَلْقَيْتُ فِي الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ، بِالْقَاهِرَةِ، بِتَارِيخِ ٢٥ يَنَآيِرِ ٢٠١٣ م.

(٢) رَوَاهُ الْخَطِيبُ فِي الْجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّائِي (١٥٩١).

ثم جاء عهد أراد فيه الدعاة: أن يُذكروا النَّاسَ بإحياء هذه الذكريات، وكان في هذا الإحياء أشياء قبلها النَّاسُ، وأشياء رفضها كثير من العلماء، فالذي نأخذه من هذه الذكريات هو إحياء ذكرى السيرة.

حينما نحتفل بميلاد النبي ﷺ لا نحتفل بميلاد الرسول، ولكننا نحتفل بميلاد الرسالة، نحن نذكر المسلمين بأمرين أساسيين: شخصية الرسول ﷺ، هذه الشخصية العظيمة التي قال الله ﷻ يُزَكِّي شَيْئًا مِنْهَا، يُزَكِّي خَلْقَ مُحَمَّدٍ ﷺ، حينما ادَّعى المشركون أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مجنون فقال الله تعالى: ﴿تَوَلَّى وَآلَقَمٌ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿[القلم: ١ - ٤].

صاحب الخلق العظيم لا يمكن أن يكون مجنونًا، لأنَّ المجنون يتخبط، لا يقف عند حد، أموره غير منتظمة، أمَّا صاحب الخلق العظيم فكلُّ شيء عنده محسوب، إنَّه صاحب خلق عظيم مع ربِّه، صاحب خلق عظيم مع نفسه، صاحب خلق عظيم مع زوجه، مع أولاده، مع جيرانه، مع أصحابه، مع أعدائه، مع مَنْ يسألهم، مع مَنْ يحاربهم، فمثل هذا لا يمكن أن يكون مجنونًا، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ولذلك حينما سُئِلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ قالت: كان خلقه القرآن^(١). إذا أردت أن تعرف خلق مُحَمَّدٍ ﷺ فاقرأ القرآن، اقرأ أوصاف المؤمنين، اقرأ أوصاف المتقين، اقرأ أوصاف المحسنين، اقرأ أوصاف الأبرار، اقرأ أوصاف عباد الرحمن، كل الأوصاف الطيبة تجدها ممثلة في مُحَمَّدٍ ﷺ، كان خلقه القرآن.

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.

نحن حينما نحتفل بذكرى رسول الله ﷺ نذكر الناس بهذه الشخصية العظيمة، شخصية مُحَمَّد ﷺ، ومن حُسْنِ الحظ أنَّ الرسول وحده هو الَّذي حُفِظَت شخصيته حفظًا كاملاً، لا يوجد رسول من رسل الله حُفِظَت حلقات حياته وشخصيته، كما حُفِظَت حياة مُحَمَّد ﷺ. كثير من الأنبياء تُعرف أجزاء بسيطة من سيرهم، أمّا بقية حياتهم فهي مجهولة.

ولكن محمداً ﷺ حياته معروفة منذ ولادته، حتّى منذ حملته، ومنذ طفولته، ومنذ شبابه، ومنذ كهولته، ومنذ شيخوخته، بعد البعثة، وقبل الهجرة، وبعد الهجرة، وفي الغزوات: حياة الحرب، وفي حياة السلم، كل هذه الأشياء محفوظة، ليس على شيء منها خط أحمر، ليس فيها شيء محظور لا نتحدث فيه، لا، بل كل شيء نعرفه ونتحدث فيه، حتّى حياته الشخصية، حياته الأسريّة مع زوجاته، كل هذه تُروى لنا، وليس هناك امرأة واحدة، بل تسع نساء، إذا نسيت واحدة تذكر الأخرى.

حياة مُحَمَّد ﷺ مكشوفة تماماً للناس؛ لأنّ حياته جُعِلَت للاقتداء والتأسي، يتأسى الناس بها، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. كل مَنْ يرجو الله، كل مَنْ يرجو الآخرة، كل صاحب إيمان يجد في سيرة مُحَمَّد مكاناً له متسعاً له.

بعض الأنبياء لا تجد في سيرتهم مكاناً للأسوة، إذا أراد الزوج أو الأب أو الجد أن يتأسى بالمسيح ﷺ لا يجد مكاناً له في سيرته، لأنّ المسيح لم يتزوج، وكذلك المحارب والمسالّم لا يجدا لهما مكاناً في سيرة المسيح؛ لأنّه لم يحارب ولم يسالم، والحاكم صاحب الدولة لا يجد له مكاناً في سيرة المسيح؛ لأنّه لم يحكم، والغني لا يجد له



مكاناً في سيرة المسيح؛ لأنه لم يأتِه مال، وإنَّما كانت للمسيح حياة معيَّنة، حياة الإنسان الفقير الراضي بما عنده، الَّذي يستطيع أن يقول ما يعتقد أنَّه الحق، ولا يبالي فيما أصابه في سبيل الله، مستعد أن يُضحِّي بنفسه وبكل شيء، هذا ما نجده في سيرة المسيح ﷺ.

نجد سيِّدنا سليمان، أعتقد أنك تستطيع أن تتأسَّى به إذا كنت حاكماً، إذا كنت تملك من البلاد ومن الناس: تجد في سليمان الَّذي آتاه الله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، تجد هناك متسعاً، الفقير لا يجد مكاناً في حياة سليمان ﷺ، وهكذا تجد في سيرة الأنبياء أماكن للأسوة والقُدوة، وأماكن أخرى لا تجدها في هذه السيرة.

أمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فقد جعله الله أسوة لكل من يرجو الله واليوم الآخر، فالشباب يجد فيه أسوة، والشيخ يجد فيه أسوة، والعزب يجد فيه أسوة، والمتزوج يجد فيه أسوة، وصاحب الزوجة الواحدة يجد فيه أسوة، وصاحب الأزواج المُتعدِّدة يجد فيه أسوة، والمسالم يجد فيه أسوة، والمحارب يجد فيه أسوة، ومن كان له أولاد يجد عنده أسوة، ومن مات له أولاد يجد عنده أسوة، كل إنسان يجد في حياة مُحَمَّدٍ ﷺ أسوة يتأسَّى بها؛ لأن الله أَراده أن يكون رحمةً للعالمين، كما قال تعالى له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. بهذه الصيغة الَّتِي نسميها نحن العلماء صيغة الحصر، ليس إِلَّا رحمة.

لا تجد في حياة مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا الرحمة، من قال غير ذلك فهو جاهل أو كاذب، لم يكن في حياة مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا الرحمة للنَّاس كل النَّاس، الرحمة للمؤمنين، والرحمة للكافرين، الرحمة للمسالمين، والرحمة للمحاربين،

كان رحيماً، هو رحمة، ولذلك قال: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مَّهْدَاةٌ»^(١). أنا رحمة أهداها الله للعالمين، ليس رحمة للمسلمين وحدهم، ولا للعرب وحدهم، بل لكل النَّاس، من مشارقة ومغاربة، وعرب وعجم، وجن وإنس، كان مُحَمَّدٌ ﷺ رحمة للعالمين.

حينما نتحدث عن المولد النبوي نجد مجالاً لأن نتحدث في هذه السيرة، ولو فتحنا الباب للحديث في سيرة مُحَمَّدٍ ﷺ لطال بنا الحديث.

في أيِّ ناحية من النواحي نتحدث عن مُحَمَّدٍ ﷺ؟ في حياته الشخصية؟ أم في حياته عابداً لله تبارك وتعالى؟ كان يعبد الله، يصلي فتفيض عيناه بالدموع وتبل لحيته، ويظل يصلي ويصلي حتَّى تنفطر قدماه، وتشقق قدماه، وتتورم قدماه، وتقول له زوجته عائشة من شدة إشفاقها عليه: تفعل هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ كما قالت سورة الفتح: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. فقال لها: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(٢) هَبِي أَنْ الله غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر؛ أليست هذه نعمة تستحق الشكر؟ والشكر أن أزداد في إقبالٍ على الله ﷻ.

كان عابداً لله، وليس عابداً لأنَّه أمر بذلك فحسب، هناك من يعبد الله لمجرد أنَّه أمر بهذا، فهو ينفذ فقط بدون قلب، بدون روح، لكنَّه ﷺ يقول: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٣). ويقول لبلال مؤذنه إذا دنا وقت

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٣٥/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٩٠)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨٢٠)، عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. والنسائي في عشرة النساء (٨٨٣٦)، وصحَّح إسناده ابن الملقن في البدر المنير (٥٠١/١)، وحسنه ابن حجر في التلخيص (٢٤٩/٣)، عن أنس.

الصلاة: «أرحنا بها يا بلال»^(١). فرق بين من يقول: أرحنا بها. ومن يقول: أرحنا منها. لا، لم يكن هكذا مُحَمَّدٌ ﷺ، كانت الصلاة قُرّة عينه، إذا دخل في الصلاة وجد انشراح صدره، واطمئنان قلبه.

وكان يصوم حتّى يقول الناس: لا يُفطر. ويُفطر حتّى يقول الناس: لا يصوم^(٢). وإذا صام استغرق في ذكر ربه وفي الأنس به، وكان ينهى أصحابه عن مواصلة الصيام، ويأمرهم أن يفطروا حينما يأتي المغرب، فقالوا: أتنهانا عن الوصال يا رسول الله وأنت تواصل؟ قال: «وأنتكم مثلي؟ إني أبيت يُطعمني ربّي ويسقيني»^(٣). ليس كما نطعم ونشرب، إنّه الأنس بالله، والاستغراق في حبّ الله ﷻ، هكذا كان مُحَمَّدٌ ﷺ.

لم يكن دجّالاً، ولم يكن من مُجَبّي الدنيا، من يقرأ سيرته يعلم أنّ هذه سيرة نبيّ مرسل، سيرته نفسها هي أعظم دليل على أن محمداً رسول الله، فالكذابون لا يمكن أن تكون هذه سيرتهم، هذه سيرة إنسان لا يريد الدنيا.

كان يضع الحجر على بطنه من شدة الجوع، وذات مرّة كشف الصحابة عن بطونهم فكان كل واحد يضع حجراً على بطنه من شدة الجوع، لم يأكلوا من عدة أيّام، ووجدوا النبي ﷺ وضع على بطنه حجرين، كان أشدّ منهم جوعاً^(٤)، كان الهلال يمر ثمّ الهلال ثمّ الهلال،

(١) رواه أحمد (٢٣١٥٤)، وقال مخرّجوه: رجاله ثقات؛ لكن اختلف فيه على سالم بن أبي الجعد في إسناده. وأبو داود في الأدب (٤٩٨٦)، وصحّحه الألباني المشكاة (١٢٥٣)، عن رجل من الأنصار.

(٢) متّفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٩)، ومسلم (١١٥٦)، كلاهما في الصيام، عن عائشة.

(٣) متّفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣)، كلاهما في الصيام، عن أبي هريرة.

(٤) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٧١)، واستغربه. والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٤٣)، وقال العراقي في تخريج الإحياء ص ٨٤٢: ورجاله كلهم ثقات. وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤١٣)، وقال في الصحيحة (١٦١٥): الحديث حسن بمجموع الطرق، عن أبي طلحة.

ثلاثة أهلة في شهرين وما طُبِخ في بيت رسول الله طَبِخ، ما أوقدت نار في بيوت النبي ﷺ^(١).

هكذا كان ﷺ، ما كان يريد الدنيا، وحينما فتحت له الفتوح وجاءته الدنيا لم يكن يُبقي عنده إلا شيئاً لذي غُرم أو لذي حاجة، ويتخفف من هذا كله، عاش ﷺ للآخرة، لله وَجَلَّ.

لا أستطيع أن أحدثكم عن كل جوانب حياة مُحَمَّد ﷺ، لأنّها حياة حافلة، أوصيكم أن تقرأوا السيرة النبوية، سيرة رسول الله ﷺ، ستزودون منها، ستستمتعون بها، ستجدون فيها ما يروي الغليل، وما يشفي العليل، ستجدون فيها ما يملأ قلوبكم ويملأ عقولكم، هذه سيرة نبينا ﷺ.

هذه هي السيرة، نحن حينما نحتفل بالمولد، نحتفل بالسيرة، ونحتفل أيضاً بالرسالة، مُحَمَّد ﷺ صاحب سيرة عظيمة، وهو أيضاً صاحب رسالة عظيمة، أعظم رسالة بعث الله بها نبياً هي رسالة مُحَمَّد ﷺ.

رسالة الزمن كله والعالم كله:

وصف الإمام حسن البنا هذه الرسالة بكلمات أعجب بها، يقول: أنّها الرسالة التي امتدت طويلاً حتّى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتّى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتّى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٦٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٧٢)، عن عائشة.

(٢) مقال: من وحي حراء للإمام حسن البنا، جريدة الإخوان المسلمون اليومية، السنة الأولى،

العدد (١٦٨)، ص١، بتاريخ ٢٧ ذو الحجة ١٣٦٥هـ - ٢١ نوفمبر ١٩٤٦م.

هي رسالة الزمن كله، هي رسالة آدم ونوح وإبراهيم، وموسى وعيسى، وداود وسليمان، كل الأنبياء جاؤوا بالإسلام، كلهم قالوا: نحن مسلمون.

وهي رسالة العالم كله، امتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿ [ص: ٨٧، ٨٨]، ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، كل الناس في كل العالم جاءهم مُحَمَّدٌ ﷺ بهذه الرسالة، فهي رسالة عالميّة.

بعض النَّاس من المستشرقين وأمثالهم قالوا: مُحَمَّدٌ لم يعرف العالميّة إلّا في المدينة، وبعد صلح الحديبية، حينما بدأ يرسل لكسرى ولقيصر، وللنجاشي وللمقوقس ولأمراء العرب: رسالات يدعوهم فيها إلى الإسلام.

ولكن هذا ليس صحيحًا، فمن يقرأ الآيات التي تنبئ بعالميّة القرآن: يجد كل الآيات في سور مكّيّة بالإجماع، فعالميّة الإسلام منذ ظهرت الرسالة في مكّة بلا شك، ولكن لم يفرغ مُحَمَّدٌ ﷺ ليرسل رسالة إلى ملك أو إمبراطور؛ إلّا بعد صلح الحديبية، فبدأ يرسل لهؤلاء جميعًا.

هذه هي رسالة مُحَمَّدٌ ﷺ، رسالة غيّر بها مُحَمَّدٌ العالم كله: غيّر العقائد، غيّر العبادات، غيّر الأخلاق، غيّر التشريع، لو تحدثت عن كل جانب من هذه الجوانب بجمل معدودة لا يسعفني الوقت.

تغيير عقائد الناس:

جاء مُحَمَّدٌ ﷺ برسالة غيّرت عقائد النَّاس، كانت عقائد العالم في القرن السابع الميلادي قد تغيّرت كلها إلى الوثنيّة، حتّى الأديان الكتابيّة:

اليهودية والنصرانية - وهي أديان توحيدية في الأساس - تغيرت معانيها، وقبلوا التغيرات الدخيلة، فاليهودية أصبحت تشبه الله بخلقه، والمسيحية أصبحت تشبه المسيح بربه، ودخلها التثليث، وقبل الناس هذه الأشياء حينما دخل الملك قسطنطين ملك روما في النصرانية، ولذلك قالوا: ترومت النصرانية ولم تنصّر الرومية.

محمد ﷺ هو الوحيد الذي غيّر العقائد إلى عقيدة التوحيد، حينما أرسل رسالته إلى قيصر يدعو فيه إلى الإسلام ختمها بقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. دعاهم إلى توحيد الله، لا نعبد إلا الله، ولا نشرك بالله شيئاً، هذه دعوة مُحَمَّد ﷺ إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى جميعاً.

وهذا ما عمله من تغيير في جزيرة العرب، كان العرب يعبدون مناة واللات، والعزى وهبل، وغيرها من الأسماء التي سموها هم وآباؤهم وما أنزل الله بها من سلطان، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣].

هؤلاء جاءهم مُحَمَّد ﷺ وعلمهم التوحيد الحق، أن الله واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، لا يشاركه شيء، ولا يشبهه شيء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

آمن المسلمون جميعاً بهذه العقيدة، كل المسلمين يؤمنون بأن

محمداً ﷺ بشر من البشر، ابن رجل وامرأة، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣]، هو ككل الناس، فليس من حقنا أن نعبد، ولا أن نشركه مع الله، لا، فكلنا موحدون لله تبارك وتعالى.

جاء مُحَمَّد ﷺ ووضع هذه العقيدة الأساسية: عقيدة التوحيد، أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، جعلها أساسية في الأذان نقول فيه: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله. وفي ختامه نقول: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. وفي التشهد نقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ليس إلهاً، ولا ابن إله، ولا ثلث إله، ولا رُبع إله، ولا عُشر إله، ليس له من الألوهية شيء، هو عبد الله ورسوله، لهذا جاء مُحَمَّد ﷺ يحرر الناس من العبودية لغير الله ﷻ.

تحرير العبادات لغير الله:

ثم جاء ليحرر العبادات، بحيث لا يعبد الناس إلا الله، كانوا في الجاهلية يدخلون مع بقايا التوحيد أشياء وثنية، حتى في الحج كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. هذا الشريك هو الأصنام، الآلهة المزعومة التي كانوا يدعون أنها آلهة مع الله، فجاء مُحَمَّد ﷺ بهذه التلبية الخالصة: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وجاء بصلاة كلها عبادة لله: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. تسلم على محمد ﷺ: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. لا حرج في هذا، ولكن مُحَمَّد ﷺ هو بشر من البشر، عبد الله ورسوله، هكذا علّمنا النبي ﷺ في كل العبادات.

علّمنا عبادة ماليّة اخترعها الإسلام هي الزكاة، جعلها ركناً من أركان الإسلام، كانت موجودة في الأديان الأخرى، المسيح دعا إلى الصدقة على الفقراء والمساكين، ولكن لم يجعلها فريضة؛ بل لم يجعلها ركناً من أركان النصرانيّة، ولكن محمداً ﷺ جعلها ركناً من أركان الدين، بُني الإسلام على خمسٍ، إحداها إيتاء الزكاة^(١)، وهكذا.

التشريع الذي جاء به النبي ﷺ:

وأما التشريع الذي جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ فكلنا نعرف هذا التشريع، مبني على الإخاء، كل النَّاس إخوة بعضهم لبعض، ليس هناك جنس أفضل من جنس، ليس العرب أفضل من العجم، ولا العجم أفضل من العرب، وليس الأبيض أفضل من الأسود، وليس الأسود أفضل من الأبيض، «كُلُّكُمْ لآدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ»، النَّاس كلهم أبناء أب واحد، وأم واحدة، وكلهم عبيد لرب واحد، خلقهم إله واحد، الله هو خالق الجميع، وآدم هو أبو الجميع، ولذلك في حَجَّة الوداع ناداهم النبي ﷺ إلى هذين المبدئين: «إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ»^(٢). جاء مُحَمَّدٌ ﷺ ليعلن الأخوة والمساواة بين الناس.

وجاء ليعلن التكافل بين النَّاس، النَّاس جميعاً شركاء في المال، المال مال الله، ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، الغني مستخلف في المال، موظف عند الله، لا يجوز له أن يستأثر بالمال وحده، ويترك الفقراء ضائعين، هذا لا يجوز.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦)، كلاهما في الإيمان، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد

(٥٦٢٢): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. عن سمع خطبة النبي ﷺ.



هذا ما جاء به مُحَمَّد ﷺ ، ولو أردت أن أتحدث فيه لطال الحديث،
ولكن تكفينا إشارات في هذا الموقف لنحتفل بذكرى مُحَمَّد ﷺ ، فهي
ذكرى نعتز بها، ونعتز برسولها ﷺ ، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يجعله
شفيعاً لنا، وأن يجعلنا متأسين به، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ادعوا الله تعالى
يستجب لكم.

* * *



الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

الذكرى الثانية لثورة مصر:

نحتفل اليوم بذكرى مولد سيّدنا مُحَمَّد ﷺ، ونحتفل اليوم بذكرى حبيبة وعزيزة أخرى هي ذكرى الثورة المصريّة، مرور سنتين على ثورة مصر، لا شكّ أن ثورة مصر كانت نعمة من أعظم نعم الله تعالى علينا، مَنْ يَشْكُ في هذا فهو يشكُّ في اليقين، فلا يجحد أحد أنا كنا ضائعين مُضَيَّعين، وما زلنا نكتشف كل يوم ما كنا ضائعين فيه في العهد السابق، ضاعت مصر، ضاعت أموالها، وهُرِّبَ ما هُرِّبَ منها، ضاع النَّاسُ، لم يكن لأحد حرية ولا كرامة، يؤخذ الإنسان من بيته في منتصف الليل وبعد منتصف الليل، ولا يعرف أهله أين ذهب، أنا والله أخذت من بيتي، جئت بعد سنة واحدة في قطر، ذهبت إلى قريتي لأزور أهلي، فجأؤوني وأخذوني إلى طنطا، ومن طنطا أخذوني إلى مكان لا أعرف ما هو، وظل أهلي يبحثون عني أسبوعين حتّى عرفوا مكاني، وأرسلوا إليّ ملابس، كنت ألبس بدلة وقتها، ظللت أسبوعين بالقميص والبنطلون، هكذا كان عباد الله يُفعل بهم، نحن نحمد الله وَجَلَّ أَنْ هَيَّاَ لَنَا هَذِهِ الثَّوْرَةَ.

هذه الثورة ثورة المصريين كل المصريين، ليست ثورة الإخوان، ليست ثورة السلفيين، ليست ثورة ٦ إبريل، هي ثورة لكلّ المصريين؛ إلّا الَّذِينَ وقفوا ضد هذه الثورة، ومعظمهم من الفلول، وبعضهم ناس طيبون، والله أعرف منهم أناساً طيبين، ولكنهم استُغفلوا، استغفلهم آخرون، ووظفواهم في غير ما ينبغي أن يُوظَّفوا، هم مصريون مخلصون

يحبون وطنهم، ويحبون إخوانهم، ويعيشون لله تعالى ولبلدهم، ولكنهم استغفلوا، أنا أقول هذا مخلصًا والله العظيم: كل المصريين جميعًا أهل لهذه الثورة، كلهم ساهموا فيها، مَنْ لم يساهم بيده ساهم بلسانه، ومن لم يساهم بلسانه ساهم بقلبه. فاللهم انصر هذه الثورة، اللهم أعز هذه الثورة، اللهم خذ أعداء هذه الثورة.

كلُّ المصريين شاركوا في هذه الثورة، ولذلك ينبغي أن نعمل كلنا على أن تظلَّ هذه الثورة قائمة، وأن ننصح أولياء الأمور، فأولياء الأمور ليسوا آلهة، هم بشر مثلنا، يمكن أن يصيبوا، ويمكن أن يخطئوا، إذا أصابوا قلنا لهم: أحسنتم. وإذا أخطؤوا قلنا لهم: أخطأتم. ولكننا أيضًا بشر، لعلنا في تخطئتنا مخطئون، يجب أن ننظر هكذا إلى أنفسنا، نحن لسنا ملائكة، نحن بشر من الناس.

يجب علينا جميعًا أن نقف كلنا يدًا واحدة، وجبهة واحدة، وقلبًا واحدًا، نحن جميعًا ركاب سفينة واحدة، كما علَّمنا النبي ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها؛ كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا؛ حتى لا نؤذي من فوقنا. فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، ولو أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»^(١).

نحن ركاب سفينة واحدة، نحن أبناء بلد واحد، نحن أبناء شعب واحد، نحن جميعًا مخلصون لهذا البلد، لماذا يسيء بعضنا الظن ببعض، أنا أدعو المصريين جميعًا أن يُحسن بعضهم الظن ببعض، وأن يضعوا

(١) رواه البخاري في الشركة (٢٤٩٣)، والترمذي في الفتن (٢١٧٣)، عن النعمان بن بشير.

جميعاً أيديهم في يد بعض، كل واحد يضع يده في يد أخيه، يقول: أنا منك وأنت مني. نحن كلنا للبلد، يجب أن نعمل معاً.

من حَقِّك أن تعترض على ما تعترض عليه، ليس لأحد أن يمنعك، هذا ما جاءت به الثورة، من حسنات هذه الثورة: أنها أعطت كل واحد حَقَّهُ في أن يحتج على ما يريد، ولكن ينبغي أبداً ألا نسيء استعمال الحقوق، ينبغي أن تؤخذ الحقوق على أنها نعمة من الله، نشكر الله تعالى عليها، ونسأله أن يزيدنا عليها، وأن يتممها علينا، وأن نحافظ عليها. إذا لم نحافظ عليها والله سيعاقبنا الله: بأن تنفرط هذه الثورة منا وتضيع، ونعود إلى ما كنا عليه، ويقاتل بعضنا بعضاً، ولا نكاد نصل إلى شيء، ولماذا يقاتل بعضنا بعضاً ونحن إخوة، ونحن نعمل من أجل هدف واحد، من أجل إعلاء مصر؟

نريد لمصر أن تعلق كلمتها وأن ترتفع رايته، ولا يتم هذا إلا بالاستقرار، لا بد أن نعمل على أن يستقر هذا البلد لبني نفسه، ويُجمّع أولاده وينتج، ونُشغل العاطلين، ونطعم الجائعين، ونرعى الضائعين، ونبني مساكن لمن لا مسكن له، مصر تحتاج إلى أشياء كثيرة جداً، ولكن هذا لا يتم إلا إذا يسّرنا لها السبيل حتى تستطيع أن تبني نفسها، مصر فيها خير كثير إذا يسّرنا لها السبيل، وأعناها على أمرها، وهناك عرب مستعدون أن يساعدوا مصر بعشرات المليارات إذا استقرت البلد، فساعدوا مصر على أن تستقر.

أنا لا أزعم أن أحداً منا معصوم لا يخطئ، أو أنه إله أو نصف إله، كلنا بشر، وكلنا ينبغي أن نعمل، وكلنا يجب أن نتحاور، يجب أن نتداعى إلى الحوار، الحوار هو الأداة الوحيدة التي يمكننا أن يقول بعضنا لبعض: هذا خطأ، وهذا صواب. وليس هناك خطأ لا يُستدرك، لا، كل خطأ يمكن أن يُستدرك، وكل خطأ يمكن أن يُصحح.



إذا كان في الدستور أشياء يمكن أن نستدركها، كل شيء يمكن أن نصحّحه إذا صدقت نيّاتنا، إذا كنا صادقين مع الله ومع الناس، لا نعمل أشياء ظاهرة، وأشياء باطنة، أشياء أمام البشر، وأشياء من خلف البشر، لا، بل نريد أن نكون صادقين مع أنفسنا، صادقين مع ربنا، صادقين مع إخواننا، صادقين مع كل الناس، بمختلف انتماءاتهم، كل الناس هم جميعاً مصريون، يجب أن نعمل من أجل مصلحتهم.

هذا ما أريد أن أقوله أيّها الإخوة، والله أقول هذا من كل قلبي، لا أريد أن أجامل أحداً، ليس لي مطمع في شيء، أنا راحل من هذه الدُّنيا في أواخر عمري، ولا أريد من أحد شيئاً، أريد أن تستقر مصر، وأن تبني مصر نفسها، وأن تصبح من أعظم البلاد، وهي قادرة على هذا والله إذا أعنتموها، يا أيّها الإخوة المصريون، يا أبناء مصر في كل مكان، أعينوا مصر على أن تصل إلى ما تحب، عسى الله ﷻ أن يهيئ لمصر من أمرها رشداً.

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، اللهم هيئ لمصر من أمرها رشداً، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، اللهم انصر إخواننا في سوريا، وانصر إخواننا في مصر، وانصر إخواننا في تونس، وانصر إخواننا في ليبيا، وانصر إخواننا في اليمن، وانصر إخواننا في كل مكان يا رب العالمين، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا؛ ربنا إنّك رؤوف رحيم.

الاحتفاء بالهجرة النبوية^(١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

الحياة وداع واستقبال:

استقبلنا بالأمس عامًا هجريًا جديدًا، وودعنا عامًا آخر، وهكذا مسيرة الحياة للإنسان، وداع واستقبال، الإنسان دائمًا مودّع ومستقبل، مودّع يومًا ومستقبل يومًا، مودّع أسبوعًا ومستقبل أسبوعًا، مودّع شهرًا ومستقبل شهرًا، مودّع عامًا ومستقبل عامًا، وهذه كلها محسوبة من عمر الإنسان، كل عام ينقضي، بل كل يوم ينقضي، بل كل ساعة تنقضي، بل كل لحظة تنقضي هي صفحة من كتاب الإنسان تُطوى، وورقة من شجرته تذبل، حتّى ينتهي الأجل، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

من حقّ الإنسان أن يقف في رأس العام وقفتين:

وقفه حساب:

وقفه يحاسب فيها نفسه الحساب الختامي على عام مضى ليعرف: ماذا سجّل فيه من خير، وماذا اكتسب فيه من شرٍّ؟ ماذا له؟ وماذا عليه؟ ماذا ربح؟ وماذا خسر؟ وفي أيّ شيء ربح؟ وفي أيّ شيء خسر؟

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٢٣ أبريل ١٩٩٩م.

التاجر الواعي هو الذي يحاسب نفسه آخر كل عام، يجرد حساب الأرباح والخسائر، ليحاول أن يتفادى الخسائر، وأن يزداد من الأرباح، هذا في أرباح الدنيا وخسائرها، فما بالكم بأرباح الدنيا وخسائرها؟ من واجب كل مسلم أن يقف هذه الوقفة.

ومن واجب الأمة أن تقف هذه الوقفة على رأس كل عام لتعرف: ماذا قَدَّمت؟ وماذا أَخَّرت؟ ماذا كسبت فيه؟ وماذا خسرت؟ من حق الأمم الواعية النضيجه البصيرة أن تقف هذه الوقفة لتعرف ماذا صنعت؟ من واجب أمتنا أن تقف هذه الوقفة لتحاسب نفسها: ماذا صنعت في قضية فلسطين؟ وماذا صنعت في قضية الشيشان؟ وماذا صنعت في قضية كشمير؟ وماذا صنعت في قضية أفغانستان؟ وماذا صنعت في القضايا المعلقة القديمة؟ هل أدَّت الأمة واجبها أم لم تؤدِّ الواجب المطلوب منها؟

هذه المحاسبة دليل الحياة، ودليل الوعي، ودليل الإيمان، ودليل العقل، فالكَيْس - العاقل الفطن المتصرف التصرف الحسن - من دان نفسه - حاكمها وحاسبها - وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمان، فالأمر ليس بالأمان، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿البقرة: ١١١، ١١٢﴾، ليست الجنة بالعناوين، ولا بالأسماء، ولا بالدعوى، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿النساء: ١٢٣، ١٢٤﴾. هذه وقفة على رأس العام.

وقفة تأمل في الهجرة:

ووقفة أخرى للتأمل في هذا الحدث: الهجرة التي ألهم عمر بن الخطاب، وألهم المسلمون معه أن يجعلوها بداية لتاريخ هذه الأمة، لم يجعلوا بداية تاريخ هذه الأمة ميلاد الرسول ﷺ، ولا بعثته، ولا وفاته، ولا الانتصار في غزوة بدر، ولا فتح مكة، وإنما جعلوا هذا التاريخ يبدأ من هجرة النبي ﷺ، ولم تكن الهجرة في شهر مُحَرَّم، وإنما كانت في شهر ربيع الأول، ولكن عمر والصحابه قالوا: نبدأ العام من أوله، فاتخذوا هذا الحدث الجليل بداية لتاريخ هذه الأمة، فهل هو جدير بهذا؟ نعم هو جدير بهذا.

لقد هاجر عددٌ كبيرٌ من رسل الله، ولكن لم تكن هجرتهم مثل هجرة مُحَمَّد ﷺ، هاجر إبراهيم ﷺ، ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩]، فخرج من بلد إلى بلد إلى أن استقرَّ به المقام في فلسطين، وفي المدينة التي دفن فيها وسُمِّيت باسمه مدينة الخليل إبراهيم، وهاجر موسى ﷺ، لكن كانت هجرته قبل البعثة، حينما خرج من مصر بعد أن قتل ذلك القبطي خطأ، واستغفر الله، وقال له من قال: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْأَمَلَاءُ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فخرجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠، ٢١]. وذهب إلى مَدْيَنَ، وتزوَّج فيها، وعاش فيها عشر سنوات مع ذلك الشيخ الكبير بعد أن تزوَّج ابنته، ولم يكن له في هذه المدة السنوات العشر عمل يُذكر، كان شابًا صالحًا، زوجًا طيبًا، صهرًا كريمًا، أقام مع ذلك الشيخ عشر سنوات ولكن لم يقيم فيها بدور.

ولم تكن هجرة مُحَمَّد ﷺ كهجرة موسى حينما قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]. لم تكن هجرة مُحَمَّد ﷺ لمجرد الفرار من الفتنة، أو الهرب من الإيذاء والتضييق، لا، لقد كانت الهجرة سعيًا حثيثًا لإقامة مجتمع جديد، مجتمع إسلامي بمعنى الكلمة، كانت سعيًا لإقامة مجتمع، وبناء أمة، وتأسيس دولة جديدة تقوم على الربانيّة والإنسانيّة والأخلاقيّة والعالميّة، كان هذا هو هدف مُحَمَّد ﷺ من هذه الهجرة، وفعلاً استطاع أن يؤسس هذه الدولة، وأن يقيم هذا المجتمع، وأن ينشئ هذه الأمة الجديدة، ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولكن إذا كان النبي ﷺ قد استطاع أن يقيم في المدينة هذا المجتمع، وتلك الدولة، فإنّ الفضل يرجع في ذلك إلى مرحلة التأسيس في مكّة، إلى العهد المكي، ليس الأمر كما قال أحد الكتاب الكويتيين القصير النظر: إنّ مُحَمَّدًا فشل في العهد المكي، ولم يستطع أن يحقق ما هدف إليه. كبرت كلمة تخرج من فيه، ما قال إلّا كذبًا، لم يفشل مُحَمَّد ﷺ، بل كان هذا العهد المكي، هذه السنوات الثلاثة عشر، استطاع فيها أن يقيم الأساس، لم يرفع البناء، وإنّما وضع الأساس، يمكن أن يكون الأساس خمسة أمتار، ولكن يمكن أن تقيم عليه عمارة من خمسين طابقًا، وكما قال الشاعر:

خَفِيَ الْأَسَاسُ عَنِ الْعْيُونِ تَوَاضَعًا مِنْ بَعْدِ مَا رُفِعَ الْبِنَاءُ مُشِيدًا^(١)

كانت مرحلة مكّة مرحلة التأسيس، مرحلة دار الأرقم بن أبي الأرقم التي يُلَقَّن فيها الرسول ﷺ مبادئه وقيمه وتعاليمه لخلاصة أصحابه

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١/١١١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

لتكوين الجيل الأوّل للإسلام، الجيل الذي سيحمل الرسالة من بعد، ويبلغ الدعوة إلى العالم، هذا هو الجيل المؤسّس الذي نشأ في دار الأرقم، في العهد المكي نزل من القرآن الكريم نحو ثمانين سورة، يُلقّنها الرسول ﷺ لأصحابه، ويأخذوها عنه، ويعيشون فيها وبها ولها، عاشوا قرآنيين مُحمّديّين.

هذا العهد هو الذي قال الله فيه لرسوله: ﴿يَأَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿نِصْفَهُ ﴿أَوَاقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿إِنَّا سُنُلِقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿[المزمل: ١-٥].
يُهيّئ الله ويُعدّه لهذا العبء الثقيل الذي ينتظره فعليه أن يُهيّئ نفسه في مدرسة الليل ومدرسة القرآن، ﴿إِنَّا سُنُلِقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿، فتهيّأ لهذا القول الثقيل وهذا العبء الكبير بترتيل القرآن وبقيام الليل.

كان العهد المكيّ هو عهد بناء هذا الجيل، وتبليغ الدعوة ما وجد الرسول ﷺ إلى ذلك سبيلاً، بلّغها إلى أهله، إلى عشيرته الأقربين، إلى قريش ومن حول قريش، بلّغها إلى القادمين إلى موسم الحج كلّ عام يعرض نفسه عليهم، بلّغها إلى الطائف ووصل إلى أهلها في رحلة آسية حزينه معروفة، بلّغها إلى كلّ من استطاع أن يبلغها إليه، وسمح لأصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة مرتين فراراً بدينهم.

ظلّ ﷺ يعرض هذه الدعوة على قبائل العرب، لم ييأس أبداً، ولم يقنط من رحمة ربه أبداً، ولم يلق السلاح أبداً، حتّى هَيَّأ الله له هذه الفئة التي ادّخرها الله تعالى لنصرة دينه من أبناء يثرب من الأوس والخزرج، فحينما عرض عليهم الإسلام انشروحت صدورهم، وانفتحت قلوبهم، ودخلوا في هذا الدين، كانوا قليلاً ثمّ كثروا، وبايعهم النبي ﷺ في مكّة، وفي موسم الحج، وفي العقبة، بايعهم مرتين، بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية،



وفي البيعة الثانية عاهدهم وعاهدوه على أن يهاجر إليهم، وأن يمنعوه ممّا يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وذرايرهم، هكذا بايعوا النبي ﷺ.

كان هذا كله في العهد المكي، تأسس العهد المدني في مكّة، لولا هذا العهد المكي ما كانت الهجرة إلى المدينة، ولذلك القول: إِنَّ مُحَمَّدًا فُشِلَ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ. قول إنسان جسور، وجريء على الله ورسوله، وجهول لم يدرس السيرة النبويّة كما ينبغي.

الاحتفاء بالهجرة والذكريات النبويّة:

هذه الهجرة - أيّها الإخوة - من حقنا نحن المسلمين أن نعزّز بها ونفخر، سألني أحد الإخوة على موقع «إسلام أون لاين» على شبكة الإنترنت: لماذا لا يهتمّ المسلمون ولا يحتفون بمقدّم العام الهجري كما يهتمّ النصارى ويحتفون بمقدم العام الميلادي؟

وهو سؤال مخرج حقيقة، هناك من المسلمين من يعتبرون أيّ احتفاء أو أيّ اهتمام أو أيّ حديث بالذكريات الإسلاميّة، بالهجرة النبويّة، أو الإسراء والمعراج، أو مولد الرسول ﷺ، أو غزوة بدر الكبرى، أو فتح مكّة، بأيّ حدث من أحداث سيرة مُحَمَّد ﷺ، يعتبرون أيّ حديث في أيّ هذه الموضوعات بدعة في الدين، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وهذا ليس بصحيح على إطلاقه، إنّ الذي ننكره الاحتفالات التي تخالطها المنكرات، وتخالطها مخالفات شرعيّة وأشياء ما أنزل الله بها من سلطان، كما يحدث في بعض البلاد في احتفالات المولد النبوي والموالد التي يقيمونها للأولياء والصالحين، ولكن إذا انتهزنا هذه

الفرصة للتذكير بسيرة رسول الله ﷺ، وبشخصية هذا النبي العظيم، ورسالته العامة الخالدة التي جعلها الله رحمة للعالمين فأى بدعة في هذا، وأي ضلالة؟

إننا حينما نتحدث عن هذه الأحداث نذكر الناس بنعمة عظيمة، والتذكير بالنعم مشروع ومحمود ومطلوب، كما أمرنا الله تعالى بذلك في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب: ٩، ١٠].

يُذَكِّرُهُمْ بغزوة الخندق أو غزوة الأحزاب حينما غزت قريش وأحابيشهما النبي ﷺ والمسلمين في عقر دارهم، وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، وأرادوا إبادة خضراء المسلمين واستئصال شأفتهم، فأنقذهم الله من هذه الورطة، وأرسل عليهم ريحًا وجنودًا من الملائكة لم يرها الناس، يُذَكِّرُهُم الله بهذه النعم، ﴿اذْكُرُوا﴾، لا تنسوا هذه الأمور، وهذا يعني أنه يجب علينا أن نذكر هذه النعم ولا ننساها.

وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]. يُذَكِّرُهُم بما كان يهود بني قينقاع قد عزموا عليه أن يغتالوا رسول الله ﷺ، ومكروا مكروهم، وكادوا كيدهم، وكان مكر الله أقوى منهم وأسرع، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾، فذكر النعمة مطلوب إذن.

ونحن نذكر المسلمين بهذه الأحداث، وما فيها من عبر، وما يُستخلص منها من دروس، أيُّعاب هذا؟ أيكون هذا بدعة وضلالة؟

الأسوة المَحْمَدِيَّة:

ثم من ناحية أخرى: إِنَّ الأحداث الكبيرة في حياة رسول الله ﷺ، مثل حادث الهجرة، أو غزوة بدر، أو فتح مكّة، أو نحو ذلك إِنَّمَا تُمثّل تجسيداً للأسوة المَحْمَدِيَّة، ونحن مأمورون أن نأْتسّي برسول الله ﷺ، وأن نَتَّخِذه مثلاً بشريّاً أعلى لنا، فقد وضع الله فيه الكمالات التي تفرقت في الرسل، واجتمعت في شخصه، ذكر الله تعالى عدداً من الرسل ثُمَّ قال له: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَرَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فاقتدى بهدي الأنبياء وهُداهم جميعاً.

ولذلك قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١). تَمِّمَ الله فيه المكارم التي توزعت عند الآخرين فمن حقنا أن نتمثّل هذه الأسوة، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

هو أسوة في كلّ شيء، أسوة في معاملته للحق تبارك وتعالى، وفي معاملة الحق له، وأسوة في معاملته للخلق، سواء كانوا أنصاراً أم خصوماً، موالين أم معادين، وكذلك في معاملة الخلق له، هو أسوة في ذلك كله، وسيرته حافلة وجامعة يستطيع كل إنسان أن يتخذ منها موضعاً للقدوة، فليست كسيرة بعض النبيّين يُمكن أن تقتدي به في موضع ولا تقتدي به في آخر.

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

تستطيع أن تقتدي بالمسيح ﷺ في زهده وبعده عن الدنيا وإعراضه عن زخارف الحياة، ولكنك لا تستطيع أن تقتدي به زوجاً فلم يتزوج، ولا أباً، ولا جدّاً، ولا تستطيع أن تقتدي به الحرب والسلم لأنّه يُحارب ولم يُسلم، ولا تستطيع أن تقتدي به في حالة الغنى لأنّه لم يملك مالاً، ولا تستطيع أن تقتدي به في حالة الحكم لأنّه لم يحكم.

أمّا مُحَمَّدٌ ﷺ فتستطيع أن تقتدي به في كل هذه الأمور، العزب يستطيع أن يقتدي به في حالة العزوبة لأنّه لم يتزوج إلا في الخامسة والعشرين، وقضى حوالي عشر سنوات منذ البلوغ عزباً، والمتزوج بامرأة واحدة يستطيع أن يقتدي به لأنّه عاش مع زوجة واحدة تكبره بخمسة عشر عاماً معظم عمره من الخامسة والعشرين حتّى الخمسين، والمتزوج بامرأتين أو أكثر يستطيع أن يقتدي به لأنّه في آخر حياته اقتضت ظروف الدعوة أن يتزوج، وتزوج الكبيرة، وتزوج الصغيرة، وتزوج العربيّة، وتزوج الإسرائيليّة، وتزوج البكر، وتزوج الثيب، وتزوج صاحبة الأولاد، وغير صاحبة الأولاد.

يستطيع الوالد أن يقتدي به في معاملة أولاده البنين والبنات في حالة الحياة وفي حالة الممات، لأنّ معظم أولاده ودّعهم في حياته، مات أولاده بنين وبنات في حياته ما عدا أصغر بناته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، فكلّ إنسان يجد في حياته مجالاً للقدوة.

هكذا جعل الله النبي ﷺ مجالاً للأسوة، فلماذا نحرم أنفسنا من الحديث عن هذه الأسوة المحمديّة؟ والحديث عن الأسوة في وقتها هو أنسب وأوقع، المربون الحقيقيون يقولون: انتهز الفرصة لتربّي المربّي أو التلميذ أو التابع، عندما تأتي الفرصة تربط المناسبة بالمقصود التربوي والهدف التربوي.

لا مانع إذن أن نتحدث في هذه المناسبات عن شخصية رسول الله ﷺ، وعن سيرة رسول الله ﷺ، وعن رسالة رسول الله ﷺ الذي قال عن نفسه: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ»^(١). أخذ ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لقد كان النبي ﷺ هو خير الناس في كل أحواله، هو خير المهاجرين، و خير الدعاة، و خير القواد في الحرب، و خير الأئمة في الصلاة، و خير القضاة إذا حكم، و خير المفتين إذا أفتى، و خير الأزواج إذا تزوج، و خير الآباء إذا أنجب، و خير الأجداد إذا أحفد، و خير الناس في كل شيء، الله تعالى جعله المثل الأعلى ليرى الناس الكمال البشري مجسداً، والإسلام الحيّ ماثلاً أمام الأعين، الناس ليسوا فلاسفة يعرفون الأمور بالتجريد والوصف النظري، الناس في حاجة إلى مثل عملي، إلى مثال مجسد يرونه أمامهم واضحاً للأعين، مسموعاً للأذان، مؤثراً في القلوب، وكان هذا المثل هو مُحَمَّد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ.

فيا أيُّها الإخوة المسلمون حاولوا أن تدرسوا سيرة رسول الله ﷺ من ينابيعها الصافية، من القرآن الكريم، ومن كتب الحديث، ومن كتب السيرة، ومن كتب التاريخ العام، ومن غيرها من الكتب حتّى تعيشوا مع هذا الرسول الكريم، وتتأسوا به، ويكون لكم نعم المعلم، ونعم الأسوة. أسأل الله تبارك وتعالى أن يفقهنا في ديننا، وأن ينير لنا طريقنا، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ:

الغدر ونقض العهود من طبيعة اليهود:

فعندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كان فيها ثلاث قبائل من اليهود، حينما شُرِدَّ اليهود في الأرض، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨]. جزاء ما أفسدوا، سلَّط الله عليهم أعداءهم، وأدَّبهم من أدَّبهم، ومن هؤلاء الرومان الذين شَتَّتوهم في أنحاء الأرض، وكان منهم قبائل ذهبت إلى بلاد العرب واستوطنت ضواحي يثرب، وهي قبائل بني قينقاع، وبني النضير، وبني قُرَيْظَةَ.

وحينما هاجر النبي ﷺ وجدَّهم حول المدينة، فعقد معهم اتفاقية مشهورة، كُتبت هذه الاتفاقية وَحَدَّدَت العلاقات، ونظَّمت الحقوق والواجبات بين أهل هذه المدينة التي تُعتبر أساسًا للدولة الجديدة، كانت المدينة تأسيسًا لجماعة جديدة، لم يقل القرآن: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. إِلَّا فِي الْعَهْدِ الْمَدْنِيِّ، لَأَنَّ هَذَا الْخُطَابَ لِلْجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنَةِ، قَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الْخُطَابُ ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾، ﴿يَبْنَىٰ عَادَمَ﴾، يَا كَذَا، أَمَّا فِي الْمَدِينَةِ فَكَانَ الْخُطَابُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. لَأَنَّهُ قَدْ تَأَسَّسَتْ جَمَاعَةٌ جَدِيدَةٌ عَلَىٰ أَسَاسِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَكِتَابِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

أقام الرسول هذه المعاهدة لضبط الأمور وتحديدها، ولذلك يعتبر كثير من الباحثين والدارسين في السيرة النبوية هذه المعاهدة بمثابة دستور مكتوب ينظم العلاقة بين المسلمين والقبائل بعضهم وبعض، وبينهم وبين اليهود في حالة السلم وحالة الحرب.

ومما يُذكر أنّ الرسول ﷺ وجدّهم يصومون يوم عاشوراء العاشر من شهر المحرم فسألهم: «لماذا تصومون هذا اليوم؟». فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، فنحن نصومه تعظيمًا له. فقال ﷺ: «نحن أولى بموسى منكم». فصامه وأمر بصيامه^(١).

ولكنّه في أواخر حياته كان يحب أن يتميّز عن أهل الكتاب، ويأمر دائماً: بمخالفة اليهود والنصارى^(٢). حتّى تتميّز الشخصية المسلمة من غيرها في عباداتها ومعاملاتها وأخلاقياتها، ولا تذوب في غيرها من الأمم، فلذلك قال في آخر حياته: «لئن عشت إلى قابل لأصومنّ التاسع»^(٣). أي مع العاشر، يصوم يومين حتّى يخالف اليهود في أفراد العاشر، ولكن قدّر له ﷺ أن يلحق بالرفيق الأعلى ويلقى ربه، فلم يصم اليوم التاسع، ولكنّه عزم على صيامه فأصبح سنة، ومن أجل هذا نوصي المسلمين بصيام تاسوعاء وعاشوراء أسوة برسول الله ﷺ.

المهم أنّ هؤلاء اليهود سرعان ما نكثوا العهد وتعدوا الحدود، وغلبت عليهم طبيعة الغدر التي تعودوا عليها، حتّى مع رسل الله وأنبيائه، ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا بَنَدَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]، ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِّثْقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

سرعان ما نقضت هذه القبائل اليهوديّة واحدة بعد الأخرى عهدهم مع رسول الله، بدأ بنو قينقاع، ثمّ بنو النضير الذين نزلت فيهم أوائل

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٤٣)، ومسلم في الصيام (١١٣٠)، عن ابن عباس.

(٢) ثبت في أحاديث منها، حديث: «إنّ اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم». متفق عليه:

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٢)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٣)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الصيام (١١٣٤)، وأحمد (٢١٠٦)، عن ابن عباس.

سورة الحشر، ثم بنو قُرَيْظَةَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ الْمُغِيرِينَ عَلَى الْمَدِينَةِ ضِدَّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ، كَانَ الْمَفْرُوضُ أَنْ يَكُونُوا مَعَ الرَّسُولِ ضِدَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَهَاجِمُونَ الْمَدِينَةَ مِنَ الْخَارِجِ كَمَا تَقْضِي الْإِتْفَاقِيَّةُ، وَلَكِنَّهُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ وَقَالُوا لِقُرَيْشٍ: نَحْنُ مَعَكُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ. وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْقُرْآنُ: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]. مِّنَ الدَّخْلِ وَمِنَ الْخَارِجِ، وَلِذَلِكَ كَانَ عِقَابُهُمْ أَلِيمًا مِّنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ كَانَتْ غَزْوَةُ خَيْبَرَ.

هذه هي طبيعة اليهود: النقض للعهد، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠]، ولا يراعون لمسلم عهدًا ولا حرمة، ولا يتوقع منهم أبدًا أن يفوا بعهد، وانظروا ماذا يفعلون الآن؟ اتفاق مدريد، ثم اتفاق أسلو، ثم واي ريفر، ثم شرم الشيخ، إلى آخره، وكلها حبر على ورق في نظر هؤلاء، لا يريدون أن تقوم للفلسطينيين دولة حرة مستقلة يسودون فيها على أرضهم، إنما يريدون أن تكون فلسطين دويلة أو سلطة تحت رحمتهم، لا يملكون أرضها ولا سماءها، لا يملكون مياهها، ولا يملكون أجواءها، ولا يملكون ما حولها، الممرات في أيديهم، هذا ما تريده الدولة اليهودية الصهيونية الإسرائيلية، والعجب منا أننا نصدق أن هؤلاء سيعطوننا شيئًا، لن يعطونا إلا السراب، ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

اللهم هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا، اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقَلٍّ مِنْ ذَلِكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ هَذَا الْعَامَ عَامَ بَرَكَةٍ وَخَيْرٍ عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ، واجعله نذير وبالٍ وحسرة على أعداء الإسلام، اللهم اجعل يوم المسلمين فيه خيرًا من أمسهم، واجعل غدهم خيرًا من يومهم، وأحسن عاقبتهم في الأمور كلها، وأجرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة؛ إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

العهد المكي في التاريخ الدعوي^(١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

في الخطبة الماضية تحدثنا عن الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، وعن أهم الدروس المستفادة من هذه الهجرة الكريمة، ولا شك أن الهجرة كانت حدًا فاصلاً بين عهدين متميزين في حياة النبي ﷺ وسيرته: عهد تكوين الفرد المؤمن، الصابر المصابر المجاهد في مكة، وعهد تكوين المجتمع المؤمن المتآخي، الذي أعد نفسه للجهاد في سبيل الدعوة الجديدة في المدينة، كانت الهجرة حدًا فاصلاً بين عهدين.

العهد المكي هو المرحلة التأسيسية للعهد المدني:

واليوم نتحدث عن هذا العهد الأول، عهد مكة قبل الهجرة، وخصوصاً أن بعض الكتاب العلمانيين قال في بعض صحف الكويت: إِنَّ النبي ﷺ قد ظل ثلاثة عشر عاماً في مكة باءت بالفشل، وانتهت بالإخفاق. هكذا حكم على هذا العهد المكي، وهذا من جرأته على الله وعلى رسوله، وعلى حقائق العلم والتاريخ.

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٣٠ أبريل ١٩٩٩م.

إِنَّ الرُّسُولَ ﷺ لَمْ يَخْفُقْ وَلَمْ يَبُوءْ بِالْفُشْلِ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، بَلِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ كَانَ هُوَ التَّاسِيسُ لِلْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، ظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي مَكَّةَ يُؤَسِّسُ وَيُنْشِئُ الْجِيلَ الْأَوَّلَ، الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَعْبَاءُ الدَّعْوَةِ، وَأَعْبَاءُ الدَّوْلَةِ.

الدعوة تسير وفق السنن الإلهية:

كَانَ اللَّهُ ﷻ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ بِرِيْشَةٍ مِنْ جَنَاحِ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَقْضِي بِهَا عَلَى قَرِيشٍ وَعَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، يَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ، أَوْ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ تَصِيبُهُمْ صَيْحَةٌ كَصَيْحَةِ ثَمُودَ؛ فَيَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ الْأَوَّلُونَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَكِنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرَادَ لِرَسُولِهِ أَنْ يَمْضِيَ فِي دَعْوَتِهِ وَفُقِ السَّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ، لَا وَفُقِ الْخَوَارِقُ الرَّبَّانِيَّةُ، تِلْكَ الْخَوَارِقُ الَّتِي تَأْتِي عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَلَكِنْ اللَّهُ أَرَادَ لِرَسُولِهِ أَنْ يَصَارِعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَيَصَارِعُوهُ، وَأَنْ يَنَازِلَهُمْ وَيَنَازِلُوهُ، وَأَنْ يَتَعَرَّضَ لَاضْطِهَادِهِمْ وَلِإِذْنَانِهِمْ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، هَكَذَا أَرَادَ اللَّهُ.

أَرَادَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنْ يُولَدَ يَتِيمًا حَتَّى لَا يَتَعَلَّقَ بِأَحَدٍ، وَلَا يُقَالُ: إِنَّ أَبَاهُ هُوَ الَّذِي نَصَرَهُ، وَلَوْ لَا (عَزْوَةً) أَبِيهِ، وَشَكِيمَةَ أَبِيهِ، وَمَنْزِلَةَ أَبِيهِ لَمَا ظَهَرَ وَانْتَصَرَ. لَا، فَقَدْ وُلِدَ يَتِيمًا، حَتَّى أُمُّهُ مَاتَتْ بَعْدَ سِتِّ سَنَوَاتٍ مِنْ وَلَادَتِهِ، حَتَّى جَدُّهُ الَّذِي كَانَ ذَا شَأْنٍ فِي مَكَّةَ مَاتَ بَعْدَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ مِنْ مِيلَادِهِ، حَتَّى عُمُّهُ شَقِيقُ أَبِيهِ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ، الَّذِي حَنَا عَلَيْهِ وَأَدْخَلَهُ فِي أَسْرَتِهِ.. أَرَادَ اللَّهُ أَلَّا يَدْخُلَ فِي الْإِسْلَامِ، وَإِنْ كَانَ يَحْنُو عَلَيْهِ وَيُدَافِعُ عَنْهُ بِحُكْمِ الْعَصْبِيَّةِ، أَرَادَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ أَنْ يَمْضِيَ فِي دَعْوَتِهِ وَفُقِ قَوَانِينُهُ فِي هَذَا الْكُونِ.

تدرج الدعوة إلى الإسلام:

ومن هنا قام النبي ﷺ بتبليغ الرسالة، بلّغ الدعوة سرًّا وجهراً. في أوّل الأمر اعتمد على الدعوة الفرديّة، دعا أصدقاءه وأصحابه ومن يثق بهم، مثل أبي بكر، ودعا أبو بكر أصدقاءه، ودخل هؤلاء السابقون الأوّلون في الإسلام، وهم عدد قليل، ولكن الله بارك فيهم.

أنذر عشيرته الأقربين كما أمره الله وَحَّكَيْ، جمعهم في بيته، وأوّلهم لهم وليمة وصنع لهم طعاماً، فلمّا أكلوا وشربوا قام فيهم خطيباً وقال: «إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ - وَاللَّهُ لَوْ كَذَبَتِ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتَكُمْ، وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا غَرَرْتُكُمْ - وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةٌ وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةٌ، وَاللَّهُ لَتَمَوُّتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَتَحَاسِبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا أَوْ لِنَارٍ أَبَدًا»^(١).

بعد ذلك صدع بأمر الله كما أمره الله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. ووقف على جبل الصّفا، ونادى بطون قريش، وعرض عليهم دعوته، وحينما قال لهم: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُغِيرُ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟». أي: لو قلت لكم: هناك على مسافة قريبة عدو قد جمع جحافله وجيوشه وجاء يغير عليكم ويهاجمكم في عقر داركم، أكنتم مصدّقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً. قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»^(٢).

ولم يستطع أحد أن ينسب بنت شفة؛ إلّا عمّه أبا لهب الذي قال له

(١) ذكره ابن الأثير في الكامل (٦٥٩/١)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٧٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠٨)، عن ابن عباس.

في تحدٍّ واستفزاز: تَبَّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى يَدْفَعُ عَنْ رَسُولِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١ - ٥].

مواصلة النبي دعوته مع الصبر والاحتمال:

وظلَّ النبي ﷺ يبلغُ دعوته، والقوم يعرضون عنها، ويقابلون الدعوة بالإيذاء للنبي ﷺ ولأصحابه، والرسول وأصحابه يقابلون الإيذاء بالصبر والاحتمال، فالله تعالى أمره ﷺ من أوَّل يوم بالصبر.

وكان من أوائل ما نزل من القرآن سورة المدثر، وفيها يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٧]. اصبر لله على ما تلاقي من الأذى والصاب والعلقم، فالطريق طريق طويل مفروش بالأشواك، مضرج بالدماء، ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

ونزلت سورة المزمل بعد ذلك تقول: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ * قُمْ أَلَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا * نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٥]. يربي الله تعالى رسوله ويُعده ويهيئه في مدرسة الليل ومدرسة القرآن، ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾، لماذا؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، أمامك حمل ثقيل، أمامك رسالة ضخمة تريد أن تبلغها إلى العرب ثم إلى العالم، فأنت رحمة للعالمين، نذير للعالمين.

وفي هذه السورة يقول: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]. قد كان النبي ﷺ يؤذيه ما يقوله المشركون عنه،

قالوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ [ص: ٤]. وقالوا: ﴿أَضَعْتُ أَحْلَمَ بَلٍ أَفْتَرَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]. وقالوا: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]. وقالوا: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِي تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]. وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. إلى آخر ما قالوا، فكان هذا يؤذي النبي ﷺ، الله تعالى يقول له: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: ٦٥]. ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]. تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ، ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْرِجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

الدعوة تشق طريقها بين الإيذاء والابتلاء:

ظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ يَبْلُغُ الدَّعْوَةَ، لَا يَيْئَسُ وَلَا يَقْنَطُ، وَلَا يَكِلُ وَلَا يَمْلُ، وَهُمْ يَقَابِلُونَ هَذَا بِالْإِيذَاءِ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ، خُصُوصًا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْهُمْ، مِنْ لَا جَاهَ لَهُ وَلَا قَبِيلَةَ وَلَا سِنْدَ، كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ تَعْذِيًّا وَإِيذَاءً مِثْلَ بِلَالِ الْحَبَشِيِّ، وَعِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ وَأَبِيهِ يَاسِرٍ وَأُمِّهِ سَمِيَّةَ، وَقَدْ مَرَّ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُمْ يُعَذِّبُونَ فَقَالَ: «صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ»^(١). وَقَدْ مَاتَ أُمُّ عِمَارٍ وَزَوْجُهَا يَاسِرٌ تَحْتَ الْعَذَابِ.

وكَانَتْ لِحَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ مَوْلَاةٌ تَشْتَدُّ فِي إِيْذَائِهِ وَتَعْذِيْبِهِ، وَتَكْوِيهِ بِالنَّارِ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَسْنُدُ ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَدْعُو لَنَا، أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ مِنْ شِدَّةٍ مَا لَاقَى، وَمِنْ شِدَّةٍ مَا قَاسَى وَعَانَى جَاءَ يَسْتَنْصِرُ رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ ادْعُ اللَّهَ عَلَى

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٥٠٨)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣٨٣/٣)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٥٩٢): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، غير إبراهيم بن عبد العزيز المقوم، وهو ثقة. عن جابر بن عبد الله.

هؤلاء القوم، فجلس النبي ﷺ محمراً وجهه وقال: «يا خباب، إن من كان قبلكم كان يُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب، ويُنشر أحدهم بالمنشار فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، والذي نفسي بيده ليُظهرنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١). طمأنه على المستقبل، بشّره بأن الغلبة والنصر لهذا الدين في النهاية، ولكن كل شيء بأجل مسمى، «ولكنكم تستعجلون»، سيحدث الأمن، ويسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، فهكذا كانت الفترة المكيّة.

إيذاء المشركين للنبي ﷺ:

كان النبي ﷺ يصلي عند الكعبة، وأبو جهل بن هشام والملا من قريش ينظرون إليه، فقال أبو جهل: لقد نُحرت بالأمس جزور لبني فلان، من منكم يذهب إلا سلاها - أي أحشاءها - ويلقيها بين كتفي مُحَمَّد إذا سجد؟ فانبعث أشقاهم فجاء بسلا الجزور؛ فوضعه بين كتفي النبي ﷺ وهو ساجد. يقول ابن مسعود: كنت أنظر، ولو كانت لي منعة لذهبت أحجزها عنه، أو أبعدّها عنه، ولكن أحداً من النَّاس أبلغ فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهي جويرية - جارية صغيرة - فجاءت وأزاحت هذا الأذى عن أبيها، ثم شتمت القوم، ولم يستطع منهم أحد أن يردّ عليها، وبكت لما حدث لأبيها. فقال لها النبي ﷺ: «يا فاطمة، لا تبكي فإن الله مانع أباك»^(٢). سيحّميه الله وسيمنعه.

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢)، عن خباب بن الأرت.

(٢) سيرة ابن هشام (٤١٦/١) تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي،

مصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

يقول ابن مسعود: وحينما فرغ النبي ﷺ من صلاته توجه إلى السماء ودعا، قال: «اللهم عليك بالمالأ من قريش». ففرع القوم لدعوته ﷺ، ثم قال: «اللهم عليك بعمر بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأُمَيَّة بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمار بن الوليد». عدَّ سبعة، من صناديد قريش وعتاتهم ورؤوس الكفر فيهم، يقول ابن مسعود: والله لقد رأيت الذين سمَّى رسول الله صرعى يوم بدر^(١). استجاب الله الدعوة، ولكن بعد عدَّة سنوات، إنَّ الله لا يعجل بعجلة أحدكم، الله تعالى يستجيب الدعوات، ولكن كل شيء عنده بأجل مسمَّى.

هجرة المسلمين إلى الحبشة:

اضطر المسلمون أن يهاجروا إلى الحبشة - وكان هذا بأمر رسول الله ﷺ - فرارًا بدينهم من هذه الأرض، اختار لهم أرض الحبشة، وكانت هي الأرض المناسبة جغرافيًا لأنَّ الحبشة قريبة من الجزيرة العربيَّة، ولا يجوز أن يذهبوا إلى أرض بعيدة كالصين أو كذا فتقطع أخبارهم، وربَّما هلكوا، وكانت هي المناسبة دينيًا لأنَّ أهلها نصارى أهل كتاب، فهم أقرب مودَّة إلى المسلمين، وهي المناسبة سياسيًا، فقد كان فيها ملك لا يُظلم أحد عنده، وهذا يدلُّنا أنَّ النبي ﷺ لم يكن غافلًا عمَّا حوله ومن حوله.

وفعلًا كان هذا الرجل عند حُسن الظنِّ؛ فاستقبل المسلمين استقبالا حسنًا، وسمع من رئيسهم جعفر بن أبي طالب ابن عمِّ رسول الله ﷺ حينما شرح له دعوة رسول الله ﷺ، وبيَّن آفاقها الدينيَّة والاجتماعيَّة والأخلاقيَّة.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٥٢٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٤)، عن ابن مسعود.

وأرسلت قريش في إثر هؤلاء عمرو بن العاص، وآخر معه إلى ملك الحبشة بالتحف والهدايا، يريدون أن يُغروه حتّى يطرد المسلمين، ولكن الرجل كان عند حسن ظن رسول الله ﷺ، فأبى أن يُسلم هؤلاء المهاجرين. وعاد هؤلاء المهاجرون بعد الهجرة الأولى من الحبشة؛ حينما شاعت شائعة أنّ قريشاً دخلت في الإسلام، فعادوا وإذا قريش أشد وطأة على الإسلام من قبل، واضطر من استطاع منهم أن يهاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة، وبقوا بها إلى السنة السابعة بعد الهجرة.

المقاطعة الاقتصادية الجائرة:

في هذه الأثناء قوطع النبي ﷺ والمسلمون مقاطعة اقتصادية اجتماعية، بل قُوطع بنو هاشم وبنو المطلب: مسلمهم، وكافرهم، مسلمهم من باب الإسلام، وكافرهم من باب العصبية، أنّهم كانوا يدافعون عن رسول الله بحكم العصبية: أبو طالب ومن معه. قاطعتهم قريش لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، ولا يُزوّجونهم ولا يتزوّجون منهم، وحُصروا في شعب بني طالب، وظلُّوا مُحاصرين ثلاث سنوات، أكلوا فيها أوراق الشجر، ودميت أشداقهم، وحدث لهم ما حدث؛ حتّى هبّ الله لهم من رجالات قريش من طالب بشقّ الصحيفة الظالمة الجائرة القاطعة التي تعاهد فيها أهل قريش على مقاطعة النبي ﷺ وأصحابه.

دعوة قبائل العرب والذهاب إلى ثقيف:

في هذه المدة لم يكن النبي ﷺ يدع فرصة تمرّ إلاّ ويبلغ فيها الدعوة، وكان ينتهز فرصة مواسم الحجّ؛ فمكة هي البلد الحرام، وموطن البيت الحرام، وقبائل العرب تأتي إليها من كل فجّ عميق، فكان النبي ﷺ ينتهز الفرصة ليعرض الدعوة على هذه القبائل.

ولم يكتف بمكة؛ بل ذهب إلى قبيلة ثقيف التي تسكن الطائف في وقت حرّ شديد، والطريق وعراً، وكله جبال، ذهب ماشياً هو وزيد بن حارثة ليعرض دعوته، واستقبل أسوأ استقبال، ورجع من الطائف بعد أن أدّى رسالته وبلغ دعوته، ولم يستجب له أحد منهم، وفي الطريق جاء جبريل ومعه ملك الجبال يعرض عليه أن يخسف بالقوم، ولكنه أبيّ ﷺ، وقال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»^(١). وكان الإسراء والمعراج بعد ذلك، وكان فرض الصلوات.

دار الأرقم بن أبي الأرقم:

هكذا كان العهد المكي عهد تبليغ للدعوة على كل المستويات، وعهد تربية للجيل الأوّل في دار الأرقم بن أبي الأرقم بجوار الصفا، معهد التربية الإسلامية الأوّل الذي تخرّج فيه الفوج الأوّل للإسلام، الصحابة الأوّلون: المهاجرون، هؤلاء تخرّجوا في مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم، هذه الدار التي كان يلتقي فيها المسلمون سرّاً أو أشبه بالسر، يقرؤون فيها القرآن، ويتعلمون فيها تتلمذاً مباشراً على محمد ﷺ، يلقنهم الصبر والمصابرة، والتوكّل على الله، والإيمان بالغد، والاستبشار بالمستقبل، هكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ.

أخرجت هذه المدرسة ثمرات يانعة، من هؤلاء الفتية الذين آمنوا برّبهم وزادهم هدى، من الصحابة الأوّلين الذين حملوا أعباء الرسالة، ونشروها في العالم، ثمّ انضمّ إلى هذا الفوج الأوّل والجيل الأوّل أفواج أخرى من أبناء يثرب: من أبناء الأوس والخزرج، الذين وفدوا على مكة في أحد المواسم، وشرح الله صدورهم للإسلام.

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، عن عائشة.

إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا هَيَّأَ لَهُ الْأَسْبَابَ وَأَزَالَ الْمَوَانِعَ، ظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ سنوات عدّة يعرض دعوته على القبائل، فلا يجد من يستجيب له، ويقول لهم: «قولوا: لا إله إلا الله تملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم»^(١). ويأتي أبو لهب بعدها يقول: يا معشر العرب، لا تصدّقوا هذا فإنّه مجنون يهذي. فيرد عليه بعضهم: قد عرفنا ذلك حينما ذكر كسرى. مثلما يأتي أحدهم ويقول لكم: أنتم يا أهل قطر سترثون البيت الأبيض وتملكون الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا. فيقول قائل: هذا جنون!

فالمسلمون كانوا بضعة أفراد من النَّاس، أربعين أو نحو ذلك، يقول لهم: سترثون ملك كسرى. فكان النبي ﷺ يزرع، وأبو لهب يقلع ما يزرعه بهذه الكلمات.

الإسلام لا يقبل من يعتنقه لغرض دنيوي:

ولكن النبي ﷺ ظَلَّ يعرض دعوته على بعض القبائل فيقولون: نحن مستعدون أن نتبعك على أن يكون لنا الأمر من بعدك. إذا مت يكون الملك لنا، والرسول ﷺ لا يريد من يشترط، يريد من يدخل في الإسلام للإسلام، لا لدنيا ولا لملك ولا لجاه، هذا الأذى والتعذيب الذي نزل بالمسلمين أراد الله أن يمحّصهم به، أن يطهّر قلوبهم، ألا يدخلوا هذا الدين لغرض من الأغراض، ولا لغرض من الأعراض، بل كانوا يدخلون هذا الدين في هذا الوقت، وهم يعلمون أن مصالحهم تتعرّض للخطر، وأنَّ النَّاسَ سترميهم عن قوس واحدة، وسيصابون في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وأولادهم.

(١) سيرة ابن هشام (١/٤١٧).

ولذلك قال الله تعالى عن المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]. سمّاهم جميعًا فقراء مع أنّ منهم من يملك الأموال والديار والعقارات والتجارات، ولكنّهم خلّفوا ذلك كله وراءهم، وأداروا ظهورهم كلهم لهذه الأشياء، ولم يبالوا بما يصيبهم في سبيل الله، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

صهيب الرومي ونموذج التضحية بالمال:

كان صهيب الرومي من أهل التجارة في مكّة، وكانت له تجارة رابحة، وله مال وثروة، فلمّا أراد أن يخرج للهجرة، جاء فرسان قريش وحاصروه، وقالوا له: قد جئنا فقيرًا، ثمّ عملت بيننا تاجرًا وصارت لك أموال وثروة، وتريد أن تخرج بها، والله لا نتركك أبدًا حتّى تدلنا: أين ثروتك؟ أين دنانيرك ودراهمك؟ قال: إن كنتم تريدون منعي من الهجرة فقد علمتم أنّي والله من أركامكم رجلاً.. سأرميكم بكل سهم في كنانتي ولا تمنعوني من الهجرة، وإن كنتم تريدون المال فدونكم المال، هو في مكان كذا.. اذهبوا إليه. وذهبوا إلى المال ووجدوه وأخذوه.

وذهب صهيب رضي الله عنه بعد أن اشترى نفسه بهذه الأموال، وخرج مهاجرًا لله، ونزل فيه قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. وحينما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «يا أبا يحيى ربح البيع، ربح البيع»^(١). هذه الصفقة التي أتممتها صفقة رابحة، أنّه ربح الجنّة، أنّه ربح الإسلام.

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٤٥٢/٣)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي. عن صهيب.

بيعة العقبة من ثمار البذل والمثابرة:

لم يكن النبي ﷺ صامتًا، ولم يكل ولم يمل، ولم يئس، ولم ينفذ يده من هؤلاء القوم ويجلس في بيته ويقول: لا فائدة فيهم. لا، وإنما ظلّ مثابرًا على دعوته حتّى هَيَّا الله له بعد ذلك أبناء الأوس والخزرج، دخل منهم الإسلام ستّة في أوّل الأمر، ثمّ سبعون، ثمّ كذا، وكانت بيعة العقبة الأوّلى، وبيعة العقبة الثانية التي عاهدوا فيها النبي ﷺ أن يهاجر إليهم، وأن يمنعوه ويحموه ممّا يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، وكانت بيعة وصفقة بين رسول الله ﷺ وهؤلاء الأنصار، قالوا: ما لنا بعد ذلك يا رسول الله؟ قال: «الجنة». قالوا: ربح البيع، لا نقيّل ولا نستقيّل^(١).

العهد المدني ثمرة الكفاح الطويل:

كان العهد المكي إذن عهد التأسيس، لولا العهد المكي ما كان العهد المدني، العهد المدني هو ثمرة لهذا العهد المكي، ثمرة لهذا الكفاح الطويل من رسول الله ﷺ وأصحابه، ويكفي أن في هذا العهد المكي نزلت نحو ثمانين سورة من سور القرآن الكريم هي السور المكيّة، تربّي هذا الجيل، تُنشئ هذه الفئة، تشدُّ أزر هؤلاء المؤمنين الذين وقفوا في وجه الباطل، وفي وجه الطغيان، يدعون إلى الله على بصيرة، ويتلون كتابه عن بيّنة، ويقولون للمبطلين: نحن وراءكم، ولن ندعكم، وسينصرنا الله تعالى عليكم.

كان المشركون إذا رأوا المسلمين في مكّة يقولون: انظروا هؤلاء ملوك الغد الذين سيرثون ملك كسرى وقيصر. ويتضاحكون ويتغامزون، ونزل في

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤٩٩/١٤)، عن محمد بن كعب القرظي. تحقيق محمود وأحمد

شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكّة المكرّمة.

ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿[المطففين: ٢٩ - ٣١].

الأرض لله يورثها من يشاء:

وصدّقت الأيام ما أخبر به رسول الله ﷺ، وأصبح هؤلاء المستضعفون في الأرض القليلون من الناس الذين كانوا يخافون أن يتخطّفهم البشر هنا وهناك: سادة الدُّنيا، وملوك العالم، وورثوا كسرى وقيصر، وأخذوا أموالهم فأنفقوها في سبيل الله، وأقاموا دولة العدل والإحسان، وشادوا حضارة العلم والإيمان، وكانوا نوراً في الأرض يهدي الناس إلى الله، ويحشدتهم في ساحة الإيمان، فلم يعد هناك مناة ولا اللات ولا العزى، ولا الحجارة، ولا البشر الذين يُعبدون من دون الله، بل كان المعبود هو الله وحده، وكانت رسائل رسول الله ﷺ إلى قيصر وملوك أهل الكتاب تُختم بهذه الآية: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

هذا هو العهد المكي، هذا هو عهد التأسيس للدعوة الإسلامية، وللحياة الإسلامية، وللأمة الإسلامية، نسأل الله تعالى أن يجعل لنا نصيباً من إيمان هذا الجيل الأوّل، الجيل القرآني، والجيل الربّاني، والجيل المحمّدي الفريد، الذي لم تكتحل عين الدُّنيا برؤية مثله، ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

واجبنا نحو كوسوفو:

لا زالت قضية إخواننا في كوسوفو مستمرة، ولا زال واجبنا نحو إخواننا قائماً، لا زال مطلوباً منّا أن نكون مع هؤلاء الإخوة قلباً وقالباً، فهم منا ونحن منهم، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله.

علينا واجب نحو هؤلاء الإخوة، كلُّ بما يستطيع، لو استطعنا أن نذهب لنقاتل مع المجاهدين لكان واجباً علينا، ولكن الأبواب مغلقة، والطرق مسدودة، إنّما علينا أن نؤيّد المجاهدين بقدر ما نستطيع، «مَنْ جَهَّزَ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا»^(١).

وعلينا أن ننقذ اللاجئين المشرّدين الهائمين على وجوههم في الأرض، لا يجدون فراشاً يفرشونه، ولا لحافاً يلتحفونه، هؤلاء المساكين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ولا ذنب لهم إلا أن يقولوا: ربنا الله، وديننا الإسلام. فالمتعصبون من الصرب لا يريدون أن ترتفع للإسلام راية، ولا أن يُسمَعَ أذان في أوروبا، يزعمون أنّ هؤلاء دخلاء ووافدون عليهم، وهم والله الدخلاء.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٩٥)، عن زيد بن خالد.

أرض كوسوفو هي أرض ألبانية سكَّانها الألبان، ولم يملكها الصربيون إلَّا قرنين من الزمان، وكان الألبان قبلهم، والألبان بعدهم قرونًا وقرونًا، ولم يدخل الألبان في الإسلام بعد الفتح العثماني، بالعكس دخل الإسلام إليهم قبل الفتح العثماني بعدة قرون، صار للإسلام في تلك البلاد ألف سنة وسبع سنوات، الإسلام عريق في هذه البلاد، ولكن هؤلاء عندهم أساطير يريدون أن يعيدوا الإمبراطورية الصربية القديمة، ويقولون: إنَّ كوسوفو لها قدسيَّة عندنا؛ مثل قدسيَّة القدس عند اليهود.

هؤلاء لا يُقاوَمون إلَّا بالقوَّة، ولينا نحن المسلمين نملك القوَّة، نحن نملك القوَّة، ولكنَّها ضائعة ببُعدنا عن الإسلام، ضائعة بتفرقنا، ضائعة بمخاوفنا وأطماعنا، الخائف ضعيف، والطامع ضعيف، وما دام عندنا حكام يخافون ويطمعون؛ فننظل ضعفاء حتَّى نتحرر من الخوف والطمع؛ إلَّا الخوف من الله تعالى، والطمع في جنَّته ومثوبته.

علينا - أيُّها الإخوة - أن نمدَّ أيدينا إلى إخواننا لننقذهم من حياة البؤس والتشرُّد التي يعانونها حتَّى يعودوا إن شاء الله إلى ديارهم، ونرجو أن يعودوا إلى ديارهم ولا يصيبهم ما أصاب إخواننا في فلسطين؛ حينما خرجوا سنة ١٩٤٨م. من ديارهم على أن يعودوا بعد أسابيع أو شهور؛ فمرَّت السنون ومرَّ نصف قرن أو يزيد، ولا زال بعضهم يحتفظ بمفاتيح بيته على أمل أن يعود إليه، وبعضهم مات وسلَّم المفاتيح لأولاده، نرجو ألا يصيب هؤلاء ما أصاب إخوانهم في فلسطين.

علينا أن نقف بجوار إخواننا ولا نبخل بنفس ولا نفيس، ولا بمال ولا بشيء، كلُّ بما يستطيع إن شاء الله، والقليل على القليل كثير، وقد

قام إخواننا في قطر، في جمعية قطر الخيرية، وجمعية الشيخ عيد بن مُحَمَّد الخيرية بدور جيد، ويجب أن نُسَدِّد خطاهم، ونشدَّ أزرهم، ونقوِّي أعضادهم في هذه القضية، الإخوة هنا من جمعية قطر الخيرية وبعض الإخوة من الضيوف الألبانيين يصلُّون معنا هنا ويجمعون التبرعات؛ فعلينا أن نبذل لهم، وما بذلناه فلن يضيع، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة. هناك ملكان يدعوان كل يوم، يقول أحدهما: «اللهمَّ أعطِ منفقًا خلفًا. ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ مُمسكًا تلفًا»^(١). والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، ﴿وَمَا نَقَدْتُمُوهُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

اللهمَّ أكرمنا ولا تهنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضَ عنا وأرضنا، اللهمَّ اجعل يوم هذه الأمة خيرًا من أمسها، واجعل غدها خيرًا من يومها، وأحسن عاقبتها في الأمور كلّها، وأجرها من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة.

اللهمَّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهمَّ انصرنا على اليهود الغادرين، وانصرنا على الصربيين الحاقدين، وانصرنا على الوثنيين المتعصبين، وانصرنا على جميع أعدائك أعداء الدين، اللهمَّ ردِّ عنا كيدهم، وفل حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تجعل لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.



في ذكرى الإسراء والمعراج

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

حياة حافلة وسيرة مشرقة:

إِنَّ سِيرَةَ النَّبِيِّ ﷺ صفحات مشرقة، وكتاب خالد، نقرأ كيف كانت حياته ﷺ؛ لِنَتَأَسَّى بِمَوَاقِفِهِ، وَنَأْخُذَ مِنْهَا الْعِظَةَ وَالْعِبْرَةَ، فَهِيَ حَيَاةٌ حَافِلَةٌ جَامِعَةٌ، شَامِلَةٌ لِكُلِّ مَا يَرِيدُ النَّاسُ أَنْ يَقْتَدُوا بِهِ، وَأَنْ يَقْتَبِسُوا مِنْهُ الْهُدَى وَالنُّورَ، مَا أَحْرَانَا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ نَذْكُرَ النَّبِيَّ ﷺ فِي هَذِهِ الْمُنَاسِبَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، بَلْ مَا أَحْرَانَا أَنْ نَعِيشَ مَعَهُ دَائِمًا!

وَكَيْفَ نَبْعُدُ عَنْهُ وَهُوَ الَّذِي هَدَانَا اللَّهُ بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَخْرَجَنَا بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَأَعَزَّنَا بِهِ بَعْدَ الذَّلَّةِ، وَكَثَّرْنَا بَعْدَ الْقِلَّةِ، وَجَعَلَنَا بِرِسَالَتِهِ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجَتْ لِلنَّاسِ!

مَا أَحْرَانَا أَنْ نَتَذَكَّرَ سِيرَةَ هَذَا النَّبِيِّ الْعَظِيمِ، وَقَدْ كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: إِنْ كُنَّا لِنُرَوِّي أَبْنَاءَنَا مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا نَعْلَمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ^(١).

(١) سبق تخريجه ص ١١.

وكانوا يعبرون عن السيرة بالمغازي؛ لأنَّ ضُلب السيرة في العهد المدني، والعهد المدني كله غزوات وجهاد، كانوا يروُّون أبناءهم سيرة رسول الله ﷺ كما يعلمونهم السورة من القرآن.

السيرة هي التطبيق العملي للقرآن:

فالسيرة هي التطبيق العملي للقرآن: كيف عاش هذا النبي الذي أنزل عليه القرآن، كيف كان قرآنًا حيًّا بين الناس؟ كما وصفته عائشة رضي الله عنها؛ وقد سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن^(١)، من أراد أن يعرف أخلاقه وصفاته ﷺ فليفتح المصحف، فليقرأ آيات القرآن، كل ما فيها من خصال الخير يجدها مجسدة في شخصيته ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

في هذه الأيام تطل علينا هذه الذكرى العزيزة، ذكرى الإسراء والمعراج. والإسراء رحلة أرضية ذكرها القرآن في سورة سميت بهذا العنوان «سورة الإسراء»، وبدأ الله هذه السورة بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِّنْ عَائِنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

الإسراء رحلة أرضية من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في الشام في فلسطين، هذه هي رحلة الإسراء!

أمَّا رحلة المعراج فهي رحلة عروج وارتقاء من الأرض إلى السماء، إلى السماوات السبع، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، هذه هي رحلة المعراج!

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٢٦٩)، عن عائشة.



رحلة تكريم ومواساة:

رحلتان في ليلة واحدة، أراد الله تعالى بهما أن يكرم خير خلقه وخاتم رسله محمداً ﷺ، بعد ما أصابه ما أصابه من الأذى والعذاب، بعد أن صُبت عليه سياط العذاب صبًّا، بعد أن فقد عزيزين عليه، أثيرين لديه:

زوجه خديجة بنت خويلد، اليد الحانية التي كانت تضعها على صدره فتذهب عنه الهم والحزن، وتستقبله فتشده أزره، هذا القلب الحنون، هذا الوجه الباسم، فقد النبي ﷺ في السنة العاشرة من البعثة، أوّل صوت ارتفع بتأييد رسول الله ﷺ وتثبيتته كان صوت خديجة زوجه، هي التي قالت له وقد جاء يرجف فؤاده: والله لا يُخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق^(١)، لا تخف ولا تحزن، خديجة التي وقفت معه في الشدائد، ولم تتخل عنه يوماً؛ ابتلي النبي ﷺ بفقدها، بعد عشر سنين من البعثة.

وفي هذه السنة فَقَدَ عَمَّهُ أبا طالب، الذي كان يزود عنه، ويقف عنه أمام عتاة قريش، وصناديد الكفر، وطواغيت الضلال، وقد شاء الله ألا يُسلم أبو طالب، وكان قوله مسموعاً فيهم؛ لأنه على دينهم، فكان يحوطه ويحميه ويدفع بكل ما يستطيع، ولم تستطع قريش أن تنال منه ﷺ إلا بعد وفاة أبي طالب، سمى النبي ﷺ هذا العام الذي فقد فيه زوجه وعمه «عام الحزن»؛ وذلك بعد أن خرج من محنة قاسية هو وأصحابه وأقاربه من بني هاشم وبني المطلب، مسلمهم وكافرهم،

(١) حديث بدء الوحي متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، عن عائشة.

أصحابه كانوا معه إيمانًا، وأقاربه كانوا معه عصبيةً؛ في ذلك الحصار اللإنساني، أشبه بما نسمع من حصار اليوم في بيروت، هذا حصار النبي وبني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب، حاصروهم: لا يبيعون لهم ولا يشتررون منهم، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، حتّى أكلوا أوراق الشجر، حتّى دمت أشداقهم، ثلاث سنوات عجاف مرت على النبي ﷺ، حتّى شاء الله أن يخرج من هذه المقاطعة ومن هذا الحصار، ثمّ يحدث بعد ذلك موت خديجة وأبي طالب.

الدعوة ليست وردًا بلا شك:

هكذا الدعوة: ليست ترفًا، ليست وردًا بلا شك، ليست غنيمة باردة، ليست بيضة مقشورة! الدعوة جهاد وكفاح!

النبيون جميعًا جاهدوا وكافحوا حتّى يوصلوا كلمة الحق إلى الناس، لا ينتظر أصحاب الدعوات حياة هيّنة ليّنة رخيّة دائمة.

موسى ﷺ ولد يوم ولد والشر ينتظره ويتربص به، يريد الطواغيت أن يذبحوه ذبحًا، فأوحى الله إلى أمّه ألقيه في اليمّ، ولا تخافي ولا تحزني!

يوسف ﷺ لقي من المحن ما لقي، محنة بعد محنة، منذ طفولته، محنة مع إخوته، ومحنة مع امرأة العزيز، ومحنة في السجن!

وهكذا، كل الأنبياء أصيبوا بما أصيبوا به، «أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثمّ الصالحون، ثمّ الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على قدر دينه؛ فإن كان دينه صلبًا اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، وما يزال البلاء ينزل بالعبد حتّى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»^(١)، وما يزال البلاء ينزل بالعبد حتّى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة.

(١) رواه أحمد (١٤٨١)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى في الطب (٧٤٨١)، عن سعد بن أبي وقاص.

الطائف وقسوة أهلها:

أصيب النبي ﷺ بما أصيب به، وذهب - بعد وفاة عمه، وبعد أن لقي من الأذى ما لقي من قريش - إلى ثقيف في الطائف، ذهب ماشياً على قدميه في شدة الحر، في هجير الصيف، وليس معه إلا مولاه زيد بن حارثة! ظنَّ أن يجد عند القوم ما لم يجد عند قريش، ولكنه استقبل أسوأ استقبال، وردوه أقبح الرد، وسلطوا عليه العبيد والسفهاء والصبيان يرمونه بالحجارة؛ حتَّى سأل الدم الشريف من قدميه الشريفتين ﷺ! ولكن كان أشدَّ من الحجارة على قدميه وقع الكلمات على أذنيه، الكلمات الجارحة، الكلمات المؤذية التي استقبلها به زعماء القوم، حتَّى قال له من قال: ألم يجد الله في جزيرة العرب غيرك حتَّى يرسله، وقال له واحد منه: إن كنت صادقاً فأنت أعظم من أن أكلمك، وإن كنت كاذباً فأنت أهون من أن أكلمك، فلا أكلمك صادقاً ولا كاذباً. وقالوا ما قالوا.

بعد هذه الرحلة القاسية عاد النبي ﷺ وهو يشكو إلى ربِّه، يناجي ربَّه: «اللهمَّ إنِّي أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الراحمين؛ أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلِّني؟! إلى بعيدٍ يتجهَّمني أم إلى عدوِّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي! أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدُّنيا والآخرة، أن يحل عليَّ غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العُتْبى حتَّى ترضى، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بك»^(١).

(١) رواه الطبراني (٧٣/١٣)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٨٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨٥١): فيه ابن إسحاق، وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٩٣٣)، عن عبد الله بن جعفر.

رحلة الإسراء والمعراج:

بعد هذه الرحلة أراد الله تبارك وتعالى أن يكرم رسوله ﷺ، فكانت رحلة الإسراء والمعراج، وما فيها من تكريم تمثل في أن يصحبه جبريل، ويمشي في ركابه، وأن يستقبله الأنبياء في المسجد الأقصى، وأن يصلوا خلفه، وهو إمامهم ﷺ، وأن تُفتح له أبواب السماء بابًا بعد باب، مرحبين به: مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح!

في كلِّ سماء نبي من الأنبياء الكبار يستقبله ويرحب به! ثمَّ يلقي الله تبارك وتعالى ويناجيه ويفرض عليه الصلوات! فرضها في أول الأمر خمسين، وما زال يراجع ربه بإشارة من أخيه موسى ﷺ الذي جرب قومه قبل ذلك، ما زال يراجع ربه، ويسأله التخفيف حتَّى أصبحت خمسًا، وقال الله تعالى: «ما يُبَدِّل القول لديَّ، هي في العمل خمسٌ، وفي الأجر خمسون»^(١).

إنَّها رحلة الإسراء والمعراج، لا يتسع المقام أيُّها الإخوة لأحدثكم عن تفاصيلها، ولكنِّي أحدثكم فقط عن أن أمرين من بقايا الرحلتين: أمر من بقايا رحلة الإسراء، وأمر من بقايا رحلة المعراج!

الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى:

أمَّا الأمر الذي من بقايا رحلة الإسراء فهو الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، فقد شاعت حكمة الله تبارك وتعالى أن يكون مبتدأ الإسراء المسجد الحرام، وأن يكون منتهى الإسراء المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، في أرض النبوات التي بارك الله فيها للعالمين، أرض فلسطين التي وصفها الله بالبركة في ستِّ آيات من كتابه.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٣٤٩)، ومسلم في الإيمان (١٦٣)، عن أبي ذر.



شاء الله أن يجعل المسجد الأقصى منتهى الإسراء؛ حتّى يذكّرنا نحن المسلمين كلّما حلت مناسبة الإسراء والمعراج بهذا المسجد، والمسجد الأقصى اليوم أسير في أيدي اليهود، المسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلّا إليها بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي، المسجد الأقصى أولى القبلتين، صلى إليه المسلمون قبل الكعبة بضعة عشر شهرًا! المسجد الأقصى هذا المسجد العظيم الذي ثواب الصلاة فيه بخمسمائة صلاة فيما عداه من المساجد إلّا المسجدين الآخرين مسجد مكّة ومسجد المدينة!

علينا نحن المسلمين كلّما تذكّرنا الإسراء والمعراج واحتفينا بهذه المناسبة أن نذكر أن مسجداً الأقصى بيد اليهود، لا تستطيع أيّها المسلم أن تذهب لتصلي وتعتكف في المسجد الأقصى إلّا إذا رخص لك اليهود، إلّا إذا أذن لك اليهود! مصيبتنا نحن المسلمين اليوم أنّنا سكّنا على انتهاك حرّماننا، وضياع مقدّساتنا! احتل المسجد الأقصى، بل أحرق المسجد الأقصى يومًا، ولا تزال الحفريات تعمل تحت هذا المسجد الأقصى، يصنعها اليهود؛ ليحققوا حلمًا قديمًا: أن يبنوا الهيكل على أنقاض المسجد!

ونحن العرب والمسلمين مائة وخمسون مليونًا من العرب، وألف مليون أو أكثر من المسلمين، نسمع هذا ونراه ونحن صامتون، أكثر ما نعمله أن نستنكر، نرسل احتجاجًا، نتحدث، نعقد مؤتمرات عربيّة ومؤتمرات إسلاميّة، وتقرر المؤتمرات قرارات، وتصدر توصيات، وتُحدث تصريحات وهكذا، ثمّ علام ينتهي الأمر؟ ينتهي الأمر ببقاء الواقع، الواقع أقوى من الكلام، وأقوى من التصريحات والمؤتمرات، اليهود يعيشون في الأرض فسادًا ونحن صامتون، ونحن عاجزون، ونحن متفرجون!

حق المسجد الأقصى على أمة الإسلام:

إنَّ من حق المسجد الأقصى علينا أمة الإسلام أن نعمل للدفاع عنه، أن نعمل على تحريره واستنقاذه، فرض على أمة الإسلام متكافلة متضامنة أن تعمل على إنقاذ المسجد الأقصى، ألف مليون أو أكثر من المسلمين لا يستطيعون أن يقفوا بضعة ملايين من اليهود في فلسطين، ومعهم ضعفهم أو ثلاثة أضعافهم من يهود العالم؟!!

ما الذي حدث؟ الذي حدث أنَّ اليهود دخلوا المعركة بتعاليم التوراة ونحن لم ندخلها بتعاليم القرآن، دخلوا ومعهم الأسفار (العهد القديم) وليس معنا شيء، جاؤوا بأحلام دينية وحوافز دينية جمعتهم من مشرق ومغرب وشمال وجنوب، رغم اختلاف عاداتهم وأقطارهم، ولكن جمعتهم العقيدة اليهودية، جمعهم التوراة والتلمود.

اليهود ليسوا أسطورة:

إنَّ اليهود ليسوا أسطورة، ليسوا القوَّة التي لا تقهر؛ لو صممنا نحن المسلمين على استرداد المسجد الأقصى، واسترداد حقنا!

ولا بدَّ أن يأتي هذا اليوم، لا بدَّ أن تأتي هذه المعركة، الذي نبأنا عنها هو رسول الله ﷺ حيث يقول: «لا تقوم الساعة حتَّى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتَّى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهوديُّ خلفي، فتعال فاقته»^(١)! أيقول الحجر والشجر ذلك بلسان الحال أم

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٢٩٢٦) مختصرًا، ومسلم في الفتن (٢٩٢٢)، عن أبي هريرة.



بلسان المقال؟ لا حرج على فضل الله، ولا تحجير على قدرة الله، المهم أن كل شيء يوم ذاك سيكون في صف المسلمين حين يدخلون المعركة تحت راية الإسلام، وتحت شعار العبودية لله، حتّى يقول الحجر والشجر: يا عبد الله، يا مسلم، هذا يهودي ورائي، فتعال فاقتله، هذه هي العبرة الأولى من عبر رحلة الإسراء.

أهمية الصلاة:

أمّا العبرة من الرحلة الثانية رحلة المعراج هي الصلاة، ماذا بقي لنا من رحلة المعراج؟ بقي لنا من رحلة المعراج الصلاة اليومية، التي هي معراج كل مسلم إلى ربه، يستطيع أن يرتقي بها إلى الله، يدخل عليه بغير باب، ويكلم ربه بلا ترجمان، ويقف بين يديه، فينادي قريباً غير بعيد، ويدعو كريماً غير بخيل، ويسأل غنياً غير فقير، يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٥ - ٧].

الصلاة لما لها من مزايا فُرِضت وحدها في السماء، على حين فُرِضت كل الفرائض في الأرض؛ للدلالة على أهميتها، فهي الفيصل بين المسلم والكافر، الذي لا يصلي، ولا يعرف المسجد، ولا يعرف الله تعالى راکعاً ولا ساجداً كيف يدل على إسلامه؟ ما الذي يدل على أنه مسلم؟ أهى البطاقة الشخصية؟ الهوية أنه مكتوب أنه مسلم؛ وهو لا يعرف الله في ركوع ولا سجود؟

إنّ كثيراً من أبناء المسلمين ينتسبون إلى هذا الدين ولا يعرفون الصلاة، وهي مسؤوليتنا جميعاً، الأب مسؤول عن أبنائه وبناته، وكذلك الأم، الأسرة مسؤولة، المدرسة مسؤولة، الإعلام مسؤول، المجتمع كله



مسؤول! ينبغي أن نحاصر تاركي الصلاة، لا نوظفهم إذا كنا لنا شركات أو مؤسسات، لا نوظف فيها تاركًا للصلاة، لا نصاهرهم، لا تأتمن على ابنتك إنسانًا لا يؤدي لله حقًا، من خان الله أولى أن يخون الناس، من ضيع حق ربه الذي خلقه وسواه أجدر أن يضيع حق الناس، علينا أن نحاصر تاركي الصلاة حتى يعلموا أنهم لا مكان لهم في المجتمع؛ إلا إذا أدوا الصلاة، كان عمر بن عبد العزيز يبعث إلى ولاته يقول لهم: إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن ضيّعها فهو لما سواها أكثر تضييعًا^(١).

نسأل الله أن يفقهنا في ديننا، وأن يغفر لنا ما مضى، وأن يصلح لنا ما بقي، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

(١) رواه مالك في وقوت الصلاة (٩)، تحقيق الأعظمي، وعبد الرزاق في الصلاة (٢٠٣٨).

الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

وَرَدَ أَنَّ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةً إِجَابَةً، لَا يَصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ بِخَيْرٍ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ ^(١)، وَلَعَلَّهَا تَكُونُ هَذِهِ السَّاعَةُ.

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عَصِمَةٌ أَمْرُنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا مَعَاشِنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادُنَا، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ!

اللَّهُمَّ اجْعَلْ يَوْمَنَا خَيْرًا مِنْ أَمْسِنَا، وَاجْعَلْ غَدَنَا خَيْرًا مِنْ يَوْمِنَا، وَأَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

عباد الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

نسخة مجانية



غزوة أُحُد دروس وعبر^(١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

ما أجدرنا أن نعيش مع رسول الله ﷺ، أن نحيا في سيرته، وفي غزواته، وفي مسيرته بالدعوة سلماً وحرّاً، فقد كانت حياته ﷺ مدرسة لهذه الأمة، يتعلم فيها كل مسلم من واقع سيرته: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

اقتدى رسول الله ﷺ بالأنبياء والرسل من قبله كما أمره الله تعالى، فقد قصّ عليه سيرة عدد من المرسلين وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فكان ﷺ هو الصورة المثلى لهؤلاء الأنبياء والرسل جميعاً، فعلينا نحن المسلمين أن نتمثل سيرته، ونأخذ منها العبرة، ونقتبس منها الأسوة.

الجهاد المسلح في المدينة:

لقد عاش ﷺ ثلاثاً وستين سنة، منها أربعون قبل البعثة، وثلاث وعشرون بعد بعثته ﷺ، ثلاث عشرة سنة بمكة، وعشر سنوات بالمدينة،

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، عام ١٩٩٤م.



هذه السنوات العشر بالمدينة كانت تمثل الجهاد المسلح، والصدام الدامي مع قوى الكفر، مع الوثنيّة العربيّة في مكّة وما حولها من أرض الجزيرة العربيّة، ومع اليهوديّة الغادرة، ومع المجوسية المتربصة هناك في فارس، ومع النصرانيّة البيزنطية المتهيّئة للقاء في بلاد الروم، ومع المنافقين أيضًا، مع هؤلاء جميعًا كانت معركته ﷺ.

ولهذا قضى حياته في المدينة إمّا غازيًا بنفسه، أو مرسلًا أصحابه في سرايا وبعوث، فغزا نحو سبع وعشرين غزوة، وبعث نحو بضع وخمسين سرية، كانت هذه حياته ﷺ، لا يكاد يخلو بيت من بيوت المدينة من شهيد أو أكثر.

غزوة أحد من الغزوات الكبار:

ومن الغزوات الكبار التسع التي غزاها: غزوة غزاها في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة، أي بعد سنة من غزوة بدر التي نصر الله فيها رسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

بعد غزوة بدر بنحو سنة أو يزيد قليلًا حدثت غزوة أحد، وسميت غزوة أحد لأنها وقعت بجوار جبل أحد، الذي كان في ضاحية المدينة في ذلك الوقت.

أراد المشركون أن ينتقموا لأنفسهم، وأن يثأروا لآلهتهم، ويثأروا لقتلاهم في يوم بدر، وقد آلوا على أنفسهم أن يظلوا صامتين، لم يكونوا يسمحون لأنفسهم بأن ينشدوا الشعر، ينعون فيه من مات من قتلاهم في بدر؛ بل إنّ أبا سفيان امتنع أن يقرب أهله، أرادوا أن يثأروا لأنفسهم قبل

كل شيء، وفعلاً بعد هذه السنة جمعوا جموعهم، وحشدوا قواهم، وجأؤوا إلى المدينة في شوال، يريدون أن يغزوا المسلمين في عقر دارهم!

استشارة النبي أصحابه:

واستشار النبي ﷺ أصحابه: ماذا يصنعون أمام هذا الهجوم الوثني من أهل مكّة؟ كان رأي النبي ﷺ ورأي خاصّة أصحابه: أن يبقوا في داخل المدينة، ولا يخرجوا للقاء المشركين، فإن دخلوها عليهم قاتلهم الرجال في الطرقات، وقاتلهم الصبيان والنسوان من فوق أسطح المنازل بالحجارة.

ولكن الرجال الذين فاتهم شرف القتال يوم بدر - وخصوصاً الشبان منهم - عزّ عليهم ذلك، وأرادوا أن يخرجوا لقتال القوم، فأشاروا على الرسول ﷺ بالخروج للقوم، وأنه عارّ عليهم أن ينتظروا حتّى يدخلوا عليهم المدينة.

نزول النبي عن رأيه لرأي الأغلبية:

ورأى ﷺ غالبية القوم مع هذا الرأي؛ فنزل على رأيهم، ودخل يلبس لأمة الحرب ويستعد للخروج، فشاور بعضهم بعضاً، وقالوا: لعنا استكرهنا رسول الله ﷺ على أمر لم يكن يريده، فلا بدّ إذن أن نسترضي رسول الله ﷺ.

فلما خرج قالوا: يا رسول الله، لعنا استكرهناك على أمر ما أردته، فإن شئت بقيت هنا وحاربنا معك. فقال النبي ﷺ: «ما كان لنبي لبس لأمة أن يضعها حتّى يحكم الله بينه وبين أعدائه»^(١). أراد أن يلقنهم درساً في عدم التردد، أمرٌ أخذ فيه قراراً

(١) رواه أحمد (١٤٧٨٧)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. والدارمي في الرؤيا (٢٢٠٥)، عن جابر.

واستعد له فليمض على بركة الله، وأمرهم أن يتجهزوا للقوم، وتجهزوا فعلاً.

مبادرة فتیان المسلمين، وتخاذل المنافقين:

واستبق الشبان الصغار في السن يريدون أن يلتحقوا بالجيش، فكان النبي ﷺ يرد مَنْ يراه صغير السن، وكان مَمَّن ردهم سمرة بن جندب، ورافع بن خديج، ولكن قيل له: إن رافعاً رام. فأجازه، فبكى سمرة وقال: إني أغلب رافعاً وأصرعه، فكيف تجيز رافعاً وتردني يا رسول الله؟ فأمر بهما فاصطربا فصرع سمرة رافعاً؛ فأجاز سمرة أيضاً^(١).

ومشى الجيش، وفي الطريق قال عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين: عصاني وأطاع هؤلاء الغلمان والولدان. ورجع بثلاث القوم، كان جيش المسلمين حوالي ألف، وكان جيش المشركين ثلاثة آلاف، فرجع بنحو ثلث الجيش، وهمت طائفتان من المسلمين أن تفشلا وأن ترجع، ولكن الله ثبتهما، وذهب جيش المسلمين للقاء جيش المشركين.

تنظيم النبي للجيش في أحد:

قبل اللقاء وقف النبي ﷺ عند أحد ونظم الجيش، وأمر الرماة الذين يرمون بالنبال: أن يقفوا خلف ظهر المسلمين عند جبل أحد، يحمون ظهر المسلمين، وأوصاهم النبي ﷺ وصية جامعة مانعة، ألا يتركوا أماكنهم؛ وإن رأوا الطير تتخطف المسلمين، لا يدعوا أماكنهم، هكذا قال لرئيسهم عبد الله بن جبير، ولمن معه من المسلمين.

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٦٦/٢).

وفعلًا حدث اللقاء، جاء المشركون بقضهم وقضيضهم، والتقوا بالمسلمين، وكانت المعركة في بدايتها لصالح المسلمين، كانت الجولة الأولى لصالحهم، استطاع المسلمون أن يسحلوا هؤلاء المشركين، وأن يقتلوا منهم حتى ولولت النساء، وولت مدبرات مشمرات، وكان المشركون قد أقبلوا بنسائهم معهم، كان من عادة العرب أن يحضروا النساء في بعض المعارك المهمة؛ ليحرضن الجنود على القتال، وفعلًا كانت هند امرأة أبي سفيان ومن معها من النساء تنشد أناشيد:

إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ وَنَبْسُطِ النَّمَارِقُ
أَوْ تَذْبِرُوا نُفَارِقْ فَرَاقَ غَيْرِ وَامِقٍ^(١)

أثر مخالفة أوامر القائد في المعركة:

ففي الجولة الأولى انتصر المسلمون، وولّى المشركون الأدبار أمام المسلمين؛ فنزل المسلمون يغنمون، ثلاثة آلاف مقاتل يغنمون منهم ما يغنمون، ورأى ذلك الرماة الذين أقعدهم النبي ﷺ على فم الشعب على جبل الرماة، رأوا المسلمين يأخذون الغنائم فقالوا: لم يرد النبي ﷺ أن يمنعنا من أخذ الغنائم!

المهم أنّهم تأولوا في قول النبي ﷺ، ونزلوا إلى الجيش، وتركوا الساحة، تركوا ظهر النبي ﷺ والصحابة مكشوفًا، ونزلوا يغنمون، ورئيسهم يذكرهم بوصية النبي ﷺ، وهم يأبون إلا ينزلوا ليغنموا ما يغنم المسلمون.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٦٨/٢)، والسيرة الحلبية (٣٠٦/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت،

أحسن بهذه الحركة - خلو ظهر الجيش - خالد بن الوليد، وكان لا يزال على الشرك، وكان على قيد المشركين، فالتف هو وعكرمة بن أبي جهل، وكان أيضًا لا زال على الشرك، التفوا ومن معهم من فرسان المشركين على المسلمين من الخلف، وجاؤوا يعملون سيوفهم في المسلمين.

في هذه الحالة ارتبك المسلمون، وصار يضرب بعضهم بعضًا وهو لا يدري، وأصيب النبي ﷺ، كانت هناك حفرة حفرها أبو عامر الراهب، وهو أحد رجال الأوس الذين انضموا إلى جيش الشرك، فوق النبي ﷺ في هذه الحفرة وأصيب فيها، وبقي بعض الصحابة حول النبي ﷺ ولم يفروا، لأن هناك كثيرين فروا من حول رسول الله ﷺ، وهو ما سجله عليهم القرآن في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

فرَّ هؤلاء من حول رسول الله ﷺ، وبقي جماعة حول رسول الله ﷺ، عشرة أو فوق العشرة يقدونه بأنفسهم، جعلوا من أنفسهم ترسًا له، ودرعًا له، يتحملون ضربات السيوف، ورميات النبال، ويتحملون كل ما يصل إلى النبي ﷺ من أذى، يقدونه بأنفسهم.

دفاع الصحابة عن النبي ﷺ :

وقال في ذلك أنس بن النضر، وهو عم أنس بن مالك، قال لمن رآهم يولون الفرار نحو المدينة حين قالوا له: ماذا تفعل؟ لقد قُتل رسول الله ﷺ. وقد شاعت هذه القيلة، أن النبي ﷺ قُتل! قال: فقاتلوا

على ما قاتل عليه رسول الله ﷺ، وموتوا على ما مات عليه^(١). وقاتل أنس بن النضر حتى قُتل، ولم يعرفه أحد؛ فقد كان في جسمه ثمانون جراحة، ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، لم يعرفه إلا أخته، عرفته بعلامة في بنانه، في طرف أحد أصابعه.

وهكذا وجدنا هؤلاء الأبطال الذين قاتلوا عن رسول الله ﷺ، وجدنا أبا دُجانة الأنصاري الذي أعطاه رسول الله ﷺ سيفه، وقال: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟». فأجفل الناس، وقال أبو دُجانة: أنا آخذه بحقه، يا رسول الله. قال: وما حقه؟ قال: «أن تضرب به حتى ينقطع»^(٢). فكان أبو دُجانة يترس على رسول الله ﷺ بنفسه.

وكذلك كان طلحة بن عبيد الله، وكذلك سعد بن أبي وقاص يرمي عن رسول الله ﷺ، ويقول له النبي ﷺ: «ارم فداك أبي وأمي»^(٣). وهكذا احتاط هؤلاء الصحابة برسول الله ﷺ، وهم يقولون له: نفوسنا فداء لنفسك يا رسول الله.

كانت المعركة شديدة بعدما حدث لرسول الله ﷺ ما حدث، كان المسلمون في هذه المعركة فرّ من فرّ، وثبت من ثبت، والنبي ﷺ وبعض الصحابة ثابتون، فبدأ المُحجمون يقدمون، والفرارون يعودون؛ حتى استطاعوا أن يستردوا بعض مواقعهم في هذه المعركة، التي كان النصر فيها أولاً للمسلمين.

(١) سيرة ابن هشام (٨٣/٢).

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٠)، وأحمد (١٢٣٣٥)، عن أنس بن مالك.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١١)، عن علي بن أبي طالب.

مصاب المسلمين في أحد:

كانت معركة أحد شديدة الوطأة على نفوس المسلمين، فقد جاءت بعد بدر، وقد أصاب المسلمين في بدر ما أصابوا من صناديد قريش، كانوا قلة في العدد، وضعفًا في العدد، ووهنًا في الاستعداد، ولكنهم أصابوا النصر، قتلوا سبعين من أئمة الكفر من فراعنة الضلال، وأسروا سبعين منهم أيضًا. ولكن في معركة أحد لم يستطع المسلمون أن يفعلوا ذلك، لقد قُتل منهم سبعون، منهم عم رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب: أسد الله وأسد رسوله، قتله وحشي: عبدٌ من عبيد قريش، قال له مالكة: إن أنت أصبت حمزة فأنت عتيق. ولذلك ظل هذا العبد الحبشي - وهو يجيد الطعن بالحرا، كما يجيدها الأحباش - ينتظر حتى وافته فرصة فرأى حمزة وحده، فضربه بالحربة دون أن يراه حمزة؛ فأصاب منه مقتلاً، فخرجت الحربة من بين رجله رضي الله عنه.

عمرو بن الجموح يظاً بعرجته الجنة:

وكان عمرو بن الجموح شيخاً كبيراً، وكان أعرج، وله بنون أربعة يحضرون مع النبي ﷺ، فعنده شيخوخته، وعنده عرجه، وليس على الأعرج حرج، وقال له بنوه: اجلس في البيت ونحن نكفيك، وما جعل الله عليك من حرج. فاشتكى إلى النبي ﷺ ما يريده بنوه منه، فقال له: «وما عليك أن تجلس وقد رفع الله عنك الحرج؟». قال: والله يا رسول الله، إنني لأرجو أن أظاً بعرجتي هذه الجنة. فقال النبي ﷺ لبنيه: «دعوه، رجل أراد الشهادة لعل الله يرزقه الشهادة في سبيله»^(١). وفعلاً رزقه الله الشهادة

(١) رواه البيهقي في السير (٢٤/٩)، وفي دلائل النبوة (٢٤٦/٣)، عن أشياخ من بني سلمة.

في سبيله، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجُمُوحِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتَهُ يَطَأُ الْجَنَّةَ بِعَرَجَتِهِ هَذِهِ كَمَا قَالَ»^(١).

حنظلة الشهيد غسيل الملائكة:

كان لكل من الشهداء المسلمين قصة، حنظلة الذي كان حديث عهد بعرس؛ حينما سمع النداء خرج دون أن يغتسل؛ فقال النبي ﷺ عنه: «لَقَدْ رَأَيْتَ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُهُ»^(٢). قد خرج وهو جنب، فغسلته الملائكة فأصبح يُعرف في التاريخ (حنظلة غسيل الملائكة)، هكذا كان هؤلاء الشهداء.

كما استشهد مصعب بن عمير الداعية الأول، كان هو الذي يحمل لواء المهاجرين، فأصيب وقُتل ﷺ، كما قُتل عبد الله بن جحش ابن عمه النبي ﷺ بعد أن بقر المشركون بطنه، ومثلوا بأذنه، وفعلوا به ما فعلوا، سبعون من أصحاب رسول الله ﷺ أصابهم ما أصابهم.

مراعاة الأسباب والسنن الكونية:

كانت غزوة أحد غزوة فريدة، كان الصحابة في حاجة إلى أن يعرفوا أنه ليس من الضروري أن تكون كل غزوة يصحبها نصر، فالنصر حسب ما يُقدم المؤمنون من أعمال، من بطولات، من جهاد، حسب ما يراعون السنن والأسباب، أمّا إذا أهملوا سنن الله، إذا أهملوا قاعدة الأسباب والمسببات؛ فلا بدّ أن ينالهم القانون الإلهي كما ينال غيرهم.

(١) رواه ابن حبان في مناقب الصحابة (٧٠٢٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد. عن جابر.

(٢) رواه الطبراني (٣٩١/١١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٠٨٠): رواه الطبراني في الكبير،

وإسناده حسن، عن ابن عباس.

في هذه المعركة.. المسلمون غرتهم الدنيا، لم يسمعوا لنصيحة رسول الله ﷺ، خالف الرماة الأمر، وكان حب الدنيا أكبر عندهم من حب الآخرة، وهذا ما ذكره القرآن إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذَا تَحْسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَبَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. هكذا علمنا الله سبحانه.

وقال في ذلك القرآن مجيباً عن تساؤل المسلمين عن سر هذه الهزيمة: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. أصبتم مثلها يوم بدر، قُتل سبعين وأسر سبعين، والآن تسألون أنفسكم: ما الذي حدث حتى أدى إلى هذه النتيجة، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

بما كسبت أيديكم:

هذه معركة يجب على المسلمين أن يعوها، أن ما ينزل بالمسلمين من مصائب إنما هو من عند أنفسهم، ما يحدث من مصائب للمسلمين في فلسطين، أو في البوسنة والهرسك، أو في كشمير، أو في الفلبين، أو في الصومال، أو في غير ذلك من البلدان والأقطار إنما هو من عند أنفسهم، فلا بد أن يراجعوا أنفسهم، ويعلموا ماذا أصابهم؟ ولماذا أصابهم؟

إن كانوا قد اختلفوا فلا بد أن يتَّحدوا، إن كانوا قد غلبتهم الدنيا فلا بد أن يطلقوها، وأن يعملوا للآخرة، إن كانوا قد والوا غير المسلمين فليوالوا الله ورسوله وجماعة المؤمنين، وهكذا لا بد من محاسبة النفس، ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾.

إِنَّ اللَّهَ يُخَالِفُ أَنْزَلَ نَحْوَ أَكْثَرِ مِنْ نِصْفِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ تَعْقِيًّا عَلَى غَزْوَةِ أَحَدٍ، ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ - ١٤٢].

وهكذا الدهر كله والأيام مداولة بين الناس، يوم لك ويوم عليك، إن مسك اليوم قرح، فقد مس عدوك قرح مثله، لا بد أن يتعلم الناس من هذه الغزوة هذا الدرس، أن الأيام مداولة.

اللَّهُ تَعَالَى يُعْطِي النِّصْرَ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ:

وَأَنَّ اللَّهَ يُخَالِفُ إِنَّمَا يُعْطِي النِّصْرَ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ، وَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ النِّصْرَ فَلَنْ يَخْذُلَهُ أَحَدٌ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَخَاذَلَ الْمُسْلِمُونَ وَلَوْ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ. وَالْقُرْآنُ يَقُولُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

الْأُمُورُ تَتَعَلَّقُ بِالْمَبَادِئِ لَا بِالْأَشْخَاصِ:

الْمَسْأَلَةُ إِذَا لَا تَتَعَلَّقُ بِالشَّخْصِ وَلَوْ كَانَ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَبْدَأِ، بِالدَّعْوَةِ، بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾؟ كَانَ لَا بَدَّ لِلصَّفِّ أَنْ يَتَمَيَّزَ الْخَبِيثُ فِيهِ مِنَ الطَّيِّبِ، وَيُعْرَفَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

كانت هذه المعركة تمييزاً وتصفية، وكانت تعليمًا وتربية، وكانت امتحاناً للصف الإسلامي؛ ليُعرف فيه الصادق من الكاذب، والثابت من المتردد، والمؤمن من المنافق، هكذا كانت هذه الغزوة.

دور الإعلام الحربي:

بعد هذه الغزوة ظنَّ المشركون أنَّهم قد تخلصوا من رسول الله ﷺ، ووقف أبو سفيان يقول: أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك. قال أبو سفيان: اعلُ هُبْل. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر. فقال عمر: لا سواء، قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار^(١).

وهكذا ارتفع الصوت الإسلامي من جديد، وأراد النبي ﷺ أن يثبت لهؤلاء أنَّهم لا زال بهم قوَّة رغم ما أصابهم من محن، ورغم ما دفنوا من شهداء هم أحياء عند ربهم يُرزقون.

(١) رواه أحمد (٢٦٠٩)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. عن ابن عباس. ورواه بنحوه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٩)، عن البراء بن عازب.

غزوة أحد دروس وعبر:

دَفَنَ النبي ﷺ هؤلاء الشهداء، وقال: «دعوهم، زملوهم في دمائهم وثيابهم حَتَّى يُبْعَثُوا بها يوم القيامة، اللون لون الدم، والريح ريح المسك»^(١). وكانوا يقول: «قدموا الأقرأ للقرآن»^(٢). مَنْ كَانَ أَقْرَأَ لِلْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِهِ يُقَدَّمُ فِي اللَّحْدِ عَلَى غَيْرِهِ؛ تَعْظِيمًا لِحَقِّ الْقُرْآنِ، وَحَقِّ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ.

هذه خلاصة لمعركة أحد التي حدثت في السنة الثالثة من الهجرة، ونزل فيها ما نزل من القرآن الكريم، وجعل القرآن فيها عبرة للمسلمين، حَتَّى يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّ النِّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِذَا أَخَذُوا بِأَسْبَابِ النِّصْرِ وَسَنَنِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَنْ يَتَخَلَّى عَنْهُمْ، سَيَنْصُرُهُمْ وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُمْ، وَضَعُفَتْ عُدَّتُهُمْ، أَمَّا إِذَا تَخَلَّوْا عَنْ أَسْبَابِ النِّصْرِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَحَابِي أَحَدًا، سَنَّ اللَّهُ لَا تَحَابِي أَحَدًا وَلَوْ كَانُوا هُمُ الصَّحَابَةُ وَمَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، سَيَدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ!

السَّنَنُ تَعْمَلُ عَمَلَهَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَمَعَ الْكُفَّارِ، مَعَ الْمُتَّقِينَ وَمَعَ الْفَجَّارِ، مَعَ الْأَخْيَارِ وَمَعَ الْأَشْرَارِ، السَّنَنُ تَعْمَلُ عَمَلَهَا، قَوَانِينُ اللَّهِ وَاحِدَةٌ، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

إعداد العدة وأخذ الأهبة:

فِيهَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ، مَا أَحْوجُنَا الْيَوْمَ وَنَحْنُ نَوَاجِهَ مَعَارِكَ شَتَّى، وَمَحَنًا مُخْتَلِفَةً بِإِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، نَوَاجِهَ الْيَهُودِيَّةَ الْمَاكِرَةَ الْغَادِرَةَ الَّتِي فَعَلَتْ فَعْلَتَهَا فِي مَجْزَرَةِ مَسْجِدِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤٠٧٩)، عن جابر بن عبد الله.

إبراهيم الخليل عليه السلام، هذه المجزرة التي ذهب ضحيتها أكثر من ستين شهيداً، وبعد ذلك ذهب شهداء آخرون في مواجهات مع اليهود، في تلك الأراضي المقدسة المحتلة، هذه المعركة مع اليهود مستمرة، فنحن نواجه اليهودية الغادرة، ونواجه الوثنية الكافرة الفاجرة، ونواجه من نواجه في بلاد شتى.

نواجه هذه المحن، ونواجه هذه المعارك الحامية الوطيس، وعلينا أن نستعد لها، أن نتهيأ لها بنفوس باعت لله كل ما تملك، باعت لله النفس والمال، واشترت الجنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

علينا أن نعلم هذا، وأن نهيئ للأمر عدته، ونأخذ له أهبته حتى يُمكن الله لنا، وسيمكن لنا إن شاء الله، سيمكن لنا إذا نحن مضينا على الطريق: واعين فاهمين، مؤكدين ما أكده لنا الله ورسوله، إذا نحن أحسنّا السير في طريق الحق، وفي طريق الخير، وفي طريق الهدى؛ حينذاك سنحصل على النصر إن شاء الله، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ﴾ [محمد: ٧].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.



غزوة أحد عرض وتحليل^(١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

في السنة الثالثة من الهجرة، وفي منتصف شهر شوال وقعت غزوة من أعظم غزوات الإسلام، غزا النبي ﷺ نحوًا من سبع وعشرين غزوة، حضر فيها المعارك بنفسه، منها تسع غزوات كبار: بدر وأحد والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة وحنين والطائف، كان من هذه الغزوات الكبار غزوة أحد التي نتحدث عنها اليوم.

بعد أن نصر الله المسلمين في بدر وهم أذلة كما قال القرآن: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وأصابوا من المشركين سبعين قتيلًا من صناديد الكفر وأئمة الضلال، وسبعين أسيرًا مثلهم - لم يهدأ للمشركين بال، ولم يرقأ لهم جفن.

ظلّ هذا الأمر يؤرقهم حتّى يأخذوا بثأرهم من المسلمين؛ حتّى إنّ أبا سفيان - وهو زعيم القوم في ذلك الوقت - حلف ألاّ يمس بدنه ماء

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٢١ فبراير ١٩٩٧م.

من جنابة، أي حلف أن يعتزل نساءه أو امرأته، فلا يقربها حتى يأخذ بثأره، وباتت قريش ومكة تتوثب لهذا اليوم الموعود؛ ليأخذوا بالثأر من المسلمين.

وفي شهر شوال من السنة الثالثة كانت غزوة أحد، وقعت غزوة بدر في رمضان من السنة الثانية، وبعد ما يقرب من ثلاثة عشر شهرًا وقعت غزوة أحد. جاء المشركون من قريش ومن تبعهم من القبائل الأخرى في ثلاثة آلاف مقاتل؛ لغزو المدينة، ومقاتلة المسلمين في عقر دارهم.

مشاورة النبي أصحابه:

ولما عرف النبي ﷺ بذلك شاور أصحابه، وكان رأيهُ ﷺ ورأي كبار الصحابة منهم وذوي الرأي فيهم أن يبقوا في المدينة، فإن دخل عليهم المشركون فيها قاتلوهم في طرقاتها وأزقتها، وحاصروهم داخل المدينة، يقاتلهم الرجال من تحت، وترميهم النساء والصبيان بالحجارة من فوق، وتكون المدينة مصيدة لهم.

ولكن كثيرين ممن فاتهم شرف القتال في يوم بدر، ومعظمهم من الشباب المتوثب للجهاد والاستشهاد قالوا: يا رسول الله، ما دخلوها علينا ونحن في الشرك، أفيدخلون علينا مدينتنا ونحن في الإسلام؟ والله لنخرجن إليهم.

نزول النبي عن رأيه لرأي الأغلبية:

ونظر النبي ﷺ فوجد الأكثرية ترغب في الخروج، فنزل على رأيهم، ودخل بيته، ولبس لأمة الحرب، فقال بعضهم لبعض: لعنا استكرهنا رسول الله ﷺ على ما لا يريد! فلما خرج قالوا: يا رسول الله، لعنا

استكرهناك على ما لا تحب، فإن شئت فلنبق في المدينة. فقال ﷺ: «ما كان لنبي لبس لأمته أن يضعها؛ حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه»^(١).
رفض هذا التردد: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وخرج النبي ﷺ في ألف من الجند، وفي الطريق رجع عبد الله بن أبيّ، رأس المنافقين، وأحد زعماء المدينة الذي كان يُنتظر أن يُتوج عليها ملكاً؛ لولا هجرة الرسول ﷺ، فقال: أطاع الصبيان وعصاني. ورجع بنحو ثلث القوم، رجع بثلاثمائة مقاتل، فبقي النبي ﷺ في سبعمائة، أي أقل من ربع العدد الزاحف على المدينة من المشركين، ولكن هذا العدد رغم قلته كان يتوثب للجهاد، كانوا يحملون روحاً عالية، لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم.

خطة المعركة:

وذهب النبي ﷺ ووضع الخطة للقاء، ولهذا القتال، وعسكر هناك في جانب جبل أحد الذي نزل المشركون قريباً منه أيضاً، وجعل ظهره إلى أحد، وأقعد على الجبل الرماة، وكانوا خمسين رجلاً يرمون بالنبال والسهم، وأمر عليهم عبد الله ابن جبير، وقال لهم: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم، هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»^(٢). وهكذا أحكم النبي ﷺ الخطة.

وبدأ المسلمون والمشركون في التحامٍ حامي الوطيس، وكان للمسلمين الجولة الأولى، كان النصر أمامهم كما قال الله تعالى:

(١) رواه أحمد (١٤٧٨٧)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. والدارمي في الرؤيا (٢٢٠٥)، عن جابر.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٩)، عن البراء بن عازب.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢].
تقتلونهم بالسيف، وسقط اللواء من المشركين واحداً بعد الآخر، وبدأ أن
النصر للمسلمين.

أثر معصية أوامر الرسول:

هنا سال لعاب الرماة الذين كانوا على الجبل يحمون ظهر المسلمين
بأمر رسول الله ﷺ، سال لعابهم إلى متاع الدنيا، رأوا المشركين
ينكشفون وينهزمون أمام المسلمين، ثلاثة آلاف مقاتل وما وراءهم من
غنائم، فقالوا: لقد انتهى القتال، وانتصر المسلمون. وظنوا أن لا رجعة
للمشركين، قال لهم أميرهم: لا تدعوا أماكنكم، هكذا أمرنا النبي ﷺ.
ولكنهم للأسف - أمام بريق هذه المغنم - تأولوا أمر رسول الله ﷺ،
ونزلوا من أماكنهم، وبقي ظهر المسلمين مكشوفاً.

ولاحت الفرصة أمام المشركين، وكان على رأس فرسانهم
وخيالتهم خالد ابن الوليد، كان لا يزال على الشرك، وهو قائد عبقرى،
انتهاز هذه الفرصة، فاستدار إلى المشركين من الخلف، وجاء هو ومن
معه، وأعملوا في المسلمين السيف، واختلط الأمر على المسلمين،
وبعد هذا النصر البين الواضح انقلب الحال، كما يقول شيخنا
الغزالي رحمه الله: قد يجد المرء نفسه في حفل يموج بالأنوار، وتنتشر في
أجوائه الأشعة المبصرة، ثم يقع خلل مفاجئ يقطع التيار، فإذا
المصابيح تعتم، ثم يسود المكان ظلام موحش سقيم^(١). هكذا حدث
في لحظة واحدة، انقلب الحال، ولا يدري المسلمون ماذا جرى! فإذا
بالمشركين يقتلون في المسلمين.

(١) فقه السيرة للغزالي ص ٢٦٠، نشر دار القلم - دمشق، ط ١، ١٤٢٧هـ.

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه:

وشاعت شائعة أنّ رسول الله ﷺ قد قُتل، هذه فتت في عضد المسلمين، وأثّرت في روحهم المعنوية؛ حتّى فرّ منهم مَنْ فرّ ذاهباً إلى المدينة، وجلس منهم مَنْ جلس، وجاء أنس بن النضر من الأنصار عم أنس بن مالك فوجد بعض المسلمين قاعدين قد انكسرت نفوسهم وكفّوا أيديهم، قال: ما لكم؟ ماذا تنتظرون؟! قالوا: قُتل رسول الله ﷺ. قال: وما تصنعون بالعيش من بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه نبيكم^(١). فأنهضهم للقتال.

وذهب أنس يقاتل، فلقيه سعد بن معاذ، قال: ما وراءك يا أبا عمرو؟ قال: والله، إنني لأجد ريح الجنة من وراء أحد^(٢). وظل يقاتل حتّى قُتل، وكان في جسده بضع وثمانون جراحة؛ ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم؛ فما عرفه أحد - من شدة تشويه جسمه - إلا أخته عرفته بعلامة في بنانه، في طرف أحد أصابعه، فكانوا يرون أنّه ممّن نزل فيه قول الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظَرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

سقط الشهداء وراء الشهداء، حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله، أسد الله وأسد رسوله، طعنه وحشي بحربة في يده، كان وحشي عبداً حبشياً يتقن الطعن بالحرا، وقال له سيده: إن قتلت حمزة فأنت عتيق! فتربص له حتّى أصاب غفلة منه فرماه بحرسته، وتركه حتّى عرف أنّه

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٨٣/٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٥)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٣)، عن أنس بن مالك.

مات، وجاء فنزعها منه ولم يشارك في القتال، فليس له هدف في القتال
إلا قتل حمزة ليعتق!

وقُتل مصعب عمير حامل لواء المسلمين، وأول مبعوث
لرسول الله ﷺ لدعوة الأنصار في المدينة، كما قُتل عبد الله بن جحش،
الذي حقق الله أمله: فقد وقف يدعو ربه ويقول: اللهم لقني غداً مشركاً
عظيماً كفره، شديداً حرده، فأقابه فيقتلني، فيجدع أنفي وأذني، ويبقر
بطني. قال سعد ابن أبي وقاص: فوالله لقد رأيته في القتلى، وإن أذنيه
لمعلقتان في عنقه^(١).

كان الصحابة متشوقين إلى الجهاد والاستشهاد، حينما قال
النبي ﷺ، وقد رفع سيفه: «من يأخذ هذا بحقه؟». فأحجم الصحابة،
وقام أحدهم؛ وهو أبو دُجانة الأنصاري وقال: أنا، يا رسول الله. قال:
«أتدري ما حقه؟ ألا تقتل به مسلماً، ولا تفرّ به عن كافر»^(٢). وكان له
عصابة حمراء إذا لبسها قالوا: لبس أبو دُجانة عصابة الموت. وكان
يختال في الحرب، يمشي متبخترًا، ففعل ذلك أمام النبي ﷺ، فقال: «إنَّ
هذه لَمْشِيَّة يُبغضها الله؛ إلا في هذا الموطن»^(٣). في موطن القتال من حق
المسلم أن يختال ويتبختر.

عمرو بن الجموح شيخ من الأنصار أعرج، قال له بنوه وكان له أربعة
من الأبطال يشهدون الغزوات مع النبي ﷺ: يا أبت، إنك شيخ، وأعرج،
وقد أعفأك الله من القتال، ونحن نكفيك. فقال لهم: إنني أريد الشهادة.

(١) رواه الحاكم في الجهاد (٧٦/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٢٣٠/٣)، وصحَّحه ووافقه الذهبي. عن الزبير بن العوام.

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢٣٣/٣).

وذهب إلى النبي ﷺ، وقال له: إن بني يمنعونني أن أشارك معك في القتال. فقال له: «أما أنت فقد أعفأك الله، ولا حرج عليك». وقال لأبنائه: «ما لكم تمنعونه! دعوه؛ لعل الله يرزقه الشهادة في سبيله». فقال عمرو بن الجموح: والله يا رسول الله، إنني لأرجو أن أطا بعرجتي هذه الجنة. فقتل شهيداً، وأبّر الله قسمه^(١).

دفاع المؤمنين عن النبي ﷺ :

بهذه الروح قاتل المسلمون، وانتصروا في أول الأمر، ثم حدثت هذه النكسة، وأصاب المسلمين ما أصابهم، وسقط النبي ﷺ في حفرة من الحفر، التي حفرها ذلك الراهب الفاسق أبو عامر، الذي كان يُسمّى (أبا عامر الراهب)، فسماه النبي ﷺ (أبا عامر الفاسق)^(٢)، سقط النبي في الحفرة، فدخلت حلقتا المغفر في وجنتي النبي ﷺ، وأصابه ما أصابه في أسنانه وثناياه، وأقبل الصحابة على النبي ﷺ يقدونه بأنفسهم، ترس عليه أبو دُجّانة، والنبيل يقع على ظهره وهو لا يبالي^(٣)، وجاء أبو عبيدة بن الجراح فانتزع بأسنانه هاتين الحلقتين الغائرتين في وجنتيه، فكسرت بعض أسنانه^(٤)، وهناك من ارتشف الدم من رسول الله ﷺ حتى يجف عنه، قالوا له: مُجّه. قال: والله ما أمج دم رسول الله ﷺ. وابتلعه، فقال النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»^(٥). كان يوماً من أيام الله.

(١) رواه ابن المبارك في الجهاد (٧٨).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٦٧/٢).

(٣) المصدر السابق (٨٢/٢).

(٤) المصدر السابق (٨٠/٢).

(٥) رواه سعيد بن منصور في سننه (٢٥٧٣)، عن عمر بن السائب بلاغ.

موقف النساء والصبيان:

حتى النساء: نسيبة بنت كعب: أم عمارة، وأم سليم كانتا تقاتلان المشركين، وقال النبي ﷺ عن أم عمارة: «وَاللَّهِ لَمَوْقِفُهَا خَيْرٌ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ»^(١). كان اليوم يوماً من أيّام الله، أقبل المسلمون عليه إقبالاً لا نظير له.

حتى الصبيان جاؤوا يعرضون أنفسهم على النبي ﷺ فرد منهم من رد، مثل البراء بن عازب، وزيد بن أرقم^(٢). ورافع بن خديج أيضاً استصغره فردّه، فقال له أبوه: يا رسول الله، إنّه لرامٍ يجيد الرماية. فقبله، فجاء سمرة بن جندب فقال: يا رسول الله، أتجيز رافعاً وتردني، ولو صارعني لصرعته؟! فأمر بهما النبي ﷺ فاصطرعا، فصرع سمرة رافعاً، فأجازهما معاً^(٣).

هذه هي الرُّوح الّتي كان عليها المجتمع المسلم: روح الجهاد والاستبسال والاستشهاد، وهذه الروح كانت جديرة أن تنتصر، وقد انتصرت، ولكن حب الدُّنيا الذي غلب على الرماة هو الذي مكّن للمشركين، ولذلك قال الله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. قال ابن مسعود: ما كنت أعلم أن فينا من يريد الدُّنيا حتّى نزلت هذه الآية^(٤). كان يظنُّ هذا المجتمع مجتمعاً متطهراً ليس فيه مجال لحب الدُّنيا، وحب الذات، ولكنّه مجتمع بشري.

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٤١٣/٨)، نشر دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٦٨م.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر (٥٤٠/٢)، تحقيق علي محمد البجاوي، نشر دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٦٦/٢).

(٤) رواه أحمد (٤٤١٤)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. وابن أبي شيبة في المغازي (٣٧٩٣٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٠٧٢): فيه عطاء بن السائب؛ وقد اختلط.

موقف الأنصار:

حدث ما حدث للمسلمين ولرسول الله ﷺ، وطمع المشركون أن ينالوا من المسلمين وهجموا عليهم، ولكن الله تعالى حمى رسوله، وحمى البقية من المؤمنين بهؤلاء الأبطال الذين قاتلوا دون رسول الله ﷺ، حتى كان حوله سبعة من الأنصار ورجلان من قريش، قُتلوا دونهم، وحماية له، واحدًا بعد الآخر، فقال النبي ﷺ: «ما أنصفنا أصحابنا»^(١). يعني أن الأنصار قتلوا، والقرشيين بقيوا، وفي رواية: «ما أنصفنا أصحابنا». أي الذين فروا عنه ﷺ.

هذه المعركة جاء فيها رجل من قريش هو أبي بن خلف، وقال: إنني قاتل محمدًا، لا نجوت إن نجا! فأراد بعض الصحابة أن يتصدى له، فقال النبي ﷺ: «دعوه». وأخذ الحربة من أحدهم، وكان أبي مكسواً بالحديد من رأسه إلى قدمه، ولكنه وجد عند ترقوته منفذاً فطعنه ﷺ في ترقوته؛ فوقع يخور كما يخور الثور، وحمله أصحابه عائدين به إلى مكة، لكنه كان فزعاً جذاً، فقالوا له: هذا خدش يسير. فقال: إن محمدًا قال: إنه قاتلي، لا بدَّ أنه صادق. وقد قُتل من هذه الجراحة، ولم يقتل النبي أحدًا بيده في معركة من المعارك إلا هذا الرجل، قال: «اشتد غضب الرحمن على رجل قتله نبيه»^(٢).

كانت معركة أحد معركة عظيمة من معارك الإسلام، صحيح أن المسلمين قد كُسروا في هذه المعركة، ولكن الله تعالى أراد أن يلقنهم درسًا، بل دروسًا من هذا الانكسار:

(١) رواه مسلم في الجهاد (١٧٨٩)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (١٠٣٨٤)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. عن أبي هريرة.

أراد الله تبارك وتعالى أن يعلمهم أن الحياة هكذا، مداولة بين الأيام وبين الأقسام، الحرب سجال، والدُّنيا يومان: يوم لك ويوم عليك، ودوام الحال من المحال، هكذا أراد الله ﷻ.

الإعلام الحربي:

وحينما قام أبو سفيان بعد المعركة وقال لهم: أفيكم محمد؟ فقال لهم النبي ﷺ: «لا تجيبوه». قال: أفيكم أبو بكر؟ فلم يجيبوه، قال: أفيكم عمر؟ فلم يجيبوه، فقال أبو سفيان لأصحابه: أمّا هؤلاء فقد كفيتموهم. فقال عمر: بل هم باقون يا عدو الله، وسترى منهم ما يسوؤك. فقام أبو سفيان وقال: اعلّ هبل - كبير أصنامهم - أي انتصرت يا هبل. فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونهم؟». قالوا: بماذا نجيبهم؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل». فقام عمر، وقال: الله أعلى وأجل!

فقام أبو سفيان وقال: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «قولوا لهم: الله مولانا ولا مولى لكم»!

قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال. فقال عمر: «لا سواء؛ قتلنا في الجنة وقتلاكم في النار»^(١). هكذا كان يوم أحد يومًا من أيام الله.

القرآن يُقَوِّي عزائم المسلمين ويشدُّ أزرهم:

نزلت في هذه الغزوة ستون آية من سورة آل عمران، تُعزِّي المسلمين، وتشد من أزرهم، وتقوي من عزائمهم في مواجهة هذه المحنة، وتبين لهم حكم الله تعالى من وراءها.

(١) سبق تخريجه ص ٨٩.

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٣٩]!

وتلك الأيام نداولها بين الناس:

إِنَّ الانكسار في معركة ليس معناه انتهاء الحياة: ﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿ [آل عمران: ١٤٠]، أنتم تبذلون وهم يبذلون، وتنتصرون مرة وقد ينتصرون مرة، والعاقبة للمتقين، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، يعلمهم الله حقيقتهم علم ظهور؛ ليرز إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. يمحص هذه الصدور؛ حتى تكون وما فيها لله وحده.

لا بد أن يتعلم المسلمون هذا أن الحياة يوم لك ويوم عليك، كما قال تعالى: ﴿ فَأَثْبِكُمْ غَمًّا نَّغَمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٣]. ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، أراد أن يكون منكم أصحاب هذه المنزلة الذين يُستشهدون في سبيل الله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

حتى يميز الخبيث من الطيب:

﴿ وَلِيُمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكُفْرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١]، هذه المعركة

كانت تمحيصًا للمؤمنين ومحققًا للكافرين، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، لا، لا بد أن يبرز الصابرون من الجزعين، وأن يتميز الخبيث من الطيب! بعد معركة بدر دخل في الإسلام كثيرون نفاقًا، يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، فلا بد من معركة تبرز وتميز هؤلاء من هؤلاء؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. كانت المعركة تمييزًا وتصفية، وكانت المعركة تعليمًا وتربية، وكانت المعركة اختبارًا للمسلمين حتى يكونوا كما يحب الله تعالى: صفًا واحدًا في المعارك القادمة.

قل هو من عند أنفسكم:

ليس معنى هذا أن المسلمين لم يخطئوا، بل قد أخطؤوا، وقد حاسبهم الله تعالى ونبههم على ذلك حينما قال ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]. أي في بدر، فقد المسلمون في أحدٍ سبعين شهيدًا من الصحابة، وفي بدر قُتل من المشركين سبعون، وأُسِر سبعون، هذا معنى: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾. قتيلاً وأسيرًا، ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]. من أين جاء هذا الانكسار؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وهكذا يعلمنا القرآن أنه حينما تنزل بنا نازلة، أو تصيبنا مصيبة أن نفتش في داخلنا، في داخل أنفسنا: لماذا أصابنا ما أصابنا؟ لا نعلق

هزائمنا وانكسارنا على الغير دائماً ونقول: هناك مخطط، وهناك أعداء. لا بدّ أن نرجع باللائمة على أنفسنا.

غزوة حمراء الأسد:

ولكن هذا لا يدعونا إلى أن نئس، أو نلقي السلاح، أو تنكسر النفوس، لا، الله تعالى قال أيضاً في التعقيب على هذه الغزوة: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَإِنَّهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨]. لا بدّ أن نلوم أنفسنا ولكن لا نئس، فالعبرة بالعاقبة، والعاقبة للمتقين.

استفاد المسلمون من هذه المعركة دروساً كثيرة، حتّى إنّ النبي ﷺ في اليوم التالي للمعركة أمر المسلمين أن يتعقبوا المشركين، وقد أرسلوا إليهم من يخوفهم، وأنّ المشركين سيأتون إليهم ليستأصلوهم، ويبيدوا خضراءهم، فأمر النبي ﷺ ألا يخرج إلا من حضر المعركة بالأمس، حتّى الذين يثنون من جراحاتهم خرجوا أيضاً، هكذا قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤].

لم يوهن عزائمهم ما أصابهم في أحد، بل خرجوا في اليوم التالي يتتبعون المشركين؛ فيما سمى بغزوة حمراء الأسد، وبينوا لهم أنّهم لم يضعفوا، ولم يهنوا، ولم يستكينوا، وأنّهم لا يزالون - كما كانوا - أقوىاء

بالإيمان، أقوىاء بالإسلام، أعزاء بالله تبارك وتعالى، فلن يذلوا أبداً، ولن يضعفوا أبداً.

هذه أيُّها الإخوة بعض لمحات عن هذه الغزوة العظيمة؛ ما أحوجنا اليوم أن نتدبرها، وأن نقرأها في كتب السيرة بإمعان وتدبر، ونقرأها في التفسير، في تفسير الآيات التي نزلت فيها في سورة آل عمران؛ حتّى نأخذ منها العظة والعبرة في أيّام هي أيّام نكسات بالنسبة للمسلمين!

الإسلام باقٍ إلى قيام الساعة:

الإسلام يُهاجم في أماكن شتى، أعداؤه أجلبوا عليهم بخيلهم ورجلهم؛ يريدون أن يصيبوا مقتلاً من هذا الدين، فما أحوجنا أن نقرأ مثل هذه المعارك، ونعلم أنّها دورة من الدورات، وموجة من الموجات، لا يمكن أن تنتهي بهزيمة الإسلام وأهله، الإسلام باقٍ إلى أن يأذن الله بزوال هذا العالم، وكلمة الإسلام ظاهرة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

لا مانع أن يصيبنا ما يصيب النّاس، فسنن الله تعالى لا تحابي أحداً، ولا تلين لأحد، أنّها سنن صارمة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، قد ننكسر مرّة، ولكن الغلبة في النهاية لنا والعاقبة لنا، ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا آَنَ يُتِمَّ نُورَهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنّهُ هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

وداع الشيخ عبد الفتّاح أبو غدة:

في مثل هذه الأيام من شهر شوال من العام الماضي ودعنا عالمًا جليلاً، قدّر الله أن يموت في مدينة الرياض، وأن يُدفن في البقيع بجوار رسول الله ﷺ ومسجده الشريف، كان هذا العالم هو الداعية الكبير الشيخ مُحَمَّد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ.

ويشاء الله أنّا في مثل هذه الأيام أيضًا في شوال وفي مدينة الرياض ويُدفن في البقيع أيضًا نودع عالمًا كبيرًا من علماء هذه الأمة، وعلماء الأمة قليل، ذلكم العالم العلامة الداعية المحدث الفقيه هو الشيخ عبد الفتّاح أبو غدة رَحِمَهُ اللهُ وَغُفِرَ لَهُ.

كان الشيخ عبد الفتّاح أبو غدة من كبار علماء سوريا، شغل نفسه بالعلم، وتلمذ على كبار العلماء في عصرنا، طلب العلم في المدارس الشرعية في بلده حلب، ثمّ ذهب إلى الأزهر، وتلقّى علومه في كلية الشريعة على كبار المشايخ، مثل الشيخ الخضر حسين، والشيخ شلتوت وغيرهما، وحضر دروس الإمام حسن البنا في كل ثلاثاء، وعاش كثيرًا من الأئمّة الكبار، مثل الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام في تركيا، ووكيل المشيخة الشيخ مُحَمَّد زاهد الكوثري، ولازمهما مدة طويلة.

بعد ذلك ذهب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أستاذًا للحديث وعلومه، وللدراسات الإسلامية في جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية في الرياض،

وصار له في الرياض نحو ثلاثين سنة، ثم انتقل منها بعد ذلك لتدريس الثقافة الإسلامية في كلية التربية بجامعة الملك سعود.

حياة العلم والدعوة والتربية:

عاش الشيخ عبد الفتاح أبو غدة للعلم وللدعوة وللتربية، فقد كان من المحدثين الثقات، اشتغل بالحديث وعلومه ورجاله، وأخرج عددًا من الكتب حققها تحقيقًا متينًا، فقد تكوّن تكوينًا علميًا أصيلًا في الأزهر، وعلى العلماء الذين التقى بهم، كان قويًا في الحديث، قويًا في علم الفقه، قويًا في علم اللغة، فكان من المحدثين الثقات، وكان من الفقهاء الأثبات، وكان من الدعاة الأصلاء، وكان من المربين الأكفاء.

وقف الشيخ نفسه على الدعوة إلى الله تبارك وتعالى مع ورع وتقوى، يشهد بذلك كل من عاشره، وقد عاشته في أوقات كثيرة، ودعوته هنا في مركز بحوث السنة والسيرة في جامعة قطر نحو شهرين من الزمان، ولقيته في مؤتمرات وملتقيات، كان آخرها في هذا العام في مدينة قونية في تركيا.

كان الشيخ من العلماء الذين قلّ نظيرهم! إنّ طالبي العلم كثيرون، ولكن العلماء منهم قليلون، وإذا كان العلماء قليلين، فإنّ العاملين من العلماء أقل، وإنّ المخلصين من العاملين الذين تشهد لهم بالإخلاص والتجرد أقل وأقل، والمعلمون الدعاة من هؤلاء الذين نذروا حياتهم وأنفسهم للدعوة إلى الله لا يبالون ما يلاقون في سبيلها من أذى أقل وأقل وأقل، وكان الشيخ أبو غدة من هذا الأقل والأقل من القليل.

لقد لقي ربه إن شاء الله راضيًا مرضيًا، وترك وراءه ثروة من العلم، من الكتب والمؤلفات، معظمها في الحديث، وبعضها في التفسير،

وبعضها في الفقه، وبعضها في التاريخ، وبعضها في الأدب، ترك ثروة نافعة لكل من يقرأها ويدرسها.

فقد الأمة للعلماء:

المشكل ليس مشكل من مات، المشكل مشكلتنا نحن، في كل حين نودع عالمًا من العلماء لا يسدُّ مكانه أحد، وقد قال الإمام عليّ عليه السلام: «إِنَّ الْعَالَمَ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، وَإِذَا مَاتَ الْعَالَمُ انْثَلَمَتْ فِي الْإِسْلَامِ ثَلَمَةٌ لَا يَسِدُّهَا إِلَّا خَلْفٌ مِنْهُ»^(١). وأين نجد الخلف من هؤلاء الذين يذهبون؟

وقال بعض السلف: إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء، والطيور في الهواء، يُفقد وجهه، ولا يُنسى ذكره^(٢). وقال أحدهم: لموت قبيلة أيسر على الله من موت عالم. فموت العلماء مصيبة تصيب الأمة.

وقد نبهنا النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث الذي رواه الشيخان عن عبد الله بن عمرو أَنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا، فَأُتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(٣). رُءُوسُ جُهَالٍ يتصدرون مناصب الفتوى، ويفتون النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فيُضِلُّونَ ويُضِلُّونَ، هذا هو الخطر على الأمة.

وَدَعَا الشَّيْخَ الْغَزَالِي، وَوَدَعَا الشَّيْخَ جَادَ الْحَقَّ، وَوَدَعَا الشَّيْخَ عَبْدِ الْحَمِيدِ كَشْكَ، وَوَدَعَا الشَّيْخَ عَبْدِ الرَّشِيدِ صَقْرَ، وَوَدَعَا الشَّيْخَ

(١) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١٩٧/٢)، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الحرازي، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط ٢، ١٤٢١هـ.

(٢) إحياء علوم الدين (٨/١)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، كلاهما في العلم. عن عبد الله بن عمرو.

عبد الله بن زيد المحمود، ودعنا كثيرًا من العلماء خلال سنة واحدة، والآن نودع الشيخ عبد الفتاح أبا غُدَّة، رَحِمَهُ اللهُ وَغَفَرَ لَهُ، وتقبله في الصالحين، وكتبه في المحسنين، وجزاه عن أمته ودينه خير ما يجزي به العلماء العاملين والدعاة الصادقين، إن شاء الله سنصلي عليه صلاة الغائب بعد الفراغ من صلاة الجمعة.

دعوة للإنفاق:

أيُّها الإخوة، كنت قد حدَّثتكم في الجمعة الماضية عن أخوات لنا بعثْنَ يستنجدنني، يستصرخن أَلَّا ندعهم يقعن في الفتنة، قالوا: أنقذونا من الفتنة، نحن نتعرَّض إلى أن نبيع أعراضنا، ويتعرَّض أولادنا للضياع والتسوُّل في الشوارع. لا يجدون القوت، والحمد لله تجاوب الكثيرون مع هذه الدعوة.

وبعض الإخوة والأخوات سألوني: أيجوز أن ندفع لهؤلاء من الزكاة؟ قلت: نعم، يجوز أن تدفعوا لهم من الزكاة، ومن الصدقات العادية فوق الزكاة، ومن الصدقات الجارية، ومن وصايا الأموات، من كان له أب مات، أو أم ماتت، أو جد، أو أخ، وترك وصية فادفع من هذه الوصية، ويجوز أن تدفع من المال المشبوه أو من المال المحرم، من تجمع له مال من فوائد أو نحو ذلك لا يجوز له أن ينتفع به، لكن يجوز أن يُدفع لهؤلاء؛ لأن مصرفه هو الفقراء والمحتاجون، ولا نجد أفقر من هؤلاء الذين يتعرضون للفتنة والضياع من إخواننا وأخواتنا وأبنائنا وبناتنا المسلمات.

أَسْأَلُ الله ﷻ أَنْ يجعل يومنا خيرًا من أمسنا، وغدنا خيرًا من يومنا، وأن يحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأن يجيرنا من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة!

اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا!

اللهم هبّ لنا من أمرنا رشداً، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، يا حي يا قيوم برحمتك نستغيث!

اللهم أيد إخواننا المجاهدين في سبيلك حيثما كانوا من أرض الإسلام، وانصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اليهود الغادرين، والصليبيين الحاقدين، والوثنيين المتعصبين، والملاحدة الجاحدين، والطغاة الجبارين، وجميع أعدائك أعداء الدين!

اللهم أدلّ دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين!

اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً سخاء رخاء وسائر بلاد الإسلام!

اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبّت أقدامنا، وانصُرنا على القوم الكافرين.

* * *





غزوة الأحزاب (١)^(١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

أريد أن نعيش معاً في رحاب سيرة رسول الله ﷺ، هذا الرسول العظيم الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، وعلمه فأكمل تعليمه، وجعله خاتم الرسل والنبيين، بعثه بالرسالة العامة، الخالدة الشاملة الخاتمة، التي امتدت طويلاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

النبى ﷺ له سيرة شاملة:

هذا الرسول الكريم يتميز عن سائر الرُّسل، بأنَّ له سيرة جامعة شاملة حافلة، فيها متسع للأسوة، فيها مجال للقدوة في كل أمر من الأمور، ولكل شخص من الناس، لأنَّ هذا الرسول كانت حياته حياة حافلة، ليس

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٥م.

كسائر النبيين والمرسلين، فقد كان عزبًا ومتزوجًا، كان محكومًا وكان حاكمًا، كان فقيرًا وكان غنيًا، كان متزوجًا بواحدة ومتزوجًا بعدة زوجات، سالم وحارب، انتصر وانكسر، كل ألوان الحياة يجد الإنسان لها مكانًا ومجالًا في هذه السيرة؛ ليأخذ منها الأسوة، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

أهمية دراسة غزوات النبي ﷺ:

وسنختار اليوم من سيرة مُحَمَّد ﷺ نموذجًا من غزواته، فقد غزا ﷺ سبعا وعشرين غزوة شهدها بنفسه، إلى جوار بضع وخمسين سرية بعث فيها أصحابه ولم يشهدا بنفسه، كانت حياته حياة جهاد متصل، السنوات العشر التي قضاها في المدينة كانت جهادا داميا، وقتالا لجبهات الكفر والشرك واليهودية وغيرها.

ولذلك كانت مغازي النبي ﷺ هي أبرز المعالم في سيرته، حتى إن بعضهم يسمي السيرة (المغازي)، مثل مغازي ابن إسحاق: أي سيرة ابن إسحاق، ومغازي موسى بن عقبة: أي السيرة النبوية، وذلك لأن المغازي كانت أبرز شيء في حياة الجهاد؛ التي فرضت عليه وعلى أصحابه، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

لهذا كان علينا أن نقف عند هذه الغزوات، كما كان الصحابة يفعلون، روي عن زين العابدين أنه كان يقول: كنا نرؤي أبناءنا مغازي رسول الله ﷺ كما نحفظهم السورة من القرآن^(١). يجلس إلى أبنائه

(١) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٥٩١).

وأولاده وأحفاده يُعلّمهم السيرة، بدل أن يحكي لهم قصصًا خرافية، أو حواديت لا تغني عن الحق شيئًا: يحكي لهم سيرة رسول الله وسيرة أصحابه، والبطولات الفارعة، والتضحيات الهائلة التي قدّمها الرسول الكريم وأصحابه.

وما أحوجنا نحن أن نفعل ذلك لتعلّم ونُعلّم أجيالنا: أن هذا الإسلام العظيم الذي نتفياً ظلاله، ونعيش في رحابه، ونستمتع بخيراته، هذا الإسلام العظيم لم يأتنا عفواً صفواً، لم يأتنا غنيمة باردة، بل أزهقت فيه أرواح، وسالت فيه دماء، وقُدّمت فيه تضحيات جسام.

مرحلة الابتلاء بمكة:

لا بدّ أن نعلم هذا، أنّ المسلمين في مكّة قضوا ثلاثة عشر عاماً يعانون العذاب، ويحتملون الأذى والاضطهاد، ويُفتنون عن دينهم، وقُتل من قُتل منهم تحت العذاب، وأنّ المسلمين ظلوا عشر سنوات في المدينة يُقدّم كل بيت منهم شهيداً أو أكثر، يخرجون من غزوة إلى غزوة إلى سرية وهكذا، لا بدّ أن نُعلّم أبناءنا السيرة؛ حتّى يعلموا أنّ الإسلام إنّما جاءنا بعد تضحيات جسام، بذل فيها الأبطال ما بذلوا، ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وجوب تذكر نعم الله تعالى، وأيام الله:

نقف اليوم عند غزوة وقعت في شهر شوال، ونحن في شهر شوال، وقعت في السنة الخامسة من الهجرة، هذه الغزوة التي تُسمّى في السيرة (غزوة الخندق) أو (غزوة الأحزاب)، وفيها نزلت سبع عشرة آية من

سورة الأحزاب، يقول الله تعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

من أهداف الإسلام، ومن توجيهات القرآن أن يذكر الناس نعم الله عليهم، وأن يذكروا أيام الله التي نصر فيها عباده المؤمنين مع قتلهم وضعفهم، على الكافرين مع كثرتهم وقوتهم، وكم في القرآن من كلمة (اذكروا)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ١١]، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخطفْكُمْ النَّاسُ فَأَوْنَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال: ٢٦]، من حقنا - بل من واجبنا - أن نذكر نعم الله تعالى، ونذكر أيام الله.

دور اليهود في كل مصيبة تحيط بالمسلمين:

ومن أيام الله يوم الأحزاب، يوم الخندق، هذه المعركة العظيمة التي كان لليهود دور أساسي في إشعال نارها. فتش عن اليهود في كثير مما يصيب المسلمين، حينما أخرج النبي ﷺ اليهود من المدينة، بعد أن فجروا وفعلوا ما فعلوا، نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ.

حينما قدم رسول الله إلى المدينة، قدم بقلب مفتوح، أراد أن يقيم اتفاقية بين كل الساكنين في المدينة وضواحيها، ومنهم اليهود، وأقام معهم معاهدة معروفة كُتبت في الصحيفة، التي تُعتبر بمثابة دستور مؤقت لهذه الجماعة التي تعيش في المدينة، بطوائفها المختلفة، ولكن اليهود لم يحترموا العهد، نقض بنو قينقاع العهد أولاً، ثم نقض بنو النضير العهد ثانياً، واتفق النبي معهم على أن يغادروا المدينة.

لكن بني النضير لم يهدأ لهم روع، ولم يسكن لهم قلب؛ حتّى ينتقموا من رسول الله ﷺ والمسلمين معه، فذهب حيي بن أخطب زعيم بني النضير - ومعه أربعة من كبار اليهود - إلى مكّة؛ ليؤلّبوا المشركين على رسول الله ﷺ.

وكانت عند اليهود فكرة واضحة: أنّ الوثنيين إذا حاربوا رسول الله ﷺ - كل قبيلة وحدها - لا يمكن أن ينتصروا على مُحَمَّد وأصحابه، لا بدّ أن يقوم هناك حلف قوي من الوثنيين، تتجمّع فيه العرب بعضها مع بعض، ثمّ يهاجموا الرسول ﷺ في عقر داره، هذا الحلف الكبير المعصّد بالقوى والأسلحة يهاجم المدينة.

كانت هذه فكرة اليهود، فذهب حِيّ بن أخطب وصحبه إلى قريش يقولون لهم: إنّ غزوة أحد لم تفت في عضد مُحَمَّد وأصحابه، ولا زالوا أقوياء، ويمكن أن يهاجموكم بعد حين؛ فلا بدّ أن (تتغدوا بهم) قبل أن (يتعشوا بكم)، ونحن معكم نعاونكم على استئصال شأفته، وإبادته إبادة كاملة.

اليهود وشهادة الزور:

فسألهم مشركو قريش سؤالاً بريئاً، قالوا: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأوّل، نحن نسألکم: أديننا خير أم دين محمد؟ وهنا شهد اليهود شهادة زور، زيّفوا فيها الحقائق، وقالوا غير الحق، قالوا: بل دينكم خير من دين مُحَمَّد، وأنتم أولى بالحق منه^(١)! تصوروا الوثنيّة في نظر اليهود خير من التوحيد، الذين يعبدون الحجارّة خير من الذين

(١) السيرة النبويّة لابن هشام (٢/٢١٣، ٢١٤).

يعبدون الله، الذي دعا إلى عبادته موسى والأنبياء بعده، هكذا شهد اليهود بهذا الإفك، وفي هذا نزل القرآن الكريم يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

تحريض قبائل العرب على المسلمين:

وما زال اليهود وراء زعماء قريش: أبي سفيان ومن حوله، حتى أقنعوه بأن يحارب محمدًا في عقر داره، وقالوا: سنذهب إلى غطفان: بني فزارة، وبني مرة، وإلى بني أشجع وإلى هذه القبائل، حتى نجعلهم معكم، تكونون صفًا واحدًا في غزو محمد في عقر داره^(١).

وانطلقوا من مكة ليذهبوا إلى زعماء القبائل الطامعين في بواديهم، وأقنعوهم بأن ينضموا إلى قريش، وأن محمدًا لا يمكن أن يصمد أمام هذه القوى الهائلة الزاحفة، وأن لكم ثلث ثمار خيبر، فسأل لعاب الزعماء إلى خيبر وما فيها من نخيل وأعناب وتمور، واستجاب لهم الزعماء من أمثال عيينة بن حصن الفزاري، وحارث بن عوف المُرِّي، وغيرهما من زعماء قبائل العرب^(٢).

واتفق هؤلاء أن يعدوا العدة، ويأخذوا الأهبة، ويسيروا زاحفين إلى المدينة لغزو الرسول وأصحابه، وأطمعهم اليهود أيضًا؛ بأننا نحن اليهود سنكون معكم، نحن في خيبر، وبنو قريظة في قلب المدينة سنكون

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢١٥).

(٢) المصدر السابق.

جميعاً معكم، هنا اقتنع القوم بالزحف على المدينة، في هذه الجموع التي بلغت نحو عشرة آلاف مقاتل من المشركين، المتحمسين لعبادة الأصنام، الذين يريدون أن ينصروا الحجر على ربّ البشر^(١)!

مشاورة النبي أصحابه:

وبلغ النبي ﷺ وأصحابه ما أعدت قريش وغطفان وأحابيشهما وأتباعهما، لحربه ﷺ وأصحابه، وكان لا بدّ للنبي ﷺ - كما هي سنته دائماً - أن يجمع أصحابه ويشاورهم في الأمر، كما قال الله تعالى له بعد غزوة أحد: ﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فكان لا بدّ أن يشاور أصحابه، وكما ذكرت كتب السنة: كان ﷺ أكثر الناس مشاورة لأصحابه^(٢). شاورهم في كلّ الغزوات، شاورهم في بدر^(٣)، وشاورهم في أحد^(٤)، وشاورهم في هذه الغزوة أكثر من مرة.

وليس وراء المشورة والاستشارة إلا الخير دائماً؛ فإنّ من شاور الرجال شاركهم في عقولهم، رأي الجماعة دائماً خير من رأي الفرد، إذا استشرت الجماعة، استثرت ما عندهم من فكر، أعمل كلّ منهم عقله، فقد يقترح أحدهم شيئاً لا يخطر ببال الآخرين.

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦٦/٢)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٦٨م.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٤٤٥/٢)، تحقيق مارسدن جونس، نشر دار الأعلمي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، والسيرة النبوية لابن هشام (٦١٥/١).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٦١٥/١).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٦٣/٢).

مشورة سلمان الفارسي وقبول النبي لها:

وفي هذه الغزوة كانت المشورة الحسنة الجيدة الصائبة، من سيّدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه، فقد أشار على النبي صلى الله عليه وآله بمشورة لم يكن العرب يعرفونها، العرب يعرفون المواجهات المكشوفة وجهاً لوجه، أمّا أساليب الحيل ونحوها فلا يعرفونها، قال له سلمان: يا رسول الله، إنّنا كنا في فارس إذا أحاط بنا عدو لا نستطيع أن نقاومه وجهاً لوجه: حفرنا خندقاً نحتمي به أنفسنا من اقتحام الأعداء، وأرى أن نحفر خندقاً حول المناطق المكشوفة في شمال المدينة. هناك في الشرق والغرب ما يُعرف باسم (الحرّة) المناطق الصلبة الشديدة؛ كأنها سكاكين لا يستطيع أحد أن يقتحمها، هذه حمى طبيعي إلهي للمدينة، وهناك مناطق مُغطاة بالنخيل الكثيف، ومناطق أخرى مغطاة بالبيوت المتلاصقة التي تُكوّن حصناً، وهناك منطقة مكشوفة في الشمال، قال: هذه نحفر فيها خندقاً، نجعل ظهورنا إلى جبل سلع، ونحفر الخندق ^(١).

وأعجبت الفكرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنّما يستشير ليستنير، ليستفيد من الآراء، ليستفيد من عقول أصحابه، ولم يكن عليه السلام جامداً ولا متحجّراً، لم يقل: هذه من أساليب الفرس ونحن عرب، ما لنا وللفرس. لا، «الحكمة ضالة المؤمن، أُنّي وجدها فهو أحقُّ بها» ^(٢)، نحن نقف عند عقائدنا وأصولنا وقيمنا وأخلاقيّاتنا، أمّا الوسائل والآليّات والكيفيّات؛ فنحن نأخذها من أيّ وعاء خرجت، ومن أيّ طريق جاءت، ولذلك رحّب النبي صلى الله عليه وآله بالفكرة.

(١) انظر: مغازي الواقدي (٤٤٥/٢، ٤٤٦).

(٢) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧)، وقال: حديث غريب، لا نعرفه إلّا من هذا الوجه. وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩)، وقال الألباني في ضعيف الترمذي (٥٠٦): ضعيف جداً. عن أبي هريرة. ولكن معناه صحيح بالإجماع.

التعجيل بحفر الخندق:

كيف يحفرون هذا الخندق؟ وزّع النبي ﷺ العمل على أصحابه، كل جماعة يأخذون قطعة يحفرونها، كانت المسافة اثنا عشر ألف ذراعاً، فوزّعها كل عشرة يحفرون أربعين ذراعاً، وابتدأ الصحابة الحفر، ولا بدّ أن يُعَجَّلُوا بالحفر قبل أن يصل المشركون، فقد تحرّكوا من مكّة وما حولها، فلا بدّ من الإسراع؛ ولذلك بادر الصحابة يعملون بكلّ جهدهم: بكّد يمينهم، وعرق جبينهم، يحفرون الأرض ويحملون التراب، والنبي ﷺ يشارك معهم، لا يقف كالزعماء الذين يمثلون أنّهم يعملون، لا، بل كان معهم يضرب بالمعول، ثمّ يحمل التراب حتّى غطّى غبار التراب بدنه وصدره وثيابه، فعزّ ذلك على بعض الصحابة، وكان بعضهم يتكاسل؛ فلما رأى النبي ﷺ يتحمل عناء العمل معهم قال:

لئن قعدنا والنبيّ يعملُ لذاك ممّا العملُ المضلُّ^(١)

وكان النبي يعمل، ويرى الأنصار وهم يعملون من غير كلل ولا ملل؛ فيقول:

«اللهم إنّ العيشَ عيشُ الآخرة فاغفرُ للأنصارِ والمهاجرة»

والصحابه يُردّدون:

نحن الذين بايعوا محمّداً على الجهادِ ما بقينا أبداً^(٢)

وينشد النبي ﷺ، وينشد معه أصحابه، كما نرى الفعلة ينشدون ويخفّفون عن أنفسهم بالأناشيد، وكان نشيده ذكرًا لله تعالى، يقول:

(١) سيرة ابن هشام (٤٩٦/١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٣٤)، ومسلم (١٨٠٥)، كلاهما في الجهاد والسير، عن أنس.

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبينا^(١)

والصحابه يقولون: صلينا، لاقينا، أبينا. ويردّون عليه!

كانت هذه الكتلة المؤمنة من البشر تعمل باستمرار، يكادون يعملون في الليل والنهار؛ حتى ينجزوا هذه المهمة في أقرب وقت، وكان المنافقون يحاولون أن يتهربوا بدعاوى شتى، يتسللون لواداً: خفية من وراء رسول الله، لا يستأذنونهم. أمّا الصحابة، فكان أحدهم إذا أراد أن يقضي حاجة، لا يذهب حتى يستأذن رسول الله ﷺ، فهذا شأن الجماعة المؤمنة المنظمة، تحترم قيادتها وتحترم نظامها.

وهذا ما وصف الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢]. أي: من واجبهم أن يستأذنوا، وليس من الضروري أن يؤذن لهم، يأذن لمن شاء منهم، وبعد ذلك يستغفر لهم الله، ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ [النور: ٦٣]، إذا دعاكم إلى شأن من الشؤون، لا تجعلوه ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣]، يخرجون في خفية ويذهبون إلى بيوتهم، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٣٧)، ومسلم (١٨٠٣)، كلاهما في الجهاد والسير، عن البراء.

آيات وعبر ودروس في حفر الخندق:

في حفر الخندق ظهرت آيات وعبر ودروس، كان بعض الصحابة يحفر، فتقابل به صخرات تستعصي على التفيت، فقال: يا رسول الله، أمامي صخرة لم تجد فيها المعاول ولا الفؤوس. فذهب النبي ﷺ، وأخذ المعول وضربها باسم الله، فانطلقت منها شرارة تبرق وتفتت جزء منها، ثم ضربها ضربة ثانية انطلقت منها شرارة أضاءت، ثم ضربها الضربة الثالثة فتفتت الصخرة، فقال له سلمان: يا رسول الله، لقد رأيت ما أضاءت هذه الشرارة فأني شيء هذا؟ قال: «الضربة الأولى أضاءت لي مدائن كسرى وما حولها». قالوا: يا رسول الله، ادع الله أن يفتحها علينا. قال: «سيفتحها الله عليكم، وسترثون كنوز كسرى، وأمّا الضربة الثانية فأضاءت لي مدائن قيصر وما حولها، سيفتحها الله عليكم، والضربة الثالثة، أضاءت لي مدائن الحبشة سيفتحها الله عليكم». وفي بعض الروايات: «أضاءت لي صنعاء وما حولها»^(١). كل هذه سيفتحها الله عليكم.

أراد النبي ﷺ أن يملأ القلوب ثقةً بالله وثقةً بالنصر؛ لأنّ الوقت رهيب، والزمان عصيب، والبرد شديد، والجوع أشد؛ حتّى إنّ منهم من كان يضع الحجر على بطنه من شدة الجوع، وكان النبي ﷺ يريد أن يمتلئوا يقيناً بأنّ الغد لهم، وأنّ المستقبل لهذا الدين، وأنّ هذه الدعوة منصورّة بإذن الله، مهما تحيط بها الشدائد، ومهما يتكالب عليها المتكالبون.

كان حفر الخندق مشتملاً على هذه الآيات المبشّرة، وخرج المسلمون منه بحمد الله، وقد أكملوا المهمة في نحو ستّة أيّام، مدة قياسية، ولكن بالهمم إذا تضافرت، وبقوة العزائم، وبالإيمان الذي يحفّز

(١) انظر: تاريخ الطبري (٥٦٩/٢)، نشر دار التراث، بيروت، ط ٢، ١٣٨٧هـ.

النَّاس على العمل: استطاع المسلمون أن ينجزوا هذه المهمة في هذا الوقت القصير، لو كان غيرهم ربما استغرقوا شهورًا ولا يؤدون ذلك.

غدر بني قُرَيْظَةَ بالمسلمين:

وقبل أن يأتي الغازون المهاجمون بلغ المسلمين نبأ عكّر عليهم صفوهم، وكَدَّر عليهم أمرهم، هذا الأمر هو ما بلغهم من غدر بني قُرَيْظَةَ بهم، فالمعاهدة التي بينهم وبين رسول الله توجب عليهم أن يتكافلوا في السلم، ويتناصروا في الحرب، إذا غزا المدينة غازٍ، وجب على جميع أهلها من المسلمين واليهود أن يقفوا صفًا واحدًا للدفاع عنها، وأن يمدَّ اليهود الرسول وأصحابه بما يحتاجون إليه، من خيل ومن سلاح ومن مال، هذا ما توجبه الاتفاقية، وما يوجبه العهد الذي أخذه عليهم رسول الله ﷺ، ولكن اليهود نقضوا هذا العهد، نقضوه في ساعة الشدة وساعة الحاجة: الحاجة الماسّة، والحاجة الشديدة.

كان زعيم بني قُرَيْظَةَ كعب بن أسد، وكان الرجل في أوّل الأمر مصرًّا على أن يفِي لرسول الله بعهده، وحينما بلغه أن قريشًا وغطفان قادمون إلى المدينة دخل حصنه وأغلق على من فيه وقال: نفي لمُحَمَّد بما عهد إلينا؛ لم نر للرجل إلّا وفاء وصدقًا^(١).

ولكن الثعبان الأزرق، الرجل الداهية الذي هو وراء هذا الشر كله: حُيي بن أخطب سيد بني النضير، ذهب إلى كعب بن أسد، وناداه من خارج الحصن: يا كعب، افتح لي. فلم يرد عليه، فظل يناديه حتّى ردَّ عليه، فقال له: لقد جئتكَ بعزِّ الدهر، جئتكَ بقريش وغطفان ومن

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٢٠).

حولهم؛ لنقضي على مُحَمَّد ونستريح منه. فقال له: ما جئتني إلا بذل الدهر، جئتني بسحاب جهام يبرق ويرعد، ولا ماء فيه ولا مطر، اذهب عني، أنت رجل مشؤوم. فقال له: افتح لي. قال: لا أفتح لك.

قال: إِنَّكَ لا تريد أن تفتح لي لأنَّك بخيل، لا تريد أن أشاركك في طعمتك. فأحفظه وأحماءه ففتح له، فظل يفتل له في الذروة والغارب، ويشرح له أَنَّ مُحَمَّدًا مقضي عليه لا محالة، كيف يقف مُحَمَّد أمام هذه الجموع الهائلة إذا كنا معه؟ هم أتوا من الخارج ونحن من الداخل، كيف يستطيع مُحَمَّد أن يقاوم هذا كله؟ لا تضع هذه الفرصة؟ ولك عليّ إذا رجعت قريش وغطفان أن آتي فادخل معك الحصن ليصيبني ما أصابك^(١).

ويبدو أَنَّ كعب بن أسد لم يكن يؤمن بقيمة أَنَّ الغدر رذيلة، وأنَّ الوفاء فضيلة، وأنَّ الدين يفرض على أصحابه أن يفوا بعهودهم، هكذا جاءت بذلك كل الأديان، وغلب على اليهود طبعهم في نقض العهود، ونكث الوعود للأسف الشديد، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُونَ *﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦]، ﴿أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ *﴾ [البقرة: ١٠٠]. غلب على اليهود طبعهم وتاريخهم، ونقضوا عهد رسول الله ﷺ.

محاولة سعد بن معاذ إثناء اليهود عن غدرهم:

ولمَّا بلغ الرسول ذلك أرسل إليهم من يستشف الخبر ويستكشف الأمر، بعث إليهم من كانوا حلفاءهم في الجاهلية: الأوس، وبعث إليهم سيد الأوس: سعد بن معاذ، فحينما ذهب إليهم هؤلاء: وفود رسول الله ﷺ لم

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٢١).

يروا إلا الشر يقدر في أعينهم، لم يسمعوا منهم إلا الكلمات النابية، حتى حينما قيل لهم: أنقضتم عهد رسول الله؟ أنسيتم ما بينكم وبين رسول الله؟ قالوا: من رسول الله؟ ليس بيننا وبين مُحَمَّدٍ شيء. وقالوا كلامًا قبيحًا^(١).

حاول سعد بن معاذ بما كان له من علائق قديمة بينهم: أن يؤثر فيهم؛ فلم يسمعوا له، فعاد الصحابة وأعلموا رسول الله ﷺ أن القوم على شرِّ حال، وحزن رسول الله ﷺ، وأقلقه هذا الأمر: أن ينتظر العون من جهة؛ فيأتيه الغدر منها، وهؤلاء ليسوا عدوًّا خارج الدار، إنهم عدو داخل الدار، إن العدو إذا كان من خارج الدار يمكنك أن تحتمي منه بوسيلة أو بأخرى، أمّا إذا كان داخل الدار فهذه هي المصيبة.

لو أن هؤلاء القريظيين فتحوا أبوابهم للقادمين الغزاة ليدخلوا من طريقهم إلى المدينة: لكانت الطامة الكبرى، ولذلك اضطجع رسول الله ﷺ مهمومًا مغمومًا، يفكر فيما يفعل، وأهم ذلك المسلمين حينما رأوا قلق رسول الله ﷺ، ولم يعهدوه مثل ذلك.

ثم خرج رسول الله ﷺ إليهم مستبشرًا بعد اضطجاعه وقال: «أبشروا وأملوا بنصر الله ﷻ»^(٢). إنّه رأى من هذا الغدر أن الله لا بد أن يخذل هؤلاء الغادرين، لا يمكن أن ينتصر غادر ناكث، الله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنُكْثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]. فهؤلاء نكثوا ومكروا وبغوا ونقضوا؛ فلا يمكن أن ينصرهم الله، قال للمسلمين: «أبشروا بالنصر إن شاء الله». فاستبشر المسلمون، واستيقنوا أن نصر الله آتٍ لا ريب فيه.

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٢٢).

(٢) المصدر السابق.

حصار المشركين واليهود للمدينة:

ولكن الأمر اشتدَّ على المسلمين؛ وقد جاء المشركون في عشرة آلاف مقاتل، يحاصرونهم كما يحاصر السوار المعصم، حاصروهم ما يقارب الشهر حصارًا شديدًا، والأقوات تتناقص يومًا بعد يوم، والجوع شديد، والبرد أشد، كل هذا والمنافقون قد ظهر نفاقهم، يتندرون على المسلمين.

هكذا اشتد الحال بالمسلمين، وكان كما وصف الله سبحانه في كتابه وصوّر هذه الحالة النفسية التصوير البليغ الرائع حينما يقول: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: ١٠، ١١].

انظر إلى هذا الوصف: ﴿زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾. كأن القلب يقفز من مكانه، ويكاد يبلغ الحنجرة، يترك مكانه من شدة الخوف، من شدة الرعب، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾، الإنسان في حالة من الحالات يمكن أن ينتهي به الضعف إلى أن يظن بالله الظنون، كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ [يوسف: ١١٠]. حتى الرسل يستيئون في بعض الأحيان، لكنها لحظات ثم تنتهي، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. مسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ: الفقر والعسر والضيق في أموالهم، ومَسَّتْهُمُ الضَّرَاءُ: الجراحات والعذاب والأذى في أبدانهم، وأصابتهم الزلزلة والاضطراب في نفوسهم، كما قال هنا: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

كان بلاءً أيّ بلاء، وزلزالاً أيّ زلزال. كلمة الزلزال معناها الحركة الشديدة العنيفة، فإذا قال: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا﴾. كان هذا تأكيداً، فإذا كان ﴿زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، فكيف يكون هذا الزلزال؟ وصف القرآن يوحى إلينا أنّ الأمر كان جد خطير.

ابتلاء للمؤمنين وإظهار للمنافقين:

أراد الله أن يتلي المؤمنين بهذا كله، وهنالك ظهر النفاق واضحاً جلياً، كان المنافقون يخفون نفاقهم ولا يكشفونه للناس، ولكن بعد أن رأوا ما رأوا، أصبحوا يتبجحون علناً بنفاقهم، كأنهم ظنوا أن هذه هي نهاية مُحَمَّد وأصحابه، كما ظنّ اليهود الذين غدروا كذلك، ولذلك كان بعضهم يقول: إنّ محمداً كان يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن أن يذهب إلى الغائط. إذا أراد أن يقضي حاجته يخاف أن يذهب لقضائها، وهذا ما سجله القرآن: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]^(١). الوعود بكنوز كسرى وممالك قيصر، وفتح الحبشة واليمن: هي وعود غرور، يكذبون الله ورسوله فيما وعدا به!

وبعضهم كانوا يقولون: إنّ بيوتنا عورة، بيوتنا مكشوفة في المدينة، ائذن لنا يا رسول الله لنذهب لنحتمي بيوتنا، ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، ارجعوا إلى مدائنكم وبيوتكم؛ فلا فائدة من الوقوف أمام هذا الزحف الهائل، كان هذا شأن المنافقين.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٥٢٢/١).

ثبات المؤمنين عند المحن:

ولكن المؤمنين الذين ابتلوا وزلزلوا زلزالاً شديداً: سرعان ما استردوا يقينهم، سرعان ما استرجعوا إيمانهم بالله، واستذكروا الوعود التي جاءت في كتاب الله بنصر المؤمنين، ونصر الحق على الباطل، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، والآيات الكثيرة، والوعود والمبشرات النبوية، استذكروا هذا فجعلهم يقفون في ثبات الجبال، لا يتزعزعون ولا يتزلزلون، وهذا ما قصه القرآن علينا حين قال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. لما رأوا هذه الأحزاب المتجمعة من أهل الشرك قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. وعدنا الله ورسوله أنه لا بد أن يلتقي الإيمان بالكفر، والتوحيد بالشرك، والإسلام بالجاهلية، هذا لا بد منه، لا بد من لقاء الحق بالباطل، ولا بد من الصدام والصراع.

إن ينصركم الله فلا غالب لكم:

ولكن الله وعدنا مع هذا بالنصر، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصْرُوا اللَّهَ فَيُنْصِرْكُم وَيُخْلِفْ أَعْدَاءُكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّن بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾، ما زادهم هذا الذي رأوه من الحشود والجموع إلا إيماناً بالله وتسليماً بقضائه وقدره، لم يفت ذلك في عضدهم، ولم يكسر من شوكتهم، ولم يطفئ من جذوتهم، لا، بل زادهم إيماناً وتسليماً.

المؤمن لا تزيده المحن إلا قوة:

وهذا هو شأن المؤمنين دائماً، المؤمن لا تزيده المحن إلا قوة في يقينه، وثباتاً في إيمانه، إنه كالذهب الأصيل، يدخل النار فلا يزداد إلا صفاء ولمعاناً، كما قال الله تعالى في شأن المؤمنين بعد أحد: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ * فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿[آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]. هكذا يزداد المؤمنون إيماناً بالشدائد، الشدائد والمحن والمصائب والابتلاءات: لا تزيدهم إلا إيماناً ويقيناً، هذا هو شأن المؤمنين.

هذه الغزوة أيها الإخوة فيها من العبر والدروس ما فيها، ولن نستطيع أن نتم أحداثها اليوم فرجئ تكملة الحديث عنها إلى الخطبة المقبلة حتى نوفيها حقها إن شاء الله.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يُفَقِّهَنَا في ديننا، وأن ينير بصائرنا، وأن يجعل رسوله أسوة لنا، وأن يجعلنا مِمَّنْ اقتدى به فاهتدى، اللهم آمين.

أقول قولي هذا أيها الإخوة، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.





الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

تهديد جورج بوش بقصف قناة الجزيرة:

لا زلنا نعيش ويعيش العالم معنا، في صدى ما نشرته الصحيفة البريطانية؛ من رسالة كتبها رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، إلى حليفه الرئيس الأمريكي جورج بوش، هذه الرسالة تتضمّن تحذيرًا لبوش من أن يُنفذ ما صمّم عليه من ضرب قناة (الجزيرة) ومكاتبها؛ ليتخلص منها ومن شرورها، التي أقلقته وأزعجته.

في الحقيقة لا أكاد أصدق ما أسمع، أهذا بوش الذي أعلن حربًا كونيّة لينقذ العالم من الديكتاتورية، ويقيم حياة الحرية والديمقراطية، التي يُعبر فيها كل إنسان عن نفسه، ويعلن كل إنسان عن رأيه؟ ما الذي يقلقك يا سيد بوش من الجزيرة؟ أنّها قناة الرأي والرأي الآخر، ما الذي يزعجك في أن يعلن الناس آراءهم بكلّ حرية؟

أين الديمقراطية التي تدعو إليها؟ وأين الحرية التي تزعم أنّك تقاتل من أجلها، وتصرف عشرات المليارات من أجل تحقيقها في العالم؟ تبين أنّ هذه مجرد دعوى، دعوى الحرص على الحرية، والغيرة على الديمقراطية، والقتال من أجل حقوق الإنسان، ومن أجل أن يعلن كل إنسان عن رأيه، تبين أنّها أكذوبة ليس لها حقيقة في الواقع.

والذي يجعلنا نصدّق ما أشيع من هذا، وما نشر بشأنه أنّ لأمريكا سوابق في هذا، فقد ضربت مكتب الجزيرة في كابل، وضربت مكتب

الجزيرة في بغداد، وقتلت أحد مراسلي القناة الأخ طارق أيوب رحمه الله، فليس بعيداً أن تفعل ما تفعل.

نستغرب أليس حكام قطر أصدقاء لكم؟ أليس لكم قاعدة قريبة في قطر؟ كيف تضربون بلداً فيه قاعدة عسكرية لكم؟ أهؤلاء الناس يفكرون بعقول نيرة أم بعقول مظلمة، أم يتبعون أهواءهم؟ حينما يتبع الإنسان الهوى يفقد عقله كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

إنّ مزية قناة الجزيرة أنّها تتيح للآراء المختلفة أن تظهر وتترأى، وتتناقش ويرد بعضها على بعض، قبل الجزيرة كان هناك رأي واحد يسود ولا يسمع الناس الرأي الآخر: الرأي المعارض، ولكن في الجزيرة أصبحنا نرى الآراء المتعارضة في أكثر من برنامج، وهذه ميزة عظيمة تُحسب لقطر وحكومة قطر في ميزانها عند الله وعند الناس، أنّها كشفت المستور ممّا يحاول الناس أن يخبئوه، ويحاول الحكام أن يخفوه، ولا يريدونه أن يظهر للبشر

ولذلك نرى كثيرين يشكون من قناة الجزيرة؛ لأنّها كشفت أوراقهم، وهتكت سترهم، لأنّها كشفت سرّهم، وفضحت أمرهم، فهم لا يحبون الجزيرة، ويعتبون على قطر من هذه الجزيرة، وهذا الذي يشكون منه ويحسبونه على أهل قطر، وأنّه من ذنوب قطر ومن أوزار قطر، نحن نقول: بالعكس هذه القناة من محاسن قطر. وننشد ما قاله البحري:

إِذَا مَحَاسِنِي اللَّاتِي أُدِلُّ بِهَا كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي: كَيْفَ أَعْتَذِرُ^(١)؟

(١) ديوان البحري (٩٥٤/٢)، تحقيق حسن كامل الصيرفي، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٣.

ما يشكونه من قطر هو ما نحمده من قطر، هو ما نحمده من هذه الجزيرة، نحن نريد الحرية، وهذه هي الحرية التي تزعم أمريكا أنها تقاتل من أجلها.

إنما تريد أمريكا الحرية التي تخدمها، لا تريد الحرية لذات الحرية، الحرية المطلقة، حينما تريد الحرية فهي تريد حرية تخدم أهدافها، تخدم مصالحها، تخدم مطامعها، وما عدا ذلك فهي تحاربه.

وهذا ليس من الإنصاف في شيء، وليس من العدل في شيء، وليس من القيم الأخلاقية في شيء، ينبغي للإنسان أن يحترم الحق من حيث هو حق، وأن يكون مع الحق سواء كان له أم عليه؛ كما علمنا القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وفي آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. أي لا يحملنكم شدة بغضكم لقوم - أو بغضهم لكم - على أن لا تعدلوا، ﴿ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، العدل مطلوب من الإنسان المسلم؛ سواء كان مع من يحب أو مع من يكره، العدل هو العدل، العدل هو كلمة الله، العدل هو الذي ينصر الله أهله دائماً.

نسأل الله وَجَلَّ أَنْ يُهَيِّئَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا، وأن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى، اللهم أكرمنا ولا تهنأ، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، اللهم انصر إخواننا المجاهدين في سبيلك حيثما كانوا: في فلسطين، في العراق، في أفغانستان، في الشيشان، في



كل مكان، اللهم سدّد رميتهم، وقوّ شوكتهم، واجمع على الحق كلمتهم،
 اللهم افتح لهم فتحًا مبينًا، واهدهم صراطًا مستقيمًا، وانصُرهم نصرًا
 عزيزًا، وأتمّ عليهم نعمتك، وأنزل في قلوبهم سكينتك، وانشر عليهم
 فضلك ورحمتك، اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم عليك بمن
 يكيد للمسلمين، اللهم عليك بمن يمكر بالمسلمين، اللهم عليك بمن
 يضمّر الشر للمسلمين، اللهم عليك باليهود، وحلفاء اليهود الغاصبين
 المعتدين الغادرين، اللهم إنّنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من
 شرورهم، اللهم ردّ عنا كيدهم، وفلّ حدّهم، وأذهب عن أرضك
 سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين، اللهم
 يا منزل الكتاب، ويا مُجْري السحاب، ويا سريع الحساب، ويا هازم
 الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم، اللهم
 اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا
 في الأمور كلّها، وأجرنا من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، اللهم ارفع
 مقتك وغضبك عنا، ولا تهلكننا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلّط علينا
 بذنوبنا مَنْ لا يخافك ولا يرحمنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، واجعل
 هذا البلد آمنًا مطمئنًا، سقاء رخاءً وسائر بلاد المسلمين، ربنا اغفر لنا
 ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا؛
 ربنا إنّك رؤوف رحيم.

غزوة الأحزاب (٢) (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

بدأنا في الخطبة الماضية بالحديث عن سيرة مُحَمَّد ﷺ، وهي خير سيرة لخير بشر، وتحدّثنا من هذه السيرة عن جانب الغزوات، وهو الجانب الذي عبّر عنه بعض المؤلفين فسَمّى السيرة (المغازي)، مثل مغازي ابن إسحاق، وهي سيرة ابن هشام، فقد كانت حياة النبي ﷺ في المدينة غزوات وسرايا، وتضحيات وصراعًا مسلحًا، قدّمت فيه بيوت المدينة شهداء وراء شهداء.

وتحدّثنا من هذه الغزوات عن غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق، وهذه هي الغزوة التي صمّم فيها المشركون من قريش وأحباشهم، ومن غطفان، ومن يتبعها من قبائل البدو في عشرة آلاف مقاتل أو أكثر، زحفوا على المدينة؛ ليس لهم إلّا غرض واحد، وهمّ واحد: هو أن يبيدوا المسلمين، أن يستأصلوا شأفة هذا الدين الجديد من جذوره، وألا يبقوا له من باقية، وألا يبقى أحد يعبد الله وحده ويقول: لا إله إلّا

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٢ ديسمبر ٢٠٠٥م.

الله. كان هذا هو الهدف المعلن، والهدف الظاهر، والهدف الباطن من هذه الغزوة الكبرى.

وزاد الأمر شدة أن هؤلاء الغزاة من الوثنيين المشركين، انضم إليهم اليهود، يهود بني قريظة الذين بقوا في المدينة، وكانوا قد فعلوا مع رسول الله ﷺ ما يستوجب العقوبة حينما حالفوا بني النضير على النبي ﷺ، ولكن الرسول ﷺ كان قد عفا عنهم وأبقاهم في المدينة، ومع هذا أبت عليهم طبيعتهم إلا أن ينقضوا العهد والميثاق والذمة التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ.

نقض اليهود العهد والميثاق، في أشد الأوقات حاجة لرعاية هذا العهد والميثاق، فقد كان العهد يوجب عليهم أن ينصروا رسول الله ﷺ على من يغير على المدينة، ويهاجمها من الخارج، أن يمدوا رسول الله ﷺ بالسلاح أو بالمال، أو بالرجال عند اللزوم.

أمّا ولم يفعلوا هذا؛ فكان يجب عليهم على الأقل أن يصمتوا، أن يقفوا على الحياد، أن يلزموا حصونهم ولا يفعلوا شيئاً، لا بالإيجاب ولا بالسلب، ولكنهم نقضوا العهد، استجابوا لحبي بن أخطب، الذي كان يُشبهه في اليهود بأبي جهل في العرب، ما زال بهم حتى نقضوا العهد، ويبدو أن هذا النقض كان أحب إليهم، وكان ينسجم مع تاريخهم ومع طبيعتهم.

وحينما بعث إليهم النبي ﷺ من يستكشف الأمر، عرف أن الأمر بشرّ حال؛ فبعث إليهم أولاً الزبير بن العوام، أرسله ليستشف ما عند القوم؛ فعاد إليه وأخبره الخبر، فقال ﷺ مثنياً على الزبير:

«إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرِ»^(١). فهو حوارى رسول الله ﷺ، ومرة قال له: «أرمِ فداك أبي وأمي»^(٢).

ولم يكتفِ النبي ﷺ بذلك، بل أرسل من الأنصار من يتأكد من هذا، أرسل إلى اليهود من حلفائهم من الأوس، مثل سعد بن معاذ وسعد بن عباد وغيرهم، وجاءوا وأشاروا إلى رسول الله عن طريق الكناية: أَنَّ القوم قد غدروا، فعز ذلك على رسول الله ﷺ، ولكنه بعد أن اضطجع فترة من الزمن يفكر في الأمر خرج إلى الصحابة يبشرهم: «أبشروا بنصر الله ﷻ»^(٣). لأن الغدر لا تكون عاقبته إلا الشر على أصحابه، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

شق الأمر على المسلمين، وظلوا ليلاً ونهاراً يحرسون الخندق، وخصوصاً بالليل؛ خوفاً من أن يقتحم المشركون الخندق، أو يغدر اليهود وهم في داخل المدينة، وقد قالوا مرةً لأبي سفيان بن حرب زعيم قريش ومن معها: ابعث لنا بألف رجل. وقالوا لغطفان: ابعثوا لنا منكم بألف رجل لنغير على محمد. ولكن الله ثبّطهم، ورأوا المدينة في حراسة ليلاً ونهاراً.

كان الرسول ﷺ يُكَلِّفُ الصحابة أن يحرسوا المدينة، وأن يطوفوا بحصونها خوفاً على النساء والذرية من غدر اليهود، فكانوا يطوفون ويكبرون: الله أكبر، الله أكبر. فكلما سمع اليهود هذا التكبير فُتَّ في

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٥)، عن جابر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب رسول الله (٣٧٢٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٦)، عن عبد الله بن الزبير.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢٢٢/٢).

عضدهم، ودخل الهلع على نفوسهم، فلم يستطيعوا أن ينفذوا ما عزموا عليه.

وكان المشركون يحاولون أن يجدوا مضيقاً في الخندق الذي حفره النبي ﷺ وأصحابه، وبذلوا فيه الجهود، وتعبوا فيه تعباً شديداً، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، رأوا هذا الخندق فقالوا: إنّ هذه مكيدة ما كانت لتكيدها العرب^(١). العرب لا يحفرون الخنادق، ولا يتعبون أنفسهم هذا التعب، إنّهم يتعلمون الحرب في الميادين المكشوفة، أمّا هذه فمكيدة لم يكن العرب يعرفونها، ولكنهم ظلوا يحاولون أن يجدوا فرصة ليقترحوا الخندق، والمسلمون لهم بالمرصاد، رماة النبال والسهام، كلّما رأوا جماعة يقتربون من الخندق: رموهم بنبالهم وسهامهم.

ولكن جماعة من فرسان المشركين العتاة الشجعان وجدوا مضيقاً في ناحية من النواحي، فألهبوا ظهور خيولهم فاقتحموا الخندق، من هؤلاء عمرو بن عبد ود العامري، وضرار بن الخطاب، وعكرمة بن أبي جهل، خمسة من فرسانهم اقتحموا الخندق، وإذا بهم أمام المسلمين!

وعمر بن عبد ود هذا من فرسان العرب المعروفين، الذين لا يقف أمامهم أحد، فوقف يتحدّى ويقول: يا أصحاب مُحَمَّد، هل من مبارز؟ فقال علي بن أبي طالب: أنا له يا رسول الله. فقال له: «يا عليّ، إنّهُ عمرو، اجلس». ثمّ تحدّى مرّة وقال: هل من مبارز؟ فقال عليّ: أنا له يا رسول الله. فقال: «إنّهُ عمرو». قال: يا أصحاب مُحَمَّد، كنتم تدعون أن عندكم جنة من قتل منكم في الميدان دخلها، أين جنتكم هذه. هنا نهض عليّ وقال: أنا له يا رسول الله. وقام ليارزه، فقال له عمرو مستصغراً

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٢٤).

سنّه: يا بني، أليس هناك أحد من أعمامك يأتي بدلاً عنك؟ فإنني لا أحب أن أقتلك؟ قال علي: ولكنني والله أحب أن أقتلك. فأثار عليّ حميته، ونزل عن فرسه وعقره بسيفه، وكان عليّ راجلاً، وكان هو فارساً؛ فرأى أن ينزل لهذا الغلام، الذي يريد أن يناوش هذا البطل المشهور، فضربه ضربة شجّ رأسه، ولكن عليّاً تلقاها بدرقته وضربه ضربة أصابه فيها فقتله، وكبّر عليّ وكبّر المسلمون، وعرف النبي ﷺ أن هذا الصنديد من صناديد الشرك والكفر قد قتله الله وكبّه على وجهه إلى النار^(١).

ولما قُتل عمرو بن عبد ود، فرّ أصحابه الذين اقتحموا الخندق معه، وكان منهم نوفل بن عبد الله المخزومي؛ فلحقه الزبير فقتله، وقيل: اندقت عنقه وهو يقتحم الخندق. وأراد أهله وعشيرته أن يأخذوا جثته فبعثوا إلى النبي ﷺ وقالوا: نعطيك عشرة آلاف درهم وأرسل لنا جثته. قال: «لا حاجة لنا فيها، إنّه خبيث جثته، خبيث دينه، خذوه ولا تأكل ثمن الموتى»^(٢). وبعث إليهم بجثته بغير شيء.

وليمة جابر بن عبد الله الأنصاري:

ظلّ المسلمون على هذا الحال، وطال الحصار، امتدّ الحصار ما يقرب من شهر، لا يكاد المسلمون ينامون، بل لا يكادون يشبعون من طعام، الطعام قليل في المدينة، والحصار أحاط بها كما يحيط السوار بالمعصم؛ فلا يصل إليها شيء، ولا يستطيعون الخروج منها، ولذلك ظهر النبي ﷺ أمام أصحابه طاوياً يكاد بطنه يلتصق بظهره، رأى ذلك جابر بن عبد الله، فذهب إلى امرأته فقال لها: إنني رأيت رسول الله ﷺ

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦٨/٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢٥٣/٢).

خميصًا طاوي البطن، أليس عندك شيء يؤكل. قالت له: والله ما عندي غير هذه الشاة الصغيرة ومُدَّ من شعير. قال لها: اذبحي هذه الشاة، واطحني هذا الشعير واخبزيه، فإنِّي سأدعو رسول الله ﷺ. فلما صُنع هذا الطعام، ذهب إلى رسول الله وقال: يا رسول الله، قد صنعت لك طعامًا؛ فتعال وادع من أصحابك رجلًا أو رجلان. فإذا بالنبي ﷺ يأتيه بأفواج من الصحابة مئات، فقال جابر في نفسه: أنها الفضيحة، أنا عملت أكلاً يكفي سبعة أو ثمانية أو عشرة أو اثني عشر بحد أقصى، ثمَّ يأتيني مئات! وجاءوا أفواجًا أفواجًا، فدخل إلى امرأته وقال لها: إنَّ الرسول ﷺ دعا أصحابه وطعامنا قليل. قالت له: أنت دعوتهم أم هو الذي دعاهم؟ قال: بل هو الذي دعاهم. قالت: دعهم، هو أعلم بما يفعل. فقال لهم النبي ﷺ: «لا تنزع البرمة - أي: القصعة - ولا الخبز من التنور حتَّى آتي». ثمَّ شرع يأخذ من اللحم ويغطيه ومن الخبز ويغطيه، ويعطي الصحابة، وهكذا، يقول جابر: نأخذ منه وكأنه لم ينقص، حتَّى أكل الرسول ﷺ وأصحابه وشبعوا، وشبعت أنا وأهلي والخير باقٍ بحمد الله^(١).

وفي هذه الغزوة أيضًا قالت عمرة بنت رواح، زوجة بشير بن سعد، وأم النعمان بن بشير: إنَّ أخي وزوجي ليس عندهما شيء. فأرسلت إليهم بجفنة فيها عجوة من تمر المدينة، تخصُّ بها زوجها وأخاها عبد الله بن رواح، وبعثت بها ابنتها، فرآها النبي ﷺ فقال لها: «ماذا معك يا ابنتي؟». قالت: كذا وكذا يا رسول الله جئت بها لأبي وخالي. قال: «هاتِ ما عندك». وفرش السباط، وقال: «صُبِّي هذا، ونادوا في الجيش». فنادوا في الجيش: تعالوا إلى العشاء. فجاء الجيش يأخذون من هذه

(١) رواه البخاري في المغازي (٤١٠١)، عن جابر.

ويأكلون، حتّى شبعوا بهذه التمرات في هذه الجفنة^(١)، فكانت هذه من آيات ومعجزات الرسول ﷺ التي يكرمه الله بها في ساعات الشدة.

اشتدّ هذا الحال: الجوع والبرد والخوف، وكان الحال كما وصف الله في سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: ١٠، ١١].

في هذه الحال أراد النبي ﷺ أن يعمل عملاً آخر غير العمل العسكري، يفكر في عمل سياسي؛ فأرسل إلى قادة غطفان: إلى عيينة بن حصن الفزاري، وإلى الحارث بن عوف المري، وأراد أن يفاوضهم بمعزل عن قريش؛ ليفرق جماعتهم، ليشتتهم بعضهم عن بعض، فلا بد من عمل سياسي بجوار العمل العسكري، وفاوضهم بقوله: «ما قولكم أن نعطيكم ثلث ثمار المدينة، وترجعون منصرفين عن قريش؟». قالوا: لا، بل نصفها. قال: «لا، بل ثلثها». وأخيراً قبلوا، وبدؤوا أن يكتبوا هذا، ولكن النبي قال لهم: «لا بد أولاً أن نشاور أهل المدينة».

وكان من خصال رسول الله ﷺ، ومن منهجه المتبّع دائماً أن يشاور أصحابه في الأمور المهمة. شاورهم في بدر^(٢)، وشاورهم في أحد^(٣)، وشاورهم في هذه الغزوة في أوّل الأمر، حين أشار عليه سلمان بحفر الخندق، وهو يشاورهم الآن، وخصوصاً الأنصار فهم جمهرة أهل المدينة، هم القوّة الضاربة، فلا بدّ أن يأخذ رأيهم،

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢١٨).

(٢) سبق تخريجه ص ١١٧.

(٣) سبق تخريجه ص ١١٧.

وخصوصًا أنّه يفاوض على ثلث ثمار المدينة، ثمار نخيلهم وأعنابهم، فعرض هذا الأمر على سعد بن معاذ وسعد بن عباد، أنّه فاض قاده غطفان ومن معهم أن يرجعوا عن قريش ويعطيهم ثلث ثمار المدينة، فقال سعد بن معاذ وهو صديق الأنصار، هو رجلٌ يحبه كل مؤمن، من قرأ سيرته تعلق قلبه بهذا الرجل، الذي ليس له نظير في إيمانه وصدقه وبذله لله وَجَلَّ. قال له: يا رسول الله، أهذا أمر من السماء أمرك الله به؛ فليس لنا أن نتقدم عنه ولا أن نتأخر، أم هو أمر لك فيه هوى تحب أن تنفذه فنسمع لك ونطيع، أم هو أمر تفعله من أجلنا رفقا بنا وإشفاقًا علينا؟

قال: «بل هو أمر أصنعه لكم، فقد رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أخفف عنكم إلى أمر ما فقبلت هذا الأمر». فقالوا: يا رسول الله، لقد كنا نحن وغطفان وهذه القبائل على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعرف عبادة الله وحده، وما كانوا يطمعون أن يأكلوا من ثمار هذه المدينة ثمرة واحدة؛ إلّا بيعًا أو قرى، إما أن يشتروها أو نضيّفهم، أبعد أن أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا به وبك: نعطي الدنية في ديننا، ونقطعهم من أموالنا؟! والله لا يكون ذلك أبدًا، والله لا نعطيهم إلّا السيف حتّى يحكم الله بيننا وبينهم.

فعرف رسول الله ﷺ أنّ القوم مصممون على الدفاع عن هذا الدين، وعن جماعة المسلمين، ولا يفرطون أبدًا مهما أصابهم من جهد، ومهما بذلوا من أرواح وأموال، فوافقهم على ما صنعوا، وقال سعد بن معاذ: ليجهدوا جهدهم^(١). أي: يفعلوا ما استطاعوا، وأخبر رسول القوم أنّ الأمر لم يتم، فكان لا بدّ من هذه المشاورة حتّى يتم الأمر ويصبح ملزمًا للطرفين، وهكذا

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٣)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/٤٣٠).

ظل الأمر كما هو، المسلمون في داخل المدينة، وقريش وغطفان خارج المدينة، وقَرْيَظَة داخل المدينة، تمر الأيام بعد الأيام ولا يحدث شيء، ما يقرب من شهر، قيل: عشرون ليلة. وقيل: خمس وعشرون ليلة. وقيل: شهر. وقيل: قريب من شهر. وفعلاً كان الحصار قريباً من الشهر.

وكان ممّن أصيب في هذه المعركة سعد بن معاذ رضي الله عنه، أصيب في أكحله، والأكحل عرق في الذراع يُسمّى عرق الحياة متشعب بالعروق والأوردة والشرابين في الجسم كله، أصابه رجل اسمه ابن العرقة، قال: خذها وأنا ابن العرقة. قال عليه السلام: «عَرَّقَ الله وجهه في النار»^(١). ونُقل سعد بن معاذ إلى خيمة رفيدة في المسجد النبوي، وتعتبر رفيدة أوّل ممرضة في الإسلام، وتعتبر خيمتها أوّل مستشفى ميداني تتلقّى المجروحين والمصابين، ويُهَيَّأ لهم ما يمكن من إسعافات أوّليّة، حسب تلك البيئة وإمكاناتها المحدودة.

وظلّ المسلمون يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون له: يا رسول الله، لقد بلغت القلوب الحناجر، علّمنا ماذا نقول، بماذا ندعو؟ قال: «قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»^(٢).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يدعو في هذه الغزوة بهذا الدعاء: «اللهم منزل الكتاب، ومُجْري السحاب، وسريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»^(٣). وفي رواية: «اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم»^(٤).

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٦٧/٢).

(٢) رواه أحمد (١٠٩٩٦)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والبزار كما في كشف الأستار (٣١١٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧١٢٨): رواه أحمد، والبزار، وإسناد البزار متصل، ورجاله ثقات. عن أبي سعيد الخدري

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤١١٥)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢) (٢١)، عن عبد الله بن أبي أوفى.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) (٢٠)، كلاهما في الجهاد والسير، عن عبد الله بن أبي أوفى.

هكذا كانت دعوات الرسول ﷺ على هؤلاء الأحزاب: أن يهزمهم الله ويزلزلهم، وينصر المؤمنين عليهم، وقد استجاب الله دعاء رسوله ﷺ، وهزم هؤلاء الأحزاب وحده، وكان النبي ﷺ يقول بعد ذلك: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»^(١).

هزم الله هؤلاء الأحزاب، أرسل عليهم ريحاً وجنوداً لا يراها الناس، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، الجنود التي لا يراها الناس هي الملائكة، نزلت الملائكة لنصرة المؤمنين في ثلاث غزوات: في بدر، وفي الأحزاب، وفي حنين، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، هذه الريح خلعت خيامهم، وقلبت أوانيهم، وأطفأت نيرانهم، فلا يبقى لهم قدر ولا بناء، ولا خيمة ولا شيء.

وأرسل النبي ﷺ حذيفة بن اليمان إلى المشركين ليرى ماذا يصنعون؛ فدخل فيما بينهم وهم لا يعرفونه، فوجد أبا سفيان يقول لهم: تحسّسوا من حولكم ليعرف كل منكم من جلسه؛ فإن الأمر قد اختلط علينا. هنا بادر حذيفة وقال لجليسه: من أنت؟ هو الذي بادره بالسؤال، حتى لا يفجأه الآخر بالسؤال، وقال لهم أبو سفيان: لقد بقينا هذه الأيام ولم نستطع أن نصنع شيئاً، أهلكنا البرد، وأهلكنا الجوع، وأهلكتنا الريح التي هبت علينا^(٢).

ولم تفِ قُرَيْظَةُ بما وعدت، لأن الله هيأ أحد المشركين ليسلم في هذا الوقت هو نعيم بن مسعود الأشجعي، أسلم وأراد أن ينضم إلى

(١) رواه أحمد (١٥٣٨٨)، وقال مخرّجوه: صحيح. عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) رواه أحمد (٢٣٣٣٤)، وقال مخرّجوه: صحيح. عن حذيفة بن اليمان.

المسلمين، فقال له الرسول: «أنت رجل واحد، ماذا تفعل؟ اذهب وخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة»^(١).

وذهب هذا الرجل يعمل عقله وذكائه في تخذيل المشركين ليفتن بعضهم عن بعض، ويفرق بعضهم عن بعض، ويشكك بعضهم في بعض، فقال لليهود: إنَّ القوم جاؤوا وسيعودون إلى بلادهم وسيتركونكم مع مُحَمَّد، ولا قبل لكم به. قالوا: ما نفعل؟ قال: اطلبوا منهم رهائن من أشرافهم حتَّى تستطيعوا أن تضمّنوا لأنفسكم البقاء.

وذهب إلى قريش وقال لهم: إنَّ قُرَيْظَةَ غدرت بكم وندموا على ما فعلوا مع مُحَمَّد، ووعدوه أنَّهم سيأخذون من أشرافكم رجالاً يسلمونهم لمحمد؛ فيقطع أعناقهم! وفعلاً طلبت قُرَيْظَةَ من قريش رهائن فقالوا: لن نستطيع أن نعطيكم. وقالوا: صدق نعيم^(٢). وضرب الله بعضهم ببعض!

الحرب خدعة، على الإنسان أن يعمل ما يستطيع، والله ﷻ يرسل جنوداً لا يراها النَّاس، ويرسل ريحاً وهي أيضاً من جنود الله، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، يُسَلِّطُ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، ولذلك قال أبو سفيان لقومه: ليس لنا بقاء هنا، إنني راحل فارحلوا معي. وضرب جملة فقام من عقله وركبه راحلاً، وعاد حذيفة إلى النبي ﷺ يخبره نبأ القوم، ويقول حذيفة: كان البرد شديداً، ولكن حينما كلّفني رسول الله شعرت كأنني في حمام^(٣). نسي البرد ونسي الجو القارس كأنه في حمام، حتَّى عاد إلى النبي ﷺ فأخبره الخبر.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٢٩).

(٢) النظر: المصدر السابق (٢/٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٨).

وهكذا ارتحل أبو سفيان ومن معه، وارتحل عيينة بن حصن ومن معه، وعادوا إلى المدينة، وكان النصر من عند الله وَجَلَّ، وقال الله تعالى في ذلك: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. لم يحصل نزال، ولم يحصل لقاء الصف بالصف، ولم تشتعل معركة ولم تُسفك دماء، كل من مات من الفريقين تسعة أشخاص: ستة من المشركين، وثلاثة من المسلمين، وبعض المسلمين أصابه سهم طائش فقتل شهيداً في سبيل الله.

انظروا إلى التعقيب القرآني: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾. معناه أن المعركة إذا انتهت بغير نزال وبغير قتال وبغير دماء؛ فهذه نعمة، هذا هو الإسلام، إنه يحب السلام، ولا يتشوّف إلى الدماء أبداً، ولا يتعطش له؛ بل هو يخوض المعركة اضطراراً إذا اضطر إليها، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكان النبي ﷺ يقول لأصحابه: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية»، اسألوا الله السلامة من الدماء والقتال، «فإذا لقيتموهم فاثبتوا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»^(١). فإذا اضطررتم إلى لقاء العدو لا بد من الصبر والثبات، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. وقال: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد والسير، عن عبد الله بن أبي أوفى.

هكذا انتهت هذه المعركة، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، كانت هذه المعركة معركة أعصاب، زُلزل المؤمنين فيها زلزالاً شديداً، حُصروا بهذه القوات الغازية الهائلة مع غدر الغادرين في الداخل، اليهودية تحالفت مع الوثنية على إبادة المسلمين، وكان البلاء شديداً، وما أشبه الليلة بالبارحة.

نحن أيُّها الإخوة المسلمون محاصرون الآن بقوى عديدة: تريد أن تقتلع المسلمين من جذورهم؛ تحت دعاوى شتى: دعوى الإرهاب، دعوى الأصولية، دعوى كذا وكذا، والقصد هو محاربة هذه الأمة، يُراد القضاء على أمة الإسلام حتى لا تقوم لها قائمة، ولا ترتفع لها راية، ولا تعلو لها كلمة.

ولكن الله ﷻ وعدنا بقوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]. انظروا إلى هذا التعبير القرآن، لم يقل: وجعل كلمة الله هي العليا. بل قال: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾. فشان كلمة الله أن تكون هي العليا دائماً، وكلمة الله هي كلمة الحق والعدل، وكلمة القرآن والسنة، وكلمة الإيمان والإسلام والإحسان، هذه الكلمة لا بد أن تعلو دائماً.

نحن الآن في حصار أشبه بحصار الأحزاب يوم الخندق، ولكننا سننتصر إن شاء الله؛ رغم كيد اليهودية، ورغم كيد الصليبية، ورغم كيد الكائدين ومكر الماكريين، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

لقد صمَّم الرسول ﷺ بعد هذه الغزوة أن يذهب إلى قَرْيَظَة لِيُؤَدِّبَهُمْ، وكان ذلك بأمر من جبريل بوحى من الله تعالى، فقد دخل الرسول إلى

بيته وخلع درعه وملابسه الحربيّة، وإذا جبريل يقول له: وضعت السلاح؟ إنّ الملائكة لا تزال بسلاحها، الجنود من الملائكة التي نزلت لا زالت مستعدة؛ فكيف تخلع سلاحك؟! اذهب إلى قُرَيْظَةَ، إنّ الله يأمركم أن تذهبوا إلى قُرَيْظَةَ.

وأمر النبي ﷺ أصحابه أن يستعدوا، وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلّا في بني قُرَيْظَةَ». كان ذلك وقت صلاة الظهر، وقُرَيْظَةُ في ضاحية المدينة، وفي الطريق رأى بعض النّاس أنّ الشمس أوشكت على الغروب فاختلف الصحابة، قال بعضهم: إنّ النبي ﷺ لم يرد منا أن نضيع العصر، ولكن أراد منا سرعة النهوض، فنصلي العصر هنا، لأنّنا إنّ لم نصلها هنا سنصلها هناك، فلنصلها في الطريق. وقال بعضهم: لا، النبي قال: «لا يصلين العصر إلّا في بني قُرَيْظَةَ». فلا نصلها إلّا هناك؛ حتّى وإن وصلنا في منتصف الليل. عملوا بحرفية الأمر، اختلفوا في اجتهادهم، جماعة نظروا إلى الفحوى والمقصد، وجماعة نظروا إلى اللفظ والحرفية، وبلغ النبي ﷺ فعل هؤلاء وهؤلاء؛ فلم يلم أي فريق من الفريقين^(١)، كلّ عمل باجتهاده، ولكن المهم أن هؤلاء الصحابة الذين اختلفوا في هذا الأمر وقفوا صفًا واحدًا أمام بني قُرَيْظَةَ، الذين غدروا في ساعة الشدّة.

وحاصر النبي يهود بني قُرَيْظَةَ نحو خمسٍ وعشرين ليلة؛ حتّى استسلموا ورضوا بحكم رسول الله ﷺ، ودعاهم الرسول أن يختاروا حكمًا؛ فاختاروا سعد بن معاذ: حليفهم في الجاهليّة، كان الأوس حلفاء بني قُرَيْظَةَ في الجاهليّة، كما كان الخزرج حلفاء بني النّضير، وظنوا أن هذا الحلف ينفعهم، وكان بعض الأوسيين من الأنصار على هذا الرأي،

(١) متّفق عليه: رواه البخاري في صلاة الخوف (٩٤٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٠)، عن

كانوا يقولون: راع حلفاءنا. وسعد ساكت قد أصابه ما أصابه في أكحله: في ذراعه، ثم قال لهم: لقد آن لسعد ألا يخاف في الله لومة لائم!

فلما حُكِّمَ فيهم، وقد ذهب إليهم قبل أن يأتي المشركون وحذرهم فأسأؤوا إليه وسبُّوا رسول الله، وقالوا: من رسول الله؟ ليس بيننا وبين مُحَمَّدٍ أي عهد ولا ميثاق. ولذلك كان قلبه ممتلئًا بالغيظ عليهم، ورأى أنه لا علاج لهم؛ إلا أن تُقتل مقاتلتهم، وتسبى نساؤهم، وتُغنم أموالهم، هكذا حكم سعد بن معاذ، وقال له النبي ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله فيهم»^(١).

وحينما أصيب سعد بن معاذ في أكحله؛ كان قد دعا ربّه قائلاً: اللهم إن كنت أبقيت لنبيك حرباً مع قريش فأبقني حتّى أقاتلهم، فليس أحب إليّ من أقاتل قومًا كذبوا رسولك وآذوه وأخرجوه، وإن كنت قد أنهيت الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ فاجعلها لي شهادة، ولا تمّتنني يا رب حتّى تفر عيني في قُرَيْظَةَ وما غدرت برسول الله.

وحينما حكم بهذا الحكم في بني قُرَيْظَةَ انفجر الجرح، ومات شهيداً في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: «اهتزّ عرش الرحمن لموت سعد بن مُعَاذٍ»^(٢). انظر إلى رجل اهتزّ عرش الرحمن لموته، وقال الله في ذلك بعد أن قال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧]. فوعد بفتح خبير، كان ذلك جزاء بما صنع اليهود.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، كلاهما في الجهاد، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٣)، ومسلم في فضائل الصّحابة (٢٤٦٦)،

عن جابر.

بعض المستشرقين يقولون: إِنَّ مُحَمَّدًا كَانَ قَاسِيًا عَلَى الْيَهُود. ولكن هكذا ينبغي أن يكون الحزم، الشدة في موضع الشدة، واللين في موضع اللين، وقال الشاعر:

وَوَضِعُ النَّدى فِي مَوْضِعِ السَّيفِ بِالْعَلَا مُضِرُّ كَوْضِعِ السَّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدى^(١)

في فتح مكة قال الرسول لمشركي مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٢). وعفا عنهم، ولكنه لم يعف عن هؤلاء، لماذا؟ لأنه لو عفا عن اليهود لقالوا: ضحكنا على مُحَمَّدٍ حَتَّى عَفَا عَنَّا. ثم يعودون إلى الغدر كما عادوا إليه بعد أن غدروا مع بني النضير، فهؤلاء لا ينفع فيهم العفو، كما قال الشاعر:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا^(٣)

كما أَنَّ جريمة هؤلاء ليست كجريمة قريش، جريمة هؤلاء غدر في وقت المسلمون مهَّدون فيه بالإبادة، وهم قالوا: ننتهزها فرصة لتنفق مع المهاجمين؛ لنقضي على مُحَمَّدٍ قَضَاءً مُبْرَمًا. وهذه جريمة كبرى، جريمة إبادة واستئصال للمسلمين، لا يجوز التساهل فيها، ثم الموقف غير الموقف، كان الموقف هنا يقتضي هذه الشدة، وفي فتح مكة كان الرسول في حالة أخرى، لو عفا لم يضره العفو، ولذلك قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

إِنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ عَدْلٍ، وَلَكِنَّهُ دِينُ حَزْمٍ وَدِينُ شِدَّةٍ، إِنَّهُ يَسْتَعْمَلُ الرَّحْمَةَ فِي مَكَانِهَا وَالشِدَّةَ فِي مَكَانِهَا، هَكَذَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ، نَسْأَلُ

(١) ديوان المتنبي ص ٣٧٢، نشر دار بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) رواه البخاري في الأدب (٥٩٩٠)، عن عمرو بن العاص.

(٣) ديوان المتنبي ص ٣٨٥.



الله عَجَلْ أَنْ يجعله قدوة لنا في سلمه وحربه، وقدوة لنا في أخلاقه وأعماله وأقواله، إِنَّه نعم المولى ونعم النصير.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إِنَّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *



الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

المشاركة في الانتخابات العراقية:

لا زلنا نتابع بقلوبنا وأعصابنا، ما يجري في العراق الشقيق من دماء تُسْفَك، ومن حرمان تُهْتَك، ومن مُنشآت تُدمَّر، ومن كوارث تحدث لأفراد وأسر وجماعات، يُقتل فيها الكثيرون بغير حق.

وسبب هذا كله أيُّها الإخوة هو الاحتلال الظالم، الذي احتلَّ العراق دون ذنب؛ نتيجة أكذوبة كبرى: أنه يملك أسلحة دمار شامل، ثمَّ تبَيَّن أن هذه أكذوبة، واعتذر عنها حتَّى الأمريكان أنفسهم، الاحتلال هو سبب المظالم والمآثم والمآسي، التي تحدث في العراق كل صبيحة وكل مساء في كل يوم؛ منذ دخل الاحتلال إلى اليوم، وإنَّا لنتنظر يومًا يخرج فيه هذا الاحتلال، ويولي الأدبار، ويعود إلى دياره، ويترك العراقيين لأنفسهم، يحلون مشكلاتهم بأنفسهم، كما كانوا يفعلون من قبل.

لقد كان العراق رغم اختلافاته في الناحية العرقية، والناحية المذهبية، والناحية الدينية، كان مع هذا كله شعبًا واحدًا، وبلدًا واحدًا، لم يكن يفرق بين بعضهم وبعض شيء من هذا، كان هناك اختلاف ديني: مسلم ومسيحي، واختلاف عرقي: عربي وكردى وتركي، واختلاف مذهبي: سني وشيعي، ولكن مع هذا كله عاش العراقيون إخوة بعضهم مع بعض، الشيعة والسنة يشتركون كثيرًا في الأنساب، العشيرة الواحدة فيها سنيون وشيعيون، ويشتركون في الجوار، السني بجواره الشيعي، والشيعي بجواره السني، يتجاورون في أحياء واحدة، ويشتركون في

المصاهرة، السُّني يتزوج من الشيعة، والشيعة يتزوج من السُّنية، ويشتركون في الأعمال والتجارات وفي كل شيء، الحياة مختلطة ممتزجة بعضها ببعض.

هكذا عاش العراقيون قبل هذا الاحتلال، فلما جاء الاحتلال فرّقهم بعضهم عن بعض، وأصبح بعضهم يقاتل بعضًا، وأصبح بعض الناس يقتلون بالهوية بالاسم، إذا كان الاسم يدل على مذهب صاحبه قُتل، أصبحت هناك مجازر تقع لبعض الناس، ما هذا الذي يحدث، هذا أمر لا يجوز.

نريد من العراقيين المسلمين خاصّة أن يكفّ بعضهم عن دماء بعض، إنّ الرسول ﷺ في حجة الوداع أوصى الأمة، قال لجريز بن عبد الله: «استنصت لي الناس». اجعلهم يسكتون حتّى أبلغهم الرسالة، ثمّ قال: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(١). فهذا أمر لا يجوز أن يضرب بعضنا رقاب بعضًا.

وأنا أحمل الإخوة الشيعة المسؤولية أكثر من السنّة؛ لأنّهم هم الذين بيدهم الجيش، وبيدهم الشرطة وقوات الأمن، وبيدهم السلطة والوزارات، ويملكون ما لا يملك السنّة، لا يجوز لهم أن يستغلوا هذا ليقتلوا من إخوانهم ما يقتلون، نريد من علماء الشيعة الكبار، من آيات الله، من المراجع الشيعة، من المرجع الكبير السيد علي السيستاني آية الله العظمى، نريد من شيوخ الحوزة أن يصدرُوا فتاواهم بتحريم قتل المسلم للمسلم، بتحريم قتل أهل السنّة، أصدر أهل السنة فتاوى من هذا النوع، ولكننا لم نر علماء وملائي الإخوة الشيعة يصدرُونَ مثل هذه

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

الفتوى، نريدهم أن يصدرُوا فتاوى صريحة تحرّم قتل المسلم للمسلم على الهوية أو الاسم، لا يجوز هذا في بلد واحد، وفي وطن واحد، وفي شعب واحد أبدًا.

وهنا أيضًا أمر مهم يجري في القريب في الخامس عشر من ديسمبر انتخابات برلمانية؛ لانتخاب أعضاء البرلمان الجديد، أهل السنة فيما مضى قاطعوا الانتخابات؛ لأنّه كان عليهم عبء مقاومة الاحتلال، وكانت ظروفهم تمنعهم، الأمن غير مستتب، والأشياء كثيرة كانت تمنعهم.

الآن أدعو أهل السنة إلى أن يشاركوا بقوة في الانتخابات القادمة بالترشيح والتصويت، وقد أفتاهم البعض أنّ الانتخابات في ظل الاحتلال الأمريكي حرام، وأنا أقول: لا؛ الضرورة تجيز هذا، وخصوصًا أنّ الاحتلال يظهر أنّه لن يتدخل في هذه الانتخابات، إذا كانت انتخابات حرة نزيهة فلنخضعها، ولا نبقي متفرجين، ثمّ تُقسم الكعكة على من دخلوا الانتخابات، ونظل نحن نبحت أو نقاتل، وتحدث حرب أهلية ودماء، لماذا؟!!

أنا أقول لإخوتي من أهل السنة في العراق: ادخلوا هذه الانتخابات بقوة، رشحوا من ترونه الأفضل، واختاروا من ترونه الأصلح، اختاروا القوي الأمين، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أُسْتَجِرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، القوي القادر على من يمثلكم، والأمين الذي يخشى الله، الذي عنده أخلاق وأمانة ودين، اختاروا القوي الأمين، الحفيظ العليم، ادخلوا هذه الانتخابات، فالتصويت في الانتخاب شهادة؛ بأن هذا يصلح وهذا لا يصلح، وما دام أنّ الشهادة لله؛ فأنت لا تبغي بها جزاء ولا شكورًا من أحد، الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

أدّ صوتك لله للحق، انصر الحق هنا، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]. إذا كانت عندك شهادة تحملتها ودُعيت لأدائها؛ فلا تأبى الحضور عند القاضي، لأنك إذا لم تحضر ربما ضاع حق لإنسان، وربّما كان هذا الحق بضعة دراهم أو دنانير، فكيف بحق أمّة وكيان أمّة ومستقبل شعب، ولذلك أقول للإخوة في العراق: ادخلوا هذه الانتخابات واشهدوا بالحق، اشهدوا للإنسان الصالح، ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]، إذا تركت الساحة سينتخب غيرك من لا يستحق، سيشهد كثير من الناس شهادة الزور، وفي الانتخابات نرى هناك شهود الزور، والنبى ﷺ يقول: «عدلت شهادة الزور الإشراف بالله تعالى»^(١). وقد جمع الله شهادة الزور مع الشرك بالله فقال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

أدعو إخواني في العراق - وخصوصاً أهل السُنّة - أن يذهبوا بكثافة إلى صناديق الانتخاب، وأن يختاروا القويّ الأمين الأصح لتمثيل الأمّة، وأن يرشحوا أنفسهم ليس في ذلك حرام، لو كان حراماً؛ فإن الضرورات تبيح المحظورات، هناك أحكام في حالة السعة والاختيار، وأحكام في حالة الضيق والاضطرار، نحن في ساعات حرج واضطرار.

وهذا لا ينافي أن يكون هناك من يقاوم الاحتلال، أهل الجهاد يقاومون الاحتلال، كما أنّ أهل الانتخابات يقومون بها، وأنا أعني بالجهاد الذي يقاوم الاحتلال الأمريكي وجنوده، لا الذين يقتلون

(١) رواه أحمد (١٧٦٠٣)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأفضية (٣٥٩٩)، والترمذي في الشهادات (٢٢٩٩)، وقال: حديث غريب. وضعّفه الألباني في الضعيفة (١١١٠)، عن أيمن بن خريم.

المدنيين والذين يخطفون البراء، أرى أن من حق المقاومة الشريفة أن تقاوم، ولكن هذا يعمل في جانب، وهذا يعمل في جانب، رأينا النبي ﷺ في غزوة الخندق يقف بحراسه ورجاله لحفظ الخندق وحراسة المدينة من ناحية، ويفاوض غطفان من ناحية أخرى، فالأمران لا يتعارضان بالضرورة، لا بد أن نعمل في كل جانب.

أدعو إخوتي من أهل السنة في العراق أن يذهبوا لصناديق الانتخاب، وأن ينتخبوا القوي الأمين؛ لعلهم يتيحوا لأنفسهم أن يعوضوا ما فاتهم من قبل، أن يكون لهم حظهم الذي يكافئ عددهم ونسبتهم وتاريخهم، يكون لهم حظهم في الجيش وفي الشرطة، وفي الوزارات وفي المحافظات، ومن ناحية أخرى يحاولون أن يعدلوا الدستور، وقد كان هناك وعد في الانتخابات السابقة بتعديل الدستور، بعد هذه الانتخابات القادمة.

في الدستور أشياء يعترض عليها أهل السنة؛ مثل التوسع في الفيدراليات، وتقسيم الثروات، وغير ذلك، فهذه فرصة لتقولوا رأيكم وتعدلوا هذا الدستور.

أنا أدعو إخواني أن يخوضوا المعركة السياسية، لا نتخلى عن الجانب السياسي، وأدعو إخواني من هيئة العلماء المسلمين، وعلى رأسهم أخونا الفاضل الشيخ حارث الضاري وإخوانه، أدعوهم ألا يتعصبوا في هذا الأمر، وأن ينظروا للأمر من وجوهه المتعددة، وأن يحاولوا أن يستفيدوا من هذه الفرصة، حتى لا يقول الآخرون: أعطيناهم الفرصة ولكنهم رفضوها. لا، لا نريد أن يقال ذلك، نريد أن نستفيد من هذه الفرصة، ونصر على أن نأخذ حقنا، وألا يفوت الأمر علينا.



أَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَنْبِرَ بِصَائِرِ إِخْوَانِنَا، وَأَنْ يَجْعَلَ يَوْمَ الْعِرَاقِ خَيْرًا مِنْ أَمْسِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ غَدَهُ خَيْرًا مِنْ يَوْمِهِ، وَأَنْ يَقِيَهُ الْفِتْنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَأَنْ يَقِيَهُ شَرَّ الْفِرْقَةِ، وَشَرَّ الْعَنْصَرِيَّةِ، وَأَنْ يَقِيَهُ وَسَاوِسَ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَشَيَاطِينِ الْأَمْرِيكَانِ وَغَيْرِهِمْ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ وَحْدَتَهُ وَتَمَاسُكَهُ، إِنَّهُ نَعَمُ الْمَوْلَى وَنَعَمُ النَّصِيرِ.

اللَّهُمَّ أَكْرَمْنَا وَلَا تَهِنَّا، وَأَعْظَمْنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَزِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَآثَرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَارْضَ عَنَا وَأَرْضْنَا، رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا؛ رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، اللَّهُمَّ ارْفَعْ مَقْتِكَ وَغَضَبَكَ عَنَا، وَلَا تَسَلِّطْ عَلَيْنَا بِذُنُوبِنَا مَنْ لَا يَخَافُكَ وَلَا يَرْحَمُنَا، وَلَا تَهْلِكْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا، وَاجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا مَطْمَئِنًّا، سَخَاءً رِخَاءً، وَسَائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ آمِينَ.



أعظم رسول وأعظم رسالة^(١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

سَنَتَحَدَّثُ فِي هَذِهِ الْجُمُعَةِ، وَمَا بَقِيَ مِنْ جُمُعَاتِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الدِّرَاسِيَّةِ حَوْلَ أَعْظَمِ شَخْصِيَّةٍ فِي الْوُجُودِ: شَخْصِيَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَعْظَمِ رِسَالَةٍ فِي الْوُجُودِ: رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَذَلِكَ بِمُنَاسِبَةِ اقْتِرَابِ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ الَّذِي يَحْتَفِلُ النَّاسُ فِيهِ بِمَوْلِدِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَاحْتِفَالُنَا بِالْمَوْلِدِ لَيْسَ بِإِقَامَةِ الزِينَاتِ، أَوْ رَفْعِ الرَايَاتِ، أَوْ تَوْزِيعِ الْحُلُوفِ، إِنَّمَا احْتِفَالُنَا بِهِ بِأَنْ نَذْكُرَ النَّاسَ بِعَظَمَةِ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، صَاحِبِ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، وَصَاحِبِ الرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ الْخَالِدَةِ، الَّذِي أَرْسَلَهُ رَبُّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَحُجَّةً عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، احْتِفَالُنَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِمَوْلِدِهِ أَنْ نَتَعَرَّفَ عَلَى شَخْصِيَّتِهِ، نَتَعَرَّفَ عَلَى رِسَالَتِهِ، نَتَعَرَّفَ عَلَى سِيرَتِهِ ﷺ.

الرسالة العامة الخالدة:

إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ مُحَمَّدًا ﷺ لِيُبْعَثَهُ بِالرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ الْخَالِدَةِ، أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]،

(١) أُلْقِيَتْ فِي مَسْجِدِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ بِالدُّوحَةِ، فِي ١٩ يُونِيُو ١٩٩٩ م.

منهم مَنْ حَدَّثَنَا اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْقُرْآنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُحَدِّثْنَا عَنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. لَا يَتَسَعِ الْقُرْآنُ لِيُحَدِّثَنَا اللَّهُ فِيهِ عَنْ جَمِيعِ الرُّسُلِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]. وَقَالَ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وَلِذَلِكَ حَدَّثَنَا عَنْ عَدَدٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ أَوْ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ رَسُولًا.

وَحَدَّثَنَا الْقُرْآنُ عَنْ خَمْسَةِ مِنْ عِظَامِهِمْ هُمْ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُمْ أَنْ يَتَأَسَّى بِهِمْ فِي الصَّبْرِ وَالْمَصَابِرَةِ وَالْإِحْتِمَالِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وَهُمْ الرُّسُلُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ [الشورى: ١٣].

كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ أَعْظَمُ رَسُلِ اللَّهِ، وَخَاتَمُ رَسُلِ اللَّهِ، خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا خَصَّهُ بِهِ لِيُبْعَثَ بِالرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ الْخَالِدَةِ، كَانَ الرُّسُولُ مِنْ قَبْلِهِ ﷺ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، أَمَّا هُوَ فُبُعِثَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً^(١).

أَرْسَلَ اللَّهُ نُوْحًا إِلَى قَوْمِهِ، وَإِبْرَاهِيمَ إِلَى قَوْمِهِ، وَمُوسَى إِلَى قَوْمِهِ، وَعِيسَى إِلَى قَوْمِهِ، أَرْسَلَ هُودًا إِلَى عَادٍ، وَصَالِحًا إِلَى ثَمُودَ، وَشُعَيْبًا إِلَى مَدْيَنَ وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، كُلُّ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثَ بِرِسَالَةٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ، يَحَاوِلُ أَنْ يَعْالِجَ مَشْكَلاتِهِمْ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي التَّيْمَمِ (٣٣٥)، وَمُسْلِمٌ فِي الْمَسَاجِدِ (٥٢١)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

دعوة الرسل إلى التوحيد:

وكان كل الرسل والأنبياء دُعاة إلى التوحيد، هذه قضية مشتركة عند الجميع، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، عبادة الله وحده، وتحرير البشر من عبادة الطاغوت. كل ما يُعظم ويُتبع ويطاع وطاعة مطلقة من دون الله فهو طاغوت، سواء كان في الأرض، أو الأفلاك، سواء كان من البشر أو البقر، أو من الشمس أو القمر، أو من النبت والشجر، أو من الحجر، أيًا كان هذا الطاغوت فيجب اجتنابه، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، كل الأنبياء جاؤوا يُحررون البشر من الطاغوت، و جاؤوا يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، يقول الله تعالى لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فكل الرسل جاؤوا بالتوحيد.

إصلاح الرسل لفساد المجتمعات:

وجاؤوا بعلاج مشكلات مجتمعاتهم، فلو ط كان في مجتمعه - بعد الشرك - هذه الفاحشة التي ظهرت في قومه، ما سبقهم بها من أحد من العالمين: (الشذوذ)، ولذلك وصفهم نبيهم بالعدوان: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]. ووصفهم بالجهل: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]. ووصفهم بالإسراف: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]. ووصفهم بالإفساد: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وصفهم بكل هذا لأنهم ارتكبوا هذه الفاحشة التي غيروا بها فطرة الله التي فطر الناس عليها، فكان لا بد أن يُعاقبوا بأن تُطهر الأرض من

رَجُسَهُمْ، وَأَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عِقَابَتَيْنِ: قَلْبَ قَرِيَّتِهِمْ وَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرَهُمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِيلٍ مَنْضُودٍ، كُلِّ حَجَرٍ بِاسْمِ صَاحِبِهِ، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وجاء شُعَيْب يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، ويدعوهم إلى إصلاح الأحوال الاقتصادية التي أفسدوها بتطيف الكيل، ونقص الميزان، وبخس الناس أشياءهم، والعثو في الأرض مفسدين، وهكذا كل نبي جاء يعالج مشكلات قومه.

شمول الرسالة المُحمَّديَّة للزمان والمكان وشؤون الإنسان:

أَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فجاء برسالة عامَّة وشاملة، جاء الأنبياء برسائل محدودة من عدَّة جهات: محدودة من حيث المكان، فكل نبي لقومه، ومحدودة من حيث الزمان، لفترة محدودة من الزمن، ثمَّ يأتي نبي آخر برسالة أخرى، وينسخ الرسالة القديمة، ومحدودة من حيث المحتوى، لأنَّها جاءت تُصلح حالة مجتمع معيَّن في مكان معيَّن لفترة معيَّنة.

لكن رسالة مُحَمَّدٍ ﷺ امتازت بالشمول المكاني، والشمول الزماني، والشمول الموضوعي، فهي عامَّة لأهل المشرق والمغرب، كما قال وَجَّكَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿إِنَّهُ هُوَ الَّذِي ذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧، التكويم: ٢٧]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. لأول مرَّة يأتي رسول إلى الناس ويقول: أنا رسول الله إلى الناس كافة. ما أعلن هذا رسول قط قبل مُحَمَّدٍ ﷺ.

ثم هي رسالة شاملة من ناحية الزمان، لم تجئ لفترة معينة محدودة، إنما جاءت للزمن كله، فهي رسالة العالم كله، ورسالة الزمن كله، ليس بعد الإسلام رسالة، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد مُحَمَّد نبيٍّ، ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، «أنا العاقب فلا نبي بعدي»^(١)، لا نبي بعد مُحَمَّد، وكل مَنْ ادَّعى النبوة بعده فهو كاذب، وقد مرَّ أربعة عشر قرنًا أو يزيد على مُحَمَّد ﷺ ولم نر دعوى نبوة يُمكن أن تُسمع، وأن يكون لها وزن.

كل مَنْ ادَّعى النبوة من مسيلمة الكذاب، إلى القادياني والبهائي وغيرهما كلهم كذبة مُزيَّفون، لا يمكن أن يكون لهم قول مسموع، أو لواء مرفوع، أو حجة مُقنعة، فمُحَمَّد ﷺ هو خاتم النبيين.

جاء مُحَمَّد ﷺ برسالة لعموم المكان، وعموم الزمان، ورسالة لكلِّ شؤون الإنسان، ليست رسالة للآخرة دون الدنيا، ولا لشؤون الرُّوح دون شؤون المادَّة، ولا للفرد دون المجتمع، ولا للقلب دون العقل، أنَّها رسالة الإنسان كله، الإنسان فردًا، والإنسان أسرةً، والإنسان مجتمعًا، والإنسان دولةً، والإنسان أُمَّةً، والإنسان في علاقاته بالعالم كله.

معالجة أمور الحياة كلها:

إنَّها رسالة شاملة جاءت تُعالج كلَّ أمور الحياة بكتاب شامل يقول للنَّاس مخاطبًا الرسول ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. ويقول في ختام سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٢) مختصرًا، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٤)، عن جبير بن مطعم.

جاءت هذه الرسالة لشؤون الحياة كلها، جاءت لتزكية الأفراد، ولإسعاد الأسر، ولإصلاح المجتمعات، ولهداية الدول، ولإرساء علاقات إنسانية متوازنة، جاءت هذه الرسالة تُبَيِّن للنَّاس كل شيء يحتاجون إليه، تضع الأصول الحاكمة، والمعالم الهادية، والضوابط العاصمة؛ حتَّى لا يضل النَّاس، ولا تختلف بهم الطرق، ولا تلبس عليهم الغاية.

هذا هو شأن هذه الرسالة الَّتِي جاء بها مُحَمَّدٌ ﷺ حتَّى قال أحد اليهود يوماً لسلمان الفارسي: إِنَّ نبيكم علَّمكم كل شيء، حتَّى كيف تقضون حاجتكم. قال: نعم والله، لقد علَّمنا النبي ﷺ أدب قضاء الحاجة، وأمرنا بكذا وكذا^(١).

ذكر له أَنَّ النبي ﷺ علَّمهم كلَّ شيء، كان يريد أُمَّة جديدة، ذات منهج جديد، وذات قيم جديدة، وذات رسالة جديدة إلى العالم.

تهيئة الله لمُحَمَّد ﷺ :

كان الرسول الَّذي اختاره الله ليقوم بهذه الرسالة العامَّة الخالدة الشاملة هو مُحَمَّدٌ ﷺ، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا وَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ

أَعَدَّهُ اللَّهُ ﷻ ليقوم بهذه الرسالة الضخمة الكبيرة، وَإِنَّ العِظَامَ كُفُوها العِظَماء!

هَيَّا اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ليقوم بهذه الرسالة، اختاره الله، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وهو يختار عن علم، لا يختار عن جهل، ولا عن محاباة، اختار هذا الرسول في هذه البيئة،

(١) رواه مسلم (٢٦٢)، وأبو داود (٧)، والترمذي (١٦)، كلهم في الطهارة، عن سلمان الفارسي.

ومن هؤلاء القوم، من العرب، وفي أرض العرب، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

حال العرب قبل الإسلام:

كان العرب في جاهليّة جهلاء، وفي ضلالة عمياء، ولكنّهم على ما كان بهم من جهالة وضلالة. كانوا من أصفى النَّاس معادن، وكانوا من أذكى النَّاس أنفسًا، عندهم فضائل غلوا فيها حتّى غدت ردائل، فهم في حاجة إلى مَنْ يرد هذه الردائل إلى أصولها.

عندهم شجاعة انتهت إلى تهوّر، وإلى أن يقاتل بعضهم بعضًا، ولكن هذا الدين الجديد في حاجة إلى الشجاعة، وعندهم حماية للجار، وهذا أمرٌ مطلوبٌ للنبيّ الجديد، وعندهم حماية للأقارب، وهذا مطلوبٌ لمُحَمَّد ﷺ وإن كانت العصبية العمياء مردودة!

وعندهم خشية من العار، وحرص على صيانة العرض، ولكن المبالغة في هذا أدّت بهم إلى قتل البنات في الصغر خشية أن يحدث لهنّ في المستقبل ما يجلب عارًا على القبيلة! عندهم فضائل تحوّلت إلى ردائل، ولهذا كانوا في حاجة إلى تربية جديدة، وتوعية جديدة، وتنوير جديد، وكان هذا من مهمّة مُحَمَّد ﷺ.

ولم تكن أرض العرب - أيضًا - أرض ملوك، خصوصًا الحجاز وما حوله، لم يكن فيه ملوك مُتَجَبِّرون، فكانت الحرية موفورة للناس: حرية الكلمة، والتعبير، والاجتماع، واللقاء، إلى آخره، فكان هذا الجو مطلوبًا للدعوة الجديدة.

وكانت اللغة العربيّة هي اللغة التي اختارها الله تعالى لينزل بها أفضل كُتبه، وآخر كتبه: القرآن الكريم، اختار الله أرض العرب لتكون

منبت الدعوة ومحضنها، واختار العرب ليكونوا حملة الرسالة الأولين،
ليحملوا هذه الدعوة إلى العالم.

عناية الله بمُحمَّد ﷺ:

أراد الله أن يؤدّب محمّداً ويُربيه ليربّي به أصحابه، وليربّي أصحابه من بعده الأمم جميعاً، وكان مُحمَّد ﷺ من صغره مثالاً عالياً من الأخلاق الكريمة للإنسان الفاضل.

أراد الله ﷻ لهذا الإنسان الذي يُعدّ ليحمل أعظم رسالة في التاريخ: أن ينشأ يتيم الأب.. أن يموت أبوه وهو في بطن أمّه، حتّى لا يتكل على أحد من صغره فنشأ يتيمًا كما قال الله له: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦].

وكانت أمّه تربيته وتحوطه بعنايتها ورعايتها وحدها وعطفها في السنين الأولى، ستّ سنوات، ثمّ شاء الله لها أن تلحق بأبيه أيضًا، ففقد أباه وهو في بطن أمّه، وهو في السادسة من عمره.

وكفله جدّه عبد المُطَّلِب سيّد مكّة الذي كان يحبّه كلّ الحبّ، ويرعاه كلّ الرعاية، ويتفأّل بمستقبله، ويتنبّأ له بمستقبل عظيم، هذا الجدّ مات أيضًا وهو في الثامنة من عمره، فكفله عمّه أبو طالب شقيق أبيه، وكان رجلًا كثير العيال قليل المال.

شرف العمل والكسب:

وهذا ما جعل محمّداً ﷺ لا يعتمد على عمّه كلّ الاعتماد، خصوصًا بعد أن شبّ عن الطوق، وأصبح في مقدّراته أن يعمل؛ فبدأ يعمل في رعاية الغنم، هذا مجتمع محدود ليست فيه وظائف، وليست فيه أعمال كثيرة، هي أعمال محدودة، منها رعاية الغنم.

وقد أراد الله بهذه المهنة أن يتعلم الرفق، وكيف يسوس الرعية؟ وكيف يصبر على شظف العيش: على حرّ النهار في الصيف، وعلى برد الليل في الشتاء، وعلى طبيعة هذا الجو؟

أراد الله له أن يعتمد على كد يمينه، وعرق جبينه، لا يعتمد على شرف نسبه، وأصالة حسبه، فهو ابن قريش، وابن بني هاشم، وحفيد عبد المطلب، كان يمكنه أن يقول: كيف لمثلي أن يشتغل برعاية الغنم؛ وأنا ابن الذؤابة من قريش؟

ولكنّه وجد الشرف في ممارسة العمل، لا في أن يمدّ يده إلى الآخرين، أو يعيش عالة على عمّه رقيق الحال، كثير العيال، بل أراد أن يقوم بجهد فيما تستطيع أن تفرزه البيئة من أعمال مناسبة لمثله.

نشأ مُحَمَّدٌ ﷺ كما يقولون عصاميًّا.. رجل يحفر في الصخر، ويبذل ما يبذل ليحصل على العيش الكريم، على اللقمة الحلال، دون أن يكون أسيرًا لإحسان أحد، هكذا نشأ مُحَمَّدٌ بن عبد الله ﷺ.

طهارة الأخلاق:

وكان في نشأته هذه موضع التقدير، وموضع الاحترام والرعاية من مجتمع مكة كله، كان صادقًا لا يكذب، أمينًا لا يخون، ثابتًا لا يتلوّن، مؤمنًا بقيم يراها، لم يُعرف عنه أنّه شرب خمرًا، والخمر مباحة متاحة، ولم يُعرف أنّه غازل امرأة، أو عاكس فتاة، أو سار وراء حسناء، أو اشترك في لهو من ملاهي الجاهليّة، وكل شيء في الجاهليّة كان مباحًا، الخمر كان مباحًا، والميسر كان مباحًا، والزنا كان موجودًا، سواء كان سفاحًا أو اتخاذ أخدان.

كان كل هذا موجودًا، ولكن محمدًا ﷺ كان أبعد الناس عنه، فقد كان الله تعالى يُعِدُّه لرسالة، ولذلك تعهده بالعناية والرعاية منذ صباه، فلم يشارك في لهو الجاهليّة بشيء، حتّى إنّهُ فكّر في مرّة أن يحضر عرسًا من الأعراس، ولكنّه قال: «إنّ الله ضرب عليّ النوم فلم أستيقظ حتّى طلعت الشمس»^(١). حتّى هذه الفكرة لم تتمّ، أراد الله أن يحفظه طاهرًا مُطَهَّرًا مُبَرَّأً.

ولذلك حينما قامت الدعوة، وقامت المعارك بينه وبين أهل الجاهليّة، وأهل الشرك، اشتدّ الخصام، واحتدّ الجدل، لم يستطع واحد منهم أن يقول عنه كلمة في شبابه وصباه، لم يوجد مَنْ يقول: أليس هذا هو الَّذي نعرف عنه كذا وكذا؟ ما استطاع أحد أن يمسّه بسوء، فقد كان مُبَرَّأً من كل عيب بشريّ.. كان طاهر السيرة، نقيّ السريرة، محمودًا في حياته كلها، وهذا ما جعل القرآن الكريم يقول له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. نشأ مُحَمَّدٌ ﷺ هذه النشأة.

كان أهل الجاهليّة يُسَمُّونه الأمين، إذا حضر قالوا: أفسحوا المكان للأمين، الأمين قادم. ذلك لأنّه كان أمينًا، حتّى بعد أن جاء بالدعوة، وبعد أن قام بينه وبينهم ما كان من خصومة أدّت إلى الحروب، رغم هذا ظل ثلاثة عشر عامًا في مكّة، ولا يجد أهل مكّة إنسانًا يأتُمُّونه على أنفُس ودائعهم وأغلى ما عندهم إلّا محمدًا ﷺ يضعون ودائعهم النفيسة عنده.

وكان مُحَمَّدٌ ﷺ عند حسن الظنّ به، فلمّا هاجر إلى المدينة كان يمكن أن يقول: هؤلاء النّاس آذوني وأصحابي، وأخرجونا من ديارنا بغير حق إلّا أن نقول: ربنا الله. فلا بدّ أن نأخذ هذه الودائع. لا، لم يقل

(١) سبق تخريجه ص ١٠.

هذا، ولكنّه ردّ الودائع، أبقي عليّ بن أبي طالب بعده، وأمره أن يردّ الودائع إلى أهلها؛ فلا عجب أن يلقبونه بالأمين.

كما لم يُجرب على مُحَمَّد ﷺ خلال نشأته كذبة في أمور الحياة، لم يكن ليكذب مرّة واحدة، ولذلك حينما بعثه الله تعالى بهذه الرسالة، وأمره أن يُنذر عشيرته الأقربين، وأن يُبلغ قومه هذه الدعوة، ذهب إلى الصّفا، ووقف على هذه الهضبة المرتفعة، ونادى بطون قريش: «يا بني عبدِ مناف، يا بني مَخْزُوم، يا بني عَدِيّ، يا بني فُلان، يا معشرَ قُرَيْش». فاجتمع النَّاس عليه من كل حذب وصبوب، فقال لهم: «أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تُغيّر عليكم؛ أكنتم مُصَدِّقِي؟». فنظروا وقالوا: نعم؛ ما جرّبنا عليك كذباً. قال: «فإنّي رسولُ الله إليكم خاصّة، وإلى النَّاس كافّة». لم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً بعد أن أقرّوا أنّهم لم يُجربوا عليه كذباً، لكن الذي وقف في وجهه وتحداه هو عمّه أبو لهب الذي قال له: تَبّاً لك سائر اليوم؛ ألهذا جمعتنا^(١)؟ تجمع هذه الجموع لتقول لها هذا الكلام؟ كأنّ هذا أمراً لا يستحق، وأنزل الله دفاعاً عن رسوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١ - ٥].

نشأة مُحَمَّد ﷺ:

كانت نشأة مُحَمَّد بن عبد الله دليلاً على إعداد الله تعالى له لهذه الرسالة العظيمة التي كُلف حملها وتبليغها إلى النَّاس، فلم تكن هذه النشأة نشأة عادية، بل كانت نشأة ربّانيّة، تعهّده يد الله ﷻ طوال حياته

(١) متّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٧٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠٨)، عن ابن عباس.

هذه قبل سنّ الأربعين، كما قال الله تعالى له: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]. وجدك يتيمًا فأواك، فكفلك جدك أولًا، وكفلك عمك ثانيًا.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾: الضلال هنا: التّحير فيما يراه أمامه من ضلال النّاس، من فساد العقيدة، ومن فساد الأخلاق، وفساد السلوك، وفساد الأنظمة الاجتماعيّة؛ ماذا يفعل فيها؟ الإنسان المخلص يحتار: ماذا يفعل إذا رأى مجتمعًا ضالًّا فاسدًا من حوله، وهو لا يملك من الأمر شيئًا؟ وما كان يرجو أن يُلقى إليه الكتاب، وما كان ينتظر أن يُوحى إليه، إلّا رحمة من ربه: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. ولذلك قال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾. أي: حائرًا تلتمس طريق الخلاص فلا تعرفه، فهذاك بالوحي.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾: وجدك عائلًا تشكو العيلة والفقر فأغناك الله.

أغناك الله أولًا برعاية الغنم، ثمّ بالتجارة، ثمّ في تجارة خديجة بنت خويلد التي سمعت عن أخلاقه، وعن أمانته، عن حسن سيرته، حينما شاركها ليضارب بمالها، ويرحل به، ويأتي إليها بأعظم الأرباح، لا يخون، ولا يغش، ولا يُزيّف، يأخذ ما له، ويرد إليها ما لها من حق.

الزواج بخديجة رضي الله عنها:

وكانت خديجة قد سمعت من غلامها ميسرة عن هذا الرجل ما حبّبه إليها، وجعلها تتمنّى أن يكون رجلها، ويكون بعلمها، وفعلاً توسّطت بعض النساء عند النبي صلى الله عليه وسلم ليتزوج من خديجة بنت خويلد، وتزوّجها، وعاشا أسعد ما يكون الزوجان، رغم أن خديجة لم تكن بالبكر، ولم

تكن بالصغيرة السن. قالوا: أنّها كانت تكبره بنحو خمسة عشر عامًا. وكانت متزوجة من قبله، وكان لها أولاد من زوجها السابق، ومع هذا عاش النبي ﷺ معها سعيدًا، فقد كان زواج إنسان من إنسانة، لم يكن ينظر إلى مالها، ولم يكن ينظر إلى سنّها.

وكانت رضي الله عنها هي أوّل مَنْ شَدَّ على يده، وربّت على كتفه، ووقف بجانبه، يشدُّ أزره، ويسند ظهره أوّل ما أتاه الوحي في غار حراء في السابع عشر من رمضان، وكان عمره أربعين سنة، رجع ﷺ خائفًا يرتعش، يرجف فؤاده ممّا حدث بينه وبين جبريل، يأتي إلى زوجته يقول: «زملوني زملوني». غطّوني، غطّوني؛ يشعر ببرودة، وحكى لزوجته ما جرى؛ فماذا فعلت خديجة؟

لو كانت امرأة كالنساء الجاهلات لخافت عليه أن تكون (العفاريت قد ركبت) أو الشياطين قد اجتالته، أو نحو ذلك، ولكنها قالت له في ثقة المؤمنة، وإيمان الواثقة، قالت بسلامة الفطرة، ورشد الإنسانية العاقلة: والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنّك لتصل الرّحم، وتحمّل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر^(١). عرفت من سنن الله في خلقه أنّ مثل هذا لا يمكن أن يُخزيه الله، ولا يمكن أن يتركه للشياطين أو مردة الجن.

ولم تكتف بهذا، بل أرادت أن تؤكد موقفها منه، وذهبت به إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل - وكان من الذين قرؤوا الكتب القديمة: التوراة والإنجيل وغيرها - وقصّ عليه قصّته، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى - أي: هو الوحي الإلهي - وليتني أكون حيًا حينما

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، عن عائشة.



يُخرجك قومك فأنصرك نصرًا مؤزرًا. فقال: «أومُخرجي هم؟!». قال ذلك براءة الإنسان المخلص الذي لم يمس قومه بسوء، وعاش مُحَبَّبًا بينهم، أمينًا صادقًا، «أومُخرجي هم?!». فقال له: ما جاء أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي^(١). لا بد أن يُعَادَى، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

هذه هي نشأة مُحَمَّد ﷺ، وهي نشأة دالة أصدق الدلالة على أنه رجل تُعَدُّه العناية الإلهية لعبء عظيم، ولرسالة كبرى، هي الرسالة التي أخرجت النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، والتي ابتعث أهلها ليُخرجوا النَّاسَ مِنَ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمِنْ ضَيْقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ.

وإن شاء الله سنكمل الحديث عن مُحَمَّد ﷺ في الخطب القادمة.
أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم؛ فاستغفروه من كل ذنب، وادعوه يستجب لكم.

* * *

(١) جزء من الحديث السابق.

الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

تابعنا ما جرى في كوسوفا من حربٍ ضُرُوسٍ شَنَّها حلف الأطلسي على يوغوسلافيا وعلى الصرب، وانتهت بإيقاف هذه الحرب، فهل كسب المسلمون أم خسروا في هذه الحرب؟

اتَّفَقوا على أن ينشروا جنود حلف الأطلسي، ومعهم الروس في أرض كوسوفو، وأن يعود الكوسوفيُّون إلى بلدهم، فهل سيجدون بلدهم كما تركوها؟ أم يجدون أرضًا قد أُحْرِقت، وبيوتًا قد خُرِّبت، ومساجد ومدارس قد دُمِّرت، يجدون كل شيءٍ تغيَّر؟ ومن سيعود من هؤلاء الكوسوفيين؟

لقد سألوا بعض النَّاس، ولا زلت أذكر إجابة تلك المرأة التي قالوا لها: إنَّ جيوش الأطلسي ستمتلى بها أرض كوسوفا، وستعيشون في حمايتهم. فقالت لهم بصريح العبارة: لو اجتمعت جيوش الأرض كلها في كوسوفا فإنَّ العيش مع الصرب مستحيل.

ثم الآن عشرات الآلاف من أبناء كوسوفا - بل مئات الآلاف - ذهبوا إلى أوربا، وأمريكا، وكندا، وأستراليا، والبلاد المختلفة، الشباب، والمُتعلِّمون، وأصحاب الخبرة، هؤلاء كلهم تركوا البلد؛ ما الذي يُعيدهم إلى بلدٍ لا يُضمن فيها أمن ولا اطمئنان، لا على روح، ولا على عرض، ولا على مال، ولا على مُقدَّسٍ من المُقدَّسات؟

ذهب هؤلاء، وفتح الأوربيُّون والأمريكيُّون لهم الأبواب، القضية كأنما يراد تفريغ هذا البلد من أهله حقيقةً، ولا يبقى فيه إلَّا الضعفاء،

وإلا الذين لا يستطيعون أن يُنشئوا بلداً، وأن يقوموا بنهضة، وأن يحيا ما مات، وأن يُعوضوا ما فات، هذه قضية كوسوفا، ماذا أراد حلف الأطلسي بهذا؟ هل أراد حماية المسلمين حقاً؟

إنَّ المسلمين قد خسروا كثيراً بهذا، قُتل منهم مَنْ قُتل، وسيكشف التاريخ عن المقابر الجماعية الهائلة، ماذا يُجديهم أن يُحاكم رئيس يوغوسلافيا أمام محكمة العدل الدولية؟ هل يحيا الموتى؟ هل يعيدوا المقتولين؟ إنَّ المسلمين قد أصيبوا بمصيبة كبيرة في هذا البلد.

ولو كان حلف الناتو يقصد حماية المسلمين حقاً، فلماذا لا يتحرك الآن في قضية عادلة، قضية كشمير، وهي من أعدل القضايا، كان يجب أن تكون كشمير من حظ باكستان حسب التقسيم، بأنَّ البلاد التي تكون ذات أغلبية مسلمة تكون مع باكستان، والبلاد ذات الأغلبية الوثنية تكون مع الهند، وكشمير بلد ذات أغلبية مسلمة، فيها أكثر من تسعين في المائة (٩٠٪) من أهل الإسلام، فكان ينبغي أن تُضمَّ إلى باكستان، ولكنَّه منطلق القوة الغاشمة، وعُلِّقت القضية، ولا زالت من القضايا المُعلَّقة في هيئة الأمم، وفي مجلس الأمن؛ هل يستطيع الناتو أن يتدخل في هذه القضية، ويُعيد الحقَّ إلى أهله، ويرد الأمور إلى نصابها؟

ما أظنهم يفعلون؛ لأنَّ لهم في كوسوفا، وفي منطقة البلقان أهدافاً معيّنة، يريدون باسم حماية المسلمين أن يُقلموا أظافر الإسلام، حتَّى لا يمتدَّ نورُه، وحتَّى لا يقوى أهله، وحتَّى لا ترتفع رايته، وحتَّى لا ينتشر في الآفاق من حوله، يريدون أن تظلَّ أوروبا مسيحية، وألا يرتفع فيها علم الإسلام، هذا في الحقيقة هو ما يريدونه، لم يقولوه علناً، ودلَّت على ذلك تقاريرهم، وصرَّح به بعضهم.

ونريد أن نقول لهؤلاء: إِنَّ الإسلام سيبقى في كوسوفو، وسيبقى في البوسنة والهرسك، وسيبقى في ألبانيا، وسيبقى في أوروبا الشرقية، وسيبقى في أوروبا الغربية، وسينتشر الإسلام، شاؤوا أم أبوا، رضوا أم سخطوا، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿[التوبة: ٣٢، ٣٣].

لماذا يكرهون الإسلام؟! والله إِنَّ الإسلام رحمة لهم، والإسلام هو سفينة الإنقاذ لما يُعانونه من شقاء ونكد، الإسلام هو طوق النجاة من هذه الفلسفات المادية، والإباحية، والنفعية التي يعيشونها، والتي توشك أن تُحوّل حياتهم جحيمًا إذا استمرت على هذا المنوال.

نسأل الله تعالى أَنْ يُفَقِّهَنَا فِي دِينِنَا، وَأَنْ يُبَصِّرَنَا بِحَقَائِقِهِ، وَأَنْ يُنِيرَ لَنَا الطَّرِيقَ، اللَّهُمَّ افْتَحْ لَنَا فَتْحًا مَبِينًا، واهْدِنَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَاَنْصُرْنَا نَصْرًا عَزِيزًا، وَأَتِمَّ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ، وَأَنْزِلْ فِي قُلُوبِنَا سَكِينَتَكَ، وَاَنْشُرْ عَلَيْنَا فَضْلَكَ وَرَحْمَتَكَ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.





مُحَمَّدُ الرَّسُولُ الْمُجَاهِدُ (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

الاحتفال بمولد الرسالة ليس بدعة:

كَلَّمَا أَهْلَ عَلَيْنَا شَهْرَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، هَبَّتْ عَلَيْنَا ذِكْرِيَّاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذِكْرِيَّاتُ مَوْلَدِهِ ﷺ؛ فَفِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ وُلِدَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَفِيهِ هَاجَرَ. هَذَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ مِنْ حَقِّهِ عَلَيْنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ سِيرَتَهُ كُلَّمَا جَاءَتْ مَنَاسِبَةٌ مِنَ الْمَنَاسِبَاتِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْإِحْتِفَالِ الْمُبْتَدَعِ؛ فَنَحْنُ إِنَّمَا نَذَكِّرُ النَّاسَ بِهَذِهِ السَّيِّرَةِ، وَنَرْبِطُهُمْ بِهَذِهِ الرَّسَالَةِ الْمَحَمَّدِيَّةِ، وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يَذْكُرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي كُلِّ حِينٍ، فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ يَقُولُ: «كُنَّا نَعْلَمُ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ وَسَرَائِيهِ كَمَا نَعْلَمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ» (٢).

يُرَوُّونَ لَهُمْ مَا حَدَّثَ فِي بَدْرٍ، وَمَا حَدَّثَ فِي أُحُدٍ، وَمَا حَدَّثَ فِي الْخَنْدَقِ، وَفِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ إلخ.

(١) أُلْقِيَتْ بِمَسْجِدِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ بِالدُّوْحَةِ، فِي ١٣ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ١٤٢٢هـ، الْمَوْافِقَ ٨ يُونِيُو ٢٠٠١م.

(٢) رَوَاهُ الْخَطِيبُ فِي الْجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّائِي (١٥٩١).

فلذلك علينا أن نهتدي بالصَّحابة، وننتهز الفرصة بعد الفرصة، لنُذَكِّرَ النَّاسَ بالرسول الكريم ﷺ.

حينما نحتفل بمولده ﷺ، ففي الحقيقة أننا لا نحتفل بمولد شخص، إنما نحتفل بمولد رسالة، رسالة ظهرت على يد رسول الله ﷺ.

فحديثنا عن الرسول باعتباره مرسلاً لا باعتباره شخصاً، أو باعتباره شخصاً أعدته العناية الإلهية ليحمل الرسالة الخاتمة للبشرية، ويحمل الرسالة العالمية، التي امتدت طويلاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عَرْضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدُّنيا والآخرة^(١)، وصدق الله العظيم إذ يقول لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

لماذا الحديث عن الرسول المجاهد؟

عن هذا الرسول، وعن هذه الرسالة يكون حديثنا أيُّها الإخوة، ولن نتحدَّث في هذه المناسبة إلا عن جانب واحد من جوانب السيرة النبوية، الشاملة الجامعة العاطرة، وهو جانب الجهاد في سبيل الله، نتحدَّث عن محمَّد المجاهد، لن نتحدَّث عن محمَّد الزاهد، ولا عن محمَّد العابد، ولا عن محمَّد الأخلاقي، ولا عن محمَّد في جوانب كثيرة جداً.

ولكن نتحدَّث عنه في جانب الجهاد، فما أحوج الأمة في هذه الآونة

(١) من كلام الإمام الشهيد حسن البنا، انظر كتابنا: الخصائص العامة للإسلام ص ١٠٥، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

التي تتخاذل فيها عن واجبها نحو نصره إخوانها في المسجد الأقصى!
ما أحوجها إلى أن تُحدّث عن الجهاد وتُذكّر بالجهاد!

كان رسول الله ﷺ سيّد المجاهدين، كما كان في كلّ شيء هو السيّد والإمام، والقائد والمُقدّم والمُفضّل على غيره، في كلّ ناحية من نواحي حياته: هو الأوّل: هو العابد الأوّل، والزاهد الأوّل، والمجاهد الأوّل، هو الأوّل كلّ شيء يتباهى به النّاس، ويتغنّى به النّاس، فكان هو المُجاهد الأوّل.

مراتب الجهاد عند ابن القيم:

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ذكر في الجهاد ثلاث عشرة مرتبة: جهاد النّفس أربع مراتب، وجهاد الشّيطان مرتبتان، وجهاد الكُفّار أربع مراتب، وجهاد الظالمين والمُبتدعين والفسقة ثلاث مراتب^(١).

النّبي ﷺ جاهد نفسه في سبيل الله:

والنّبي ﷺ كان حُظّه الأوفى من هذه المراتب كلّها، جاهد نفسه في سبيل الله، ليكون خُلّقه القرآن كما وصفته عائشة^(٢)، فلا بدّ أنّه كان ممّن تحقّق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ جاهد نفسه الأمّارة بالسوء حتّى أصبحت نفساً لوّامة، ثم نفساً راضية مطمئنة، ﴿يَتَأَيَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧].

كانت نفسه نفساً مطمئنة، باليقين بالله، بعد طول جهاده لنفسه، منذ كان شابّاً، بل منذ كان صبيّاً، لم يُعرف عنه أنّه دخل فيما يدخل فيه أهل

(١) انظر: زاد المعاد (٥/٣ - ١٢)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، ط ٢٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١).

الجاهليّة، لم يسجد لصنم، ولم يشرب خمرًا، ولم يشارك في لهو الجاهليّة^(١)، بل كان إنسانًا صنّع على عين الله، واصطنعه الله لنفسه، واصطفاه من بين خلقه، فربّي تربية خاصّة، أدّبه ربّه فأحسن تأديبه، وعلمّه فأكمل تعليمه، وأعدّه للرسالة العظمى.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٦، ٧].

هداه الله وهو في حيرة الجاهليّة، استخرجه الله من برائن الجاهليّة، ليعدّه ليكون الرسول الأعظم، ليكون حامل الرسالة العامّة الخالدة إلى البشريّة إلى أن تقوم الساعة.

جاهد نفسه في الله، وجاهد شيطانه، حتّى أسلم شيطانه، يقول النَّبِيُّ ﷺ: «ما من أحدٍ منكم إلّا وله شيطان».

قالوا: حتّى أنت يا رسول الله؟!

قال: «حتّى أنا، إلّا أنّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلّا بخير»^(٢).

(١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بقبیح مما كان أهل الجاهلية يهْمُون به، إلّا مرتين من الدهر، كليهما يعصمني الله منهما. قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في أغنام أهله يرعاها: أبصر إليّ غنمي حتّى أسمر هذه الليلة بمكّة، كما يسمر الفتیان. قال: نعم. فخرجت، فجت أدنى دار من دور مكّة، سمعت غناء، وضرب دفوف، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة، رجل من قريش تزوّج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتّى غلبتني عيني، فما أيقظني إلّا حرّ الشمس، فرجعت. فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت، فسمعت مثل ذلك، فقلت لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتّى غلبتني عيني، فما أيقظني إلّا مسّ الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً». قال رسول الله ﷺ: «فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتّى أكرمني الله بنبوّته». سبق تخريجه ص ١٠.

(٢) رواه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٤)، وأحمد (٤٣٩٢)، عن ابن مسعود.

حَتَّى الشَّيْطَانِ اسْتَجَابَ لَهُ وَأَطَاعَهُ، وَأَصْبَحَ لَا يَأْمُرُهُ إِلَّا بِخَيْرٍ، أَصْبَحَ يَنْبُوغًا مِنْ يَنْابِيعِ الْخَيْرِ، يَتَدَفَّقُ بِالْهُدَى فِي كُلِّ مَجَالٍ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

جهاد في كل جهة وبكل سلاح:

هذا هو مُحَمَّدٌ ﷺ، جاهد نفسه في الله، وجاهد شَيْطَانَهُ فِي اللَّهِ، وجاهد المشركين والمنافقين كما أمره رَبُّهُ ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]. جاهد الكفار بنفسه، وجاهدهم بماله، وجاهدهم بلسانه، وجاهدهم بيده، بكل أنواع الجهاد، قال الله تعالى له، وهو في مكة في سورة الفرقان: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ * فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا * [الفرقان: ٥١، ٥٢].

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾، أي: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾، هذا الجهاد الكبير هو: جهاد الدعوة والبيان والتبليغ عن الله تعالى.

لم تكن مجابهة المجتمع الجامد بالأمر السهل:

ولا تظنُّوا - أيُّها الإخوة - أَنَّ هَذَا كَانَ أَمْرًا سَهْلًا؛ إِنَّ مَجَابَهَةَ مَجْتَمَعٍ وَثَنِي مُصِرٌّ عَلَى الْوَثْنِيَّةِ، مُقْتَنِعٌ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ، لَا يَحَاوِلُ أَنْ يُمْتَحِنَ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ، كَانَتْ أَمْرًا صَعْبًا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

كان هذا أمرًا عسيرًا.

هذا المجتمع الجامد الذي وقف على التقليد، قلَّد تقليدًا أعمى، لم تكن مجابهته بالأمر السهل.

حينما يقول لهم: إِنَّ آلِهَتَكُمْ هَذِهِ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، إِنَّهَا لَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، وَلَا تُعْطِي وَلَا تَمْنَعُ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥]، كيف تعبدون هذه الأشياء التي ليس لها ما للإنسان ولا للحيوان؟!!

هذه الحجارة الصماء.

ولكنَّ القوم قد أغلقوا عقولهم فلا يعقلون، وأغلقوا أعينهم فلا يبصرون، وأغلقوا آذانهم فلا يسمعون، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاْعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥].

هكذا كان موقفهم، وهكذا ظلَّ رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً يدعوهم إلى الله لا يكفُّ، دعاهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاً، وصدع بما أمره الله حينما قال له الله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وجمعهم عند الصفا وقال لهم: «يا معشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تُغَيَّرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقِي؟».

لو قلتُ لكم: إنَّ وراء هذا الوادي القريب عدوًّا جاء بخيله ورجله، يريد أن يُغَيَّرَ عليكم، أكنتم مُصَدِّقِي؟

قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك كذباً.

قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد».

وهنا قام عمُّه أبو لهبٍ وقال له: تَبَّ لك سائر هذا اليوم ألهذا جَمَعَتْنَا؟

ونزل قول الله تعالى يدافع عن رسوله وحبيه ﷺ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَأُمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١ - ٥]^(١).

معركة بين الرسول ﷺ وقومه:

قامت معركة بين الرسول وقومه، الرسول يدعو إلى التوحيد، وهم يدعون إلى الوثنية.

يدعو إلى الحق، وهم متمسكون بالباطل.

يدعو إلى الجنة، وهم يدعونه إلى النار.

ولكنه ﷺ ظلّ متمسكاً بعُرى دعوته، لم يتزحزح قيد شعرة عن هذه الدعوة، حاولوا أن يغروه بالمال، بالمنصب، بالملك، بالسيادة، ولكنّه رفض ذلك كلّهُ.

جاءه عُتبة بن ربيعة، وعرض عليه وقال له: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا - جعلناك سيّداً - حتّى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً من الجن (يعنون عفريت يتسلّط عليك). جئنا لك بالأطباء لنعالجك، إن كنت... وإن كنت... فماذا كان ردُّ النبي ﷺ؟

لم يرد عليه بشيء، وإنّما قرأ عليه آيات من القرآن من أوائل سورة فصلت: ﴿حَمَّ * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كَذَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٧٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠٨)، عن ابن عباس.

أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّنَا
عَمِلُونَ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا
إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۖ وَبَلِّغْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ ﴾ [فُصِّلَتْ: ١-٧] إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٣] فَفَزَعَ
الرَّجُلُ وَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي، أَنَا شَدَّكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ أَنْ تَكْفَ.

وعاد إلى قومه بوجهٍ غير الوجه، وقال لهم: دعوا مُحَمَّدًا وشأنه.
فقالوا له: سحرك مُحَمَّدٌ ذهب مندوبًا لهم ليعرض عليه هذه
العروض، عساه أَنْ يَخْتَارَ واحدًا منها ولكنه أسمعته شيئًا آخر.
قال لهم: هذا رأيي^(١).

قريش تقاطع مُحَمَّدًا وأصحابه مقاطعة اقتصادية واجتماعية:

رفض مُحَمَّدٌ ﷺ المال والجاه والملك، وكلَّ ما يتطلَّع إليه النَّاسُ؛
لأنَّه ما كان يريد مالًا ولا جاهًا ولا دنيا، إنَّما كان يريد أَنْ يبلِّغَ دعوة ربِّه
إِلَى النَّاسِ، هذا ما يريده، ما كان يريد الدنيا، لو أراد الدُّنْيَا لَقَبِلَ
ما عرضه هؤلاء.

وظلَّ يكافح، ويصبر على الأذى، هو وأصحابه، حَتَّى قَرَّرَت قريش
أَنْ تقاطع مُحَمَّدًا، وتقاطع أصحابه، وتقاطع من يحميه ويدافع عنه، مثل
أبي طالب عمه، الَّذِي قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ يظلَّ على دين قومه، وكانت هذه حكمة
اللَّهِ ليحميه بجاهه.

(١) رواه ابن أبي شيبه في المغازي (٣٧٧١٥)، وأبو نُعَيْم في دلائل النبوة (١٨٢)، والبيهقي في
دلائل النبوة (٢٠٢/٢ - ٢٠٤)، عن جابر.

قَرَّروا أَنْ يَقَاطَعُوا هَؤُلَاءِ مَقَاطَعَةً اقْتِصَادِيَّةً واجْتِمَاعِيَّةً، أَي: لَا يَبِيعُونَ لَهُمْ، وَلَا يَشْتَرُونَ مِنْهُمْ، وَلَا يُزَوِّجُونَهُمْ، وَلَا يَتَزَوَّجُونَ مِنْهُمْ، وَحُوصِرُوا فِي شُعْبٍ يُسَمَّى: شُعْبُ أَبِي طَالِبٍ، دَخَلَهُ الْمُسْلِمُونَ كَافَّةً، وَدَخَلَهُ مَعَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ مُسْلِمُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، الْمُسْلِمُ دَخَلَهُ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ، وَالْكَافِرُ دَخَلَهُ عَصَبِيَّةً لِمُحَمَّدٍ وَلَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي قَوْمِهِ.

وَأَصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِابْتِلَاءٍ شَدِيدٍ نَتِيجَةُ هَذِهِ الْمَقَاطَعَةِ، حَتَّى سُمِعَ بَكَاءُ صَبْيَانِهِمْ مِنْ بَعِيدٍ مِنَ الْجُوعِ، وَحَتَّى أَكَلَ الْمُسْلِمُونَ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ، حَتَّى دَمِيتَ أَشْدَاقُهُمْ، وَجُرِحَتْ أَفْوَاهُهُمْ مِنَ الشَّجَرِ الَّذِي فِيهِ الشُّوكُ، حَتَّى فَرَّجَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَعْدَ نَحْوِ ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ.

هَيَّا اللَّهُ رَجَالًا هُبُّوا وَتَحَمَّسُوا مِنْ أَجْلِ الرُّسُولِ وَأَصْحَابِهِ، وَمِنْ أَجْلِ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ، وَطَلَبُوا نَقْضَ الصَّحِيفَةِ الظَّالِمَةِ الْقَاطِعَةِ الْجَائِرَةِ، الَّتِي تَعَاهَدُوا فِيهَا عَلَى مَقَاطَعَةِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَعَلَّقُوهَا فِي جُوفِ الْكَعْبَةِ، وَشَقُّوا هَذِهِ الصَّحِيفَةَ^(١).

عام الحزن^(٢):

وَلَكِنَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ انْتَهَى مِنْ هَذِهِ الْمَحْنَةِ، دَخَلَ فِي مَحْنَةٍ أُخْرَى؛ فَقَدْ فَقَدَ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ الَّذِي كَانَ سِنْدًا لَهُ فِي الْخَارِجِ، وَفَقَدَ زَوْجَتَهُ خَدِيجَةَ الَّتِي كَانَتْ سِنْدًا لَهُ فِي الدَّخْلِ، وَسَمِّيَ هَذَا الْعَامُ: عَامَ الْحَزْنِ، وَأَذَاهُ قَوْمُهُ بِمَا لَمْ يَكُونُوا يَقْدِرُونَ عَلَى إِيْذَائِهِ بِهِ أَيَّامَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَاشْتَدُّوا فِي إِيْذَائِهِ وَإِيْذَاءِ أَصْحَابِهِ.

(١) الروض الأنف للسهيلي (١٧٤/٣) وما بعدها، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، والسيرة النبوية لابن كثير (٤٣/٢ - ٧١)، تحقيق مصطفى عبد الواحد، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٦م.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٤١٦/١ - ٤٢٢)، وزاد المعاد لابن القيم (٢٨/٣).

رحلة الطائف^(١):

واضطرَّ ﷺ أن يخرج من مكّة، ويذهب إلى مكان آخر عسى أن يجد فيه قلوباً مفتحة، وآذاناً صاغية، فذهب إلى الطائف، أقرب المدن إلى مكّة، وإلى أهله من بني ثقيف، وظلَّ في الطائف نحو عشرة أيام لا يجد كبيراً ولا شريفاً إلّا وعرض عليه دعوته، ولكنهم آذوه أشدَّ الإيذاء، وقابلوه أسوأ مقابلة، ولم يجد عندهم ما يمكن أن يقدم شيئاً لهذا الدين الجديد، بل سلّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم، وجلسوا صفيين عن يمين وشمال، يرمونه بالحجارة حتّى دُميت قدماه، ومعه مولاه زيد بن حارثة يدافع عنه، حتّى شُجَّ في رأسه، ودُمي في قدميه، وأكثر من دمي القدمين وجرح القدمين أنّه دمي قلبه، وجرح قلبه؛ نتيجة هذه المقابلة السيئة التي لم تعرف له قدراً، حتّى قال له بعضهم: ألم يجد الله في جزيرة العرب غيرك حتّى يرسلك؟!!

وقال له آخر: إن كنت صادقاً، فأنت أكبر من أن أكلمك! وإن كنت كاذباً، فأنت أحقر من أن أكلمك! فلن أكلمك صادقاً أو كاذباً.

وقال الثالث: لأمزقن أستار الكعبة^(٢).

وعاد من هذه الرحلة كسير الخاطر، حزين القلب، وشكا إلى ربّه تعالى - وإلى الله المشتكى وهو المستعان - شكا شكواه الأسيفة الرقيقة الحزينة، التي نحفظها كلّنا حينما قال: «اللهمّ إنّي أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤١٦/١ - ٤٢٢)، وزاد المعاد لابن القيم (٢٨/٣).

(٢) القصة ذكرها ابن هشام في سيرته (٤٢٠/١)، وابن حبان في السيرة النبوية (٩١/١)، نشر الكتب الثقافية، بيروت، ط ٣، ١٤١٧هـ، وانظر: الروض الأنف (٢٤/٤)، وعيون الأثر (١٥٥/١)، نشر دار القلم، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟! إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن يحلّ عليّ غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١).

بعد المحنة منحة:

وقد أكرمه الله بعد ذلك بأن أسلم على يديه في هذه الرحلة عدّاس خادم بستان عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة^(٢)، وأسلم على يديه الجنّ، الذين جاء فيهم ما جاء في سورة الأحقاف وفي سورة الجنّ ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢].

كأنّ الله تعالى يقول له: إذا أعرض عنك الإنس، فلقد أقبل عليك الجن. ثمّ عوّضه برحلة أفضل من هذه الرحلة، وعوضًا عن هذه الرحلة كان الإسراء به إلى المسجد الأقصى، ثمّ من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا، إلى سِدرة المنتهى، كانت رحلة الإسراء ورحلة المعراج، رحلة أرضية ورحلة سماوية.

الجهاد الكبير طوال ثلاثة عشر عامًا:

عاش رسول الله ﷺ طوال ثلاثة عشر عامًا في مكّة، يجاهد جهاد التبليغ والبيان، وجهاد الصبر والاحتمال على ما يلقي من الأذى،

(١) سبق تخريجه ص ٧١.

(٢) سيرة ابن هشام (٤٢١/١)، والسيرة النبوية لابن جرّار (٩١/١).

وفي ذلك نزل قول الله تعالى في أوائل سورة العنكبوت: ﴿الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامِنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٦].

هذا الجهاد كان جهاد الاحتمال والصبر والمثابرة في ذات الله، وفي سبيل الله، وفي سبيل دعوة التبليغ، ودعوة الله، كان هذا الجهاد الكبير، ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

طوال ثلاثة عشر عامًا جاهد النبي في تبليغ الدعوة، ثم هاجر إلى الله تعالى، أذن الله له بالهجرة إلى المدينة، إلى يثرب التي سميت بعد ذلك المدينة، حيث بايع الأوس والخزرج بيعتين: بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية، وعاهدوهم وعاهدوه على أن يهاجر إليهم، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وذرايرهم وأنفسهم^(١).

وهاجر رسول الله ﷺ، هاجر من مكة وقال: «والله، إِنَّكَ لأَحَبُّ بلاد الله إلى الله، وأَحَبُّ بلاد الله إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت»^(٢).

هكذا قال لها.

(١) رواه أبو نُعيم في الدلائل (٢٢٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤٥٤/٢)، عن عروة بن الزبير.

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٩٢٦)، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وابن حبان

في الحج (٣٧٠٩)، والحاكم في المناسك (٤٨٦/١)، وصححه إسناده، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٨٩)، عن ابن عباس.

مرحلة الجهاد المسلح:

ذهب النبي ﷺ إلى مهجره الجديد، إلى دار الإسلام الجديدة، إلى قاعدة الإسلام الصلبة، إلى يثرب، أو إلى المدينة التي نورها قدومه ﷺ، وحوله المهاجرون والأنصار، وهنا بدأت مرحلة جديدة من الجهاد، إنه الجهاد المسلح، إنه الجهاد بالسيف، إنه الجهاد بملاقاة الأعداء الذين أحاطوا به من كل جانب، وكما قال النبي ﷺ لأصحابه: «لقد رمتكم العرب عن قوسٍ واحدة»^(١).

كلُّ العرب تجمَّعوا عليهم، ووقفوا ضدهم، اجتمع الباطل كله بخيله ورجله، اجتمعوا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، وكان عليهم أن يعدُّوا العدة لملاقاة عدوِّ الله وعدوِّهم كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأعدَّ النبي ﷺ ما استطاع لهذا الجهاد الدامي وهذه المرحلة الشديدة والقاسية، من مراحل الدعوة إلى الله تعالى، وكان هو في مقدِّمة المجاهدين.

هَيَّأَ اللَّهُ لِيَكُونَ الْمَجَاهِدُ الْأَوَّلُ:

وقد هَيَّأَ الله له أسباب الجهاد، وأسباب القيادة حتَّى يكون المجاهد الأوَّل، كان عنده عدَّة الجهاد، كان عنده الجسم القوي، ليس ذلك الجسم المترف، أو ذلك الذي قال فيه الشاعر:

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٧٠٢٩)، والحاكم في التفسير (٤٠١/٢)، وصحح إسناده. ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٢٣٧): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات. عن أبي بن كعب.

خَطَرَاتُ النَّسِيمِ تَجْرَحُ خَدَيْهِ ۖ وَلَمْسُ الْحَرِيرِ يُذْمِي بَنَانَهُ^(١)

بل جسم تعوّد الخشونة؛ رعى الغنم لأهل مكّة^(٢)، واشتغل بكّد يمينه وعرق جبينه.

الله هيّاه لهذا، هيّاه ليتلقى الحياة بخيرها وشرّها، ويجرّبها بحلوها ومرّها، شاء الله أن يموت أبوه وهو في بطن أمّه، وأن تموت أمّه وهو في السادسة من عمره، وأن يموت جده - سيّد مكّة - وهو في الثامنة من عمره، ليلاقى الحياة ويقاسيها، بما فيها من ألوان الألم والعذاب، ويكسب قوته بنفسه، ليس كأولاد الذوات، وأولاد الأسر الكبيرة، وهو من أسرة كبيرة، ولكنّ أباه لم يترك له مالاً؛ أبوه مات في العشرين من عمره لم يكوّن ثروة، وكان عمّه أبو طالب كثير العيال، وليس عنده مال كثير، فشاء الله أن يجابه الحياة بنفسه، ويعمل بنفسه، ويرعى الغنم، ويتعلّم في جوّ البادية، وجوّ الصّحراء، وجوّ المراعي.

هكذا أراد الله لنبيه ﷺ أن ينشأ هذه النشأة، ويعيش على أقلّ القليل، على ما خشن من العيش، على ما قلّ من الطعام والشراب، ولذلك كان جسمه معدّاً للجهاد في سبيل الله.

كان ذا جسم قويّ، حتّى إنّ أحد المصارعين المعروفين، واسمه رُكّانة أراد أن يصارعه ﷺ، وجعل إذا غلب محمّداً يأخذ منه شاة، وإذا

(١) من شعر شهاب الدين الإغزالي، كما في نفح الأزهار في منتخبات الأشعار لشاكر البتلوني ص ٩، تحقيق إبراهيم اليازجي، المطبعة الأدبية، بيروت، ط ٣، ١٨٨٦م.

(٢) إشارة إلى حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلّا رعى الغنم». فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم؛ كنت أرهاها على قراريط لأهل مكّة». رواه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢).

غلبه هو أعطاه شاة، ولكن النبي ﷺ صارع رُكَّانة فصْرعه، ثم تنازل له عن الشاة وقال له: «ما كان لنا أن نصرعَكَ ونأخذ غَنَمَكَ»^(١)، ودخل الرجل في الإسلام.

المجاهد الأول في ميدان المعركة:

كان النبي ﷺ يركب الفرس مُعْرَورِيًّا لا سَرْجَ له ولا لِحَافٍ^(٢).

كان الجسم جسمًا قويًّا خشنًا معدًّا للجهاد في سبيل الله، وكانت نفسه نفسًا شجاعة لا تعرف الخوف إلا من الله تعالى، ولذلك يقول فارس الإسلام علي بن أبي طالب: كُنَّا إِذَا احْمَرَّتِ الْحَدَقُ، وَحَمِيَ الْوُطَيْسُ، وَاشْتَدَّ الْبَأْسُ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ^(٣). هكذا كان ﷺ.

جسمٌ قوي، نفس شجاعة لا تخاف، بل كان يتمنى أن يُقتل في سبيل الله ويقول: «لولا أن أشقَّ على أُمَّتِي ما قعدتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ أَبَدًا»^(٤).

النبي ﷺ غزا سبعةً وعشرين غزوة حضرها بنفسه، وشارك فيها بنفسه، وبعث بضعة وخمسين سريَّة من أصحابه، فكان إذا خرج

(١) رواه عبد الرزاق في جامع معمر (٢٠٩٠٩)، عن عبد الله بن الحارث.

(٢) كما في حديث أنس قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول: «لن تُراعوا لن تُراعوا». وهو على فرس لأبي طلحة عُري، ما عليه سرج، في عنقه سيف؛ فقال: «لقد وجدته بحرًا» أو «إنَّه لبحر». متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٧).

(٣) رواه أحمد (١٣٤٧)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. والنسائي في الكبرى في السير (٨٥٨٥)، والحاكم في قسم الفيء (١٤٣/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٤) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٦)، ومسلم في الجهاد (١٨٧٦)، عن أبي هريرة.

يخرجون معه، فكان يبعث مجموعة من أصحابه فقط، وكان يقول: «ولوددتُ أَنِّي أُقْتَلُ في سبيل الله، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»^(١).

هكذا كان ﷺ، كان قلبه موصولاً بالله، والقلب الموصول بالله لا يخاف أحداً إلا الله، كان إذا دخل المعركة استعان بالله تعالى وقال: «اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم»^(٢)، «اللهم منزل الكتاب، ومُجْري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصُرنا عليهم»^(٣).

كان يُقَوِّي أصحابه بهذه الأدعية التي تَشُدُّ أَرْزَهُم وتُقَوِّي ظَهْرَهُم، وتنفخ في رُوحَهُم.

هكذا كان ﷺ.

كان مُعَدًّا ليقود الجهاد في سبيل الله، كان متمرساً على الحرب، وأدوات الحرب كلها، وكان يغري أصحابه بذلك ويحرّضهم على ذلك كما قال الله تعالى: ﴿فَقِنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

فكان يحرّضهم وهو أسوة لهم، كان يتقلّد السيف ويلبس الدرع والخوذة، الدرع على صدره، والخوذة على رأسه، ويتترّس بالترس، ويحمل الرمح والقوس العربيّة، ويرمي بالنبل، قاتل وقتل، قتل أبي بن خلف في غزوة أحد، حينما أراد أن يقتل رسول الله ﷺ فقال له: «بل أنا أقتلك».

(١) تتمة الحديث السابق.

(٢) رواه أحمد (١٩٧٢٠)، وقال مخرّجوه: حديث حسن. وأبو داود في الصلاة (١٥٣٧)، والنسائي في الكبرى في السير (٨٥٧٧)، والحاكم في الفيه (١٤٢/٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأكبر ظني أنهما لم يخرجاه. ووافقه الذهبي، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد، عن عبد الله بن أبي أوفى.

فضربه فأصيب، ولمّا رجع إلى مكّة قيل له: لا بأس عليك، الجرح يسير، فقال لهم: إنّ محمّداً قال: سأقتلك، فوالله لو بصق عليّ لقتلني^(١).

هكذا كان النّبي ﷺ.

أعدّه الله ليجاهد في سبيله، فعاش عمره في المدينة عشر سنوات، في السنة الأولى كانت هناك مناوشات بينه وبين القبائل من حول المدينة، وكان عليه أن يرسل السرايا من أصحابه لتؤمن ما حول المدينة، وكان على هؤلاء الأعراب إمّا أن يستجيبوا فيعاهدوا النّبي ﷺ، وإمّا أن يؤدّبهم؛ لأنّه يستعدّ لمعركة قادمة، يعلم أنّها آتية لا ريب فيها.

ثمّ كانت غزوة بدر، وكانت غزوة أحد، وكانت غزوة الخندق، أو غزوة الأحزاب، وكانت غزوة الحديبية، وكانت غزوة خيبر، وكان فتح مكّة، وكانت معركة الطائف، ومعركة حنين، تسع غزوات كبرى، من سبع وعشرين غزوة حضرها النّبي ﷺ، وأربع وخمسون أو خمس وخمسون سرّية، بعثها النّبي ﷺ من أصحابه إلى جهات شتى.

هذا الدين لم يأت إلينا عفواً صفواً:

هذه الحرب الطويلة - أيّها الإخوة - جعلت كلّ بيت في المدينة يقدّم شهيداً أو أكثر؛ ما من دار من الدور ولا أسرة من الأسر، إلّا وقدّم شهيداً أو أكثر من الشهداء.

هذا الدين الذي ننعم به اليوم، ونستظلّ بظله الوارف، لم يأت إلينا عفواً صفواً، لم يأت إلينا غنيمة باردة، ولا لقمة سائغة؛ لقد بُذلت فيه

(١) راجع: السيرة النبوية لابن هشام (٨٤/٢) وتاريخ الطبري (٥١٩/٢)، نشر دار التراث،

ط ٢، ١٣٨٧هـ.

الجهود، أريقَت فيه الدماء، أزهقت فيه الأرواح، قُدِّمت فيه التضحيات، ينبغي أن نذكر فضل الله علينا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، إِنَّ هَذَا الدِّينَ الَّذِي وَرَثْنَاهُ عَنْ آبَائِنَا وَلَمْ نَبْذُلْ فِيهِ شَيْئًا، قُدِّمَ مِنْ أَجْلِهِ الْكَثِيرِ وَفِي سَبِيلِهِ الْكَثِيرِ.

كَانَ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَحَارِبُونَ فِي عِدَّةِ جِبْهَاتٍ، الْجِبْهَةُ الْوُثْنِيَّةُ فِي مَكَّةَ وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالْجِبْهَةُ الْيَهُودِيَّةُ الَّتِي غَدَرَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَقَضَتْ عَهْدَهُ، وَهَنَّاكَ جِبْهَةٌ أُخْرَى مُتَرَبِّصَةٌ أَرَادَتْ أَنْ تَغْزُو النَّبِيَّ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوهُمْ، فَغَزَاهُمْ هُوَ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوهُ، الرُّومُ النَّصَارَى الَّذِينَ اتَّقَى بِهِمْ فِي سَرِيَّةٍ مَوْتَةً، وَفِي غَزْوَةِ تَبُوكَ.

وَكَانَ هُنَاكَ الْفَرَسَ الَّذِينَ يَقْفُونَ مِنْ قَرِيبٍ فِي إِيرَانَ فِي دَوْلَةِ فَارَسَ، الَّتِي هِيَ إِحْدَى الدَّوْلَتَيْنِ الْكَبِيرَتَيْنِ فِي الْعَالَمِ، تَتَنَازَعُ السِّيَادَةَ عَلَى الْعَالَمِ مَعَ الرُّومِ. وَكَانَ هُنَاكَ جِبْهَةٌ دَاخِلِيَّةٌ أَخْطَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا هِيَ جِبْهَةُ الْمُنَافِقِينَ، جِبْهَةُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

هَذِهِ الْجِبْهَاتُ وَاجْهَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَيْفَ وَاجْهَهَا؟ وَكَيْفَ انْتَصَرَ عَلَيْهَا؟

عَسَى اللَّهُ أَنْ يُهَيِّئَ لَنَا حَدِيثًا فِي الْخُطْبَةِ الْقَادِمَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبْ لَكُمْ.



الخطبة الثانية

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة المسلمون:

تحية لشباب المقاومة الاستشاديّين:

لا نستطيع من فوق المنبر إلّا أن نُحيي هذا الشّباب المؤمن، الشّباب الذي وضع رأسه على كفّه، وقَدّم نفسه لقضيّته، وللمسجد الأقصى، وللأمة الإسلاميّة كلّها.

نُحيي هؤلاء الشّباب؛ شباب المقاومة الإسلاميّة، شباب الجهاد الإسلاميّ الذين يروّعون أعداء الله ما بين الحين والحين بهذه العمليات البطوليّة الاستشاديّة التي أثبتت أنّ المسلمين لا يزالون قوّة مؤثّرة، وأنّ المسلم يستطيع أن يجعل من نفسه قبلة بشريّة تواجه القبلة النّوويّة.

هذا الشّباب الذي فجّر التفجير الأخير، الذي أرعب اليهود، أدخل الرعب في قلوبهم، زلزل الأرض من تحت أقدامهم، عشرون قتيلاً من المجرمين، ومائة أو أكثر من مائة من الجرحى، هؤلاء نحييهم ونشدّ على أيديهم، ونقول لهم: استمروا في جهادكم، ما دام الاحتلال قائماً، وما زال الظلم مستمراً، ما دام هذا الطغيان يتحكّم في الرقاب، ويتسلّط على عباد الله، ما دام شارون مُتألّها في الأرض، يزعم أنّه أشدّ قوّة من عادٍ وشمود ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَتْ: ١٥].

شارون الذي يتحدّى، ويتصدّى، ويتعدّى، ولا يبالي؛ لأنّه وجد أمة - للأسف - كأنما هي ميّته، كأنما نخاطب أصحاب القبور، الأمة التي استيّست، يجب أن يكون هناك شباب يُحيي مَوَاتِهَا، وينفخ فيها الرّوح

من جديد، هذا الشّباب البطولي، هذا الشّباب الفدائي، الذي يُفجّر نفسه في أعداء الله، هو دليل على حيوية هذه الأمّة.

ينبغي أن ندعو لهؤلاء الذين استشهدوا في سبيل الله، ندعو لهم بالرحمة، وبالجنّة، وبأعلى المراتب عند الله تعالى، وندعو للشّعب الفلسطيني بمزيد من تخريج مزيد من هؤلاء التلاميذ؛ تلاميذ مدرسة الجهاد المحمّدي، الجهاد النّبوي.

هؤلاء التلاميذ هم الذين سيُحيون القضية، هم الذين يفرضون على شارون وغير شارون أن يطالب بالتفاوض.

ينبغي أن يستمرّ الجهاد، وأن تستمرّ المقاومة، وأن تستمرّ الانتفاضة، وكلّ عمل لإجهاض الانتفاضة وإيقافها هو ضربٌ من الخيانة لله ولرسوله، ضربٌ من الخيانة للأمّة وللأقصى وللقدس، ضربٌ من الخيانة لقضيّة فلسطين.

يجب أن تستمرّ الانتفاضة، ويجب أن تُدعم الانتفاضة، ويجب أن نُؤيّد الانتفاضة بما نستطيع؛ بأنفسنا إن استطعنا، بأموالنا إن لم نستطع الجهاد بالأنفس، بدعائنا في الصلوات والخلوات والأسحار، بإنجادنا لهم بما استطعنا من أموال، بمقاطعة البضائع الصهيونيّة والأمريكيّة، بكلّ ما نستطيع.

علينا أن نُؤيّد الانتفاضة، ونُؤيّد إخواننا في الانتفاضة، ولا نتراجع عن موقفنا أبداً؛ نحن أصحاب حقّ، كيف نتخلى عن حقّنا والمبطلون يريدون بباطلهم أن يضيّعوا حقّنا، وأن يميّتوا حقّنا، وأن يجبرونا أن نتنازل عن حقّنا؟



الغريب الدخيل الطريد الذي جاء من بلاد شتّى، واحتلّ الأرض، وانتهك العرض، وداس الحقوق والحرّمات، هذا يريدنا أن ننزل عند رأيه، ولن ننزل، لن ننزل ما دام فينا مثل هؤلاء الشّباب الذين يفجّرون أنفسهم في أعداء الله.

هذا ما نؤيّد، وما نرحّب به، وما نُحييه، وإذا مات أحد من المدنيّين فأنا أقول: كلُّ المجتمع الإسرائيليّ عسكريّ، من لم يكن في الجيش اليوم يمكن أن يُستدعى غداً، وإذا مات طفل أو نحو ذلك، فهو غير مقصود، إنّها ضرورة الحرب، وللحرب ضرورات، والضرورات تبيح المحظورات.

* * *





محمّد الرسول المجاهد القائد (١)

الخطبة الأولى

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة المسلمون:

تحدّثنا في الجمعة الماضية عن رسول الله ﷺ، محمّد ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وحجّة على النّاس أجمعين، فعلم به من الجهالة، وهدى به من الضلالة.

تحدّثنا عن جانب من سيرة رسول الله ﷺ.

شموليّة الأسوة والقُدوة في حياة رسول الله:

وسيرة رسول الله ﷺ سيرة جامعة شاملة، يجد كلّ إنسان فيها موضعاً للقُدوة.

الرّسل السابقون جعل الله تعالى في كلّ منهم جانباً أو جانبيين أو ثلاثة أو أكثر للاقتداء.

أمّا محمّد ﷺ فجانب الأسوة في حياته، وجانب الاقتداء في سيرته:

(١) أُلقيت بمسجد عمر بن الخطّاب بالدوحة، في ٢٠ ربيع الأول ١٤٢٢هـ، الموافق ١٥ يونيو ٢٠٠١م.

لا يُعَدُّ ولا يُحصى، كلُّ إنسان يستطيع أن يجد في هذه السيرة المحمّدية، وفي هذه السُنّة النبويّة ما يقتدي به، وما يكون له أسوة: الشّاب والشيخ، الحاكم والمحكوم، الغني والفقير، المسالم والمحارب، المنتصر والمنهزم، الأب والجد، العزب والمتزوِّج، المتزوِّج زوجة واحدة، والمتزوِّج أكثر من زوجة، المتزوِّج زوجة صغيرة، والمتزوِّج زوجة كبيرة، المتزوِّج ثيبًا، والمتزوِّج بكرا، كلُّ ناحية من نواحي الحياة.

يجد الإنسان المسلم في سيرة محمّد ﷺ ما يقتدي به؛ وذلك لأنّه صاحب الرسالة الشاملة، الرسالة العامّة الخالدة التي امتدت مكانًا وزمانًا وإنسانًا^(١).

حياة المسيح ﷺ لا تصلح أسوة لكلّ الناس:

إنّ الإنسان المجاهد لا يستطيع أن يجد في سيرة المسيح ﷺ مكانًا للاقتداء؛ لأنّ المسيح لم يحارب، لا يستطيع أن يجد فيه مجالًا لحاكم؛ لأنّ المسيح لم يحكم، لا يستطيع أن يجد فيه مجالًا لزوج؛ لأنّه لم يتزوِّج، ولذلك لا مكان فيه للاقتداء لزوج ولا لأب ولا لجد، ولكن رسول الله ﷺ يستطيع كلُّ إنسان - إذا بحث في سيرته - أن يجد فيها موضعًا للأسوة، ومن ذلك الجهاد، وما أحوجنا في هذا العصر إلى أن نتحدّث عن الجهاد، بعد أن أصبح دم المسلمين أرخص من التراب، أرخص دم في الأرض هو دم الأمّة الإسلاميّة، يُهدر هذا الدم ويُراق هنا وهناك، ولا نجد من يحمي ولا من يغار لهذه الدماء المسفوكة!

(١) من الخصائص المميزة لشريعة الإسلام: خصيصة الشمول، وقد كتب فيها العلماء، ولنا في ذلك إسهامات، منها: الخصائص العامّة للإسلام، وشمول الإسلام، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

حاجتنا إلى دراسة السيرة الجهادية للرسول:

ما أحوجنا إلى أن نتحدث عن الجهاد، ولذلك تحدثنا في الجمعة الماضية عن الرسول المجاهد، الذي اشترك بنفسه في سبع وعشرين غزوة، وأرسل من أصحابه بضعا وخمسين سرية، أي أنه عاش حياته كلها في الجهاد.

حياته في مكة كانت جهادا من نوع، وفي المدينة كانت جهادا من نوع آخر.

في مكة كانت جهاد الصبر والاحتمال، وجهاد الدعوة والتبليغ ﴿فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾، أي: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. وسنوات المدينة العشر كانت جهاد الكفاح المسلح، الصدام الدامي مع القوى المعادية له، وما كان أكثرها.

جهاد في عدة جبهات:

كان ﷺ يحارب في عدة جبهات:

الجبهة الوثنية في الجزيرة العربية؛ في مكة وخارج مكة.

والجبهة اليهودية التي والاها وعاهدها واتفق معها في أول الأمر، ثم غدرت به وانضمت إلى أعدائه.

والجبهة النصرانية في الدولة الرومانية البيزنطية التي تتنازع مع الدولة المجوسية في إيران - في فارس - السيادة على العالم، وهؤلاء - أيضا - كانوا يتربصون بالدعوة الإسلامية.

وجبهة المنافقين في الداخل، هذا الطابور الخامس، هذا الذي يفت في عضد الأمة، يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * [البقرة: ٨، ٩].

مع الرسول المجاهد القائد:

نتحدّث اليوم - أيّها الإخوة - عن الرسول القائد، تحدّثنا عن الرسول مجاهدًا، واليوم نتحدّث عنه مجاهدًا قائدًا؛ فقد كان هو الذي يقود الجهاد، هو الذي يقود الأمة، هو الذي يؤسّس فقه الجهاد وقيم الجهاد، كان هو القائد الأعلى للأمة الإسلامية الناشئة الفتية، التي رمتها العرب «عن قوسٍ واحدة»^(١)، وعادها الناس في المشرق والمغرب من أجل هذا الدين الجديد، الذي جاء يُعلن تحرير الإنسانية كلّها، فلا تأله من أحدٍ على أحد، ولا عبودية من أحدٍ لأحد، ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أنا مخلوق وأنت مخلوق فعلام تربّني؟ علام تصبح ربّا لي، وأنا وأنت مخلوقان لله تعالى؟!

جاء الإسلام يُعلن التحرير للبشريّة، ولذلك وقف الأباطرة، والأكاسرة، والقياصرة، والمُتَجَبِّرون في الأرض، والمستكبرون هنا وهناك، ضدّ هذه الدعوة الجديدة، وكان لا بدّ لمحمّد ﷺ وللمؤمنين معه: أن يواجهوا هذا الطغيان.

لا تجوز التضحية بالرجال والجنود من أجل عمل جنوني:

كان محمّد ﷺ نعم القائد لنعم الجند؛ كان حريصًا على جنده، القائد الموفّق، القائد الناجح، هو الذي يضمنُ بجنده أن يُسفك دم أحد منهم إلّا لحاجة أو ضرورة لا بدّ منها، ولذلك كان أصحابه عليهم الرضوان يأتون

(١) جزء من حديث في وصف حال المسلمين في غزوة الخندق. سبق تخريجه ص ١٨٥.

إليه في مكّة يشكون إليه ممّا ينالهم من أذى المشركين؛ هذا مضروب، وهذا مشجوج، وهذا مجروح، ويقولون له: ائذن لنا أن ندافع عن أنفسنا يا رسول الله، فيقول لهم: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]^(١)، لم يأت الأوان بعد، انشغلوا بذكر الله، والصلاة، وعبادة الله، كفّوا أيديكم عن القوم، لم يشأ أن يُغذّيهم بالحماس، وأن يقول لهم: هيّا بنا نخرج في عمليّة فدائيّة، نكسر الأصنام الثلاثمائة والستين حول الكعبة، لم يفعل ذلك؛ لأنّه لو فعل ذلك لكانت عمليّة انتحاريّة، سيكسر الأصنام، ثمّ تكسر رؤوسهم هم وتبقى الأصنام.

ما قيمة أن تكسر الصنم ثمّ يأتي غداً أو بعد غدٍ صنم مثله؟

الأصنام حجارة ونحّات ينحتها، فإذا كُسر الصنم اليوم ولم يُكسر في رأس صاحبه، فسرعان ما يأتي بصنم بدل الصنم، ولذلك لم يُكسر ﷺ الأصنام، وبقيت هذه الأصنام إلى يوم الفتح، حتّى إنّ النبي ﷺ في عمرة القضاء طاف بالبيت في السنّة السابعة من الهجرة، وهذه الأصنام موجودة، ولم يمسّها بسوء، لم يأت الأوان بعد.

كلّ شيء بأوان وبأجل مسمّى:

وهذا درس تعلّمنا أن كلّ شيء بأوان وبأجل مسمّى، وأنّه لا يجوز التضحية بالرجال والجنود من أجل عمل جنوني، لا يُقدّم ولا يؤخّر في النهاية. ولهذا من حسن قيادة محمّد ﷺ أنّه كان حريصاً على جنده، حينما

(١) رواه النسائي (٣٠٨٦)، والحاكم (٦٦/٢)، وصحّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، كلاهما في الجهاد، عن ابن عباس. بلفظ: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكّة، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنّا في عزّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة فقال: «إنّي أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا». فلما حولنا الله إلى المدينة، أمرنا بالقتال، فكفوا، فأنزل الله تعالى: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧].

أذن الله بالجهاد ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، كان هناك دور آخر، هذا الدور الآخر اندمج فيه محمّد القائد بجنوده وأنصاره، فكان كواحد منهم.

من خصائص القائد الموفق:

١ - أن يكون كواحد منهم:

القائد الفذ، القائد الموفق هو الذي لا يكون هناك انفصال بينه وبين جنوده، ليست هناك هوة ولا فجوة بين القائد والجنود، هكذا كان محمّد ﷺ؛ كان يعيش فيهم كواحد منهم، إذا جاعوا فهو أوّل من يجوع وآخر من يشبع، إذا ضحّوا فهو أوّل من يبذل وآخر من يستفيد، كان كواحد منهم.

في غزوة بدر كان مع المسلمين سبعون بعيّراً وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، سبعون بعيّراً يتعاقبونهم، يركب كلّ واحد منهم مرحلة من الطريق، يتناوبون، فكان مع النبي ﷺ اثنان من الصّحابة^(١)، فقالا له: يا رسول الله، نحن أشبّ منك.

الرسول فوق الخمسين، حوالي خمسة وخمسين سنة وهم شباب، فقالوا: نحن أشبّ منك، نحن نكفيك المشي، فأنت تركب ونحن نمشي.

فماذا قال ﷺ؟

قال: «والله ما أنتم بأقوى مِنّي على المشي، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر»^(٢). يعني: أنا قويّ على المشي، ولست غنيّاً عن الأجر، أريد أن أشارككم في الأجر.

(١) الصحابيّان هما: علي بن أبي طالب وأبو لبابة رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد (٣٩٠١)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والنسائي في الكبرى (٨٧٥٦)، وابن حبان

(٤٧٣٣)، كلاهما في السير، والحاكم في الجهاد (٩١/٢)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي،

وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٢٥٧)، عن ابن مسعود.

هكذا كان ﷺ واحدًا منهم.

في فترة من الفترات أصابهم الجوع، وكشف بعضهم عن بطنه، فإذا هو قد وضع حجرًا على بطنه من شدة الطوى، فلما رآهم النبي ﷺ فكشف عن بطنه، فإذا به قد وضع حجرين لا حجرًا واحدًا من شدة الجوع^(١) وعليهم الرضوان.

والفضل ما شهدت به الأعداء:

هكذا كان مندمجًا مع جنوده وأتباعه، ولذلك أحبهم وأحبوه، أحبوه، فكانوا لا يحبون أن يمسه أي أذى، وقال ذلك أحدهم^(٢) حينما أخذه أهل مكة، وعلّقه على خشبة الصلب ليصلبوه ويقتلوه، وقال له أبو سفيان - وكان لا يزال على الشرك -: أتحب أن تكون في بيتك وبين أهلك ومحمد في مكانك؟

قال: والله ما أحب أن يكون رسول الله ﷺ في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة في قدمه.

فقال أبو سفيان: ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا^(٣).

لا يوجد من يحب قائده كما يحب أصحاب محمد محمدًا.

(١) كما في حديث أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، ورفع رسول الله ﷺ عن حجرين. سبق تخريجه ص ٢٧.

(٢) هو الصحابي الجليل خبيب بن عدي.

(٣) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٢٩٩٩)، تحقيق عادل بن يوسف العزاوي، نشر دار الوطن، الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

في غزوة بدر كان الرسول ﷺ يسوي الصفوف، بسهم لا نصل له في يده، يريد أن تكون الصفوف مستوية، فلمس أحدهم بهذا السهم، فقال: يا رسول الله، أوجعتني، لقد بعثك الله بالحق والعدل، فمكّني أقتض منك. فكشف النبي ﷺ عن صدره وقال: خذ بحقك يا سواد.

كان اسمه سواد بن غزيرة.

فأقبل الرجل يُقبل النبي ﷺ ويلتزمه ويلتمسه.

قال: خذ بحقك.

قال: يا رسول الله، ما إلى هذا أردت، ولكن قد حضر من الأمر ما ترى، فلعل الله يكتب لي الشهادة في سبيله، فأردت أن يكون آخر عهدي من الدنيا أن يمَسَّ جلدي جلدك يا رسول الله^(١).

هكذا حبُّ الجنود لقائدهم، أي قائد في الدنيا تلتفت حوله القلوب مثل هذا القائد العظيم محمد ﷺ!؟

٢ - أن يشاورهم في الأمر:

ولذلك كان - أيضًا - من أسباب توفيقه في قيادته أنه كان كثير المشاورة لجنوده وأصحابه، ما كان يقطع أمرًا من أمور الحرب دونهم، وعندنا مثل واضح في ذلك، غزوة بدر.

في غزوة بدر استشار الناس النبي ﷺ قبل الغزوة، واستشار في أثناء الغزوة، واستشار بعد الغزوة، وقال أبو هريرة وغيره: ما رأيت أحدًا أكثر مشاورة من النبي ﷺ^(٢).

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٥٥٠).

(٢) رواه أحمد (١٨٩٢٨)، والبيهقي في الجزية (٢١٨/٩)، وقال الحافظ في الفتح (٣٤٠/١٣): رجاله ثقات إلا أنه منقطع.

استشارهم قبل الغزوة ليطمئن على أنهم يدخلون المعركة راضين مُطمئنين، وسألهم: «أشيروا عليَّ أيُّها النَّاسُ».

فقام أبو بكر، وتكلَّم وأحسن، وقام عمر، فتكلَّم وأجاد، وقام المقداد بن الأسود، وقال: والله يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، بل نقول لك: اذهب أنت وربُّك فقاتلا إِنَّا معكما مُقاتِلون.

فقال له: أحسنت^(١).

كلُّ هؤلاء من المهاجرين، وكان يريد أن يسمع رأي الأنصار، وهم أصحاب الدار وأصحاب الأغلبية، ففهم سعد بن عبادة المراد، وقال له: كأنك تريدنا يا رسول الله، والله لقد آمنا بك وصدَّقناك وأيقنا أن ما جئت به هو الحق، فوالله لو خضت بنا هذا البحر لخُضناه ورائك ما تخلف منا رجل واحد، وإنَّا لصُبر في الحرب صدُق عند اللقاء، ولعلَّ الله يُريك منا ما تقرُّ به عينك.

فسرَّ رسول الله ﷺ^(٢).

وكان إذا سرَّ استنار وجهه كأنه فلقة قمر^(٣).

ودخلوا المعركة على بركة الله.

وفي أثناء المعركة استشارهم في أكثر من مرَّة، وأشار عليه

(١) رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٩)، عن ابن مسعود.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢٦٦/٢)، والبداية والنهاية (٧٠/٥)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م. وروى معنى هذه المشورة مسلم في الجهاد والسير (١٧٧٩)، وأحمد (١٣٢٩٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، عن كعب بن مالك.

الحُبَاب بن المُنْذِر: أهذا المنزل الذي نزلته يا رسول الله بوحى من الله؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال: فليس هذا بمنزل، المنزل أن تفعل كذا وكذا وكذا.

فقال: «الرأي ما أشار به الحُبَاب»^(١).

وبعد المعركة استشارهم في الأسرى واختلفت آراؤهم، وقال لأبي بكر وعمر: «لو اتَّفَقْتُمَا على رأيٍ ما خالفْتُكما»^(٢)، ولكنَّهما اختلفا، فأثر رأي أبي بكر في أن يبقى على هؤلاء الأسرى، ويقبل الفداء منهم، ليستعين به المسلمون، وجاءه العتاب من ربّه تعالى^(٣).

هكذا كان رسول الله ﷺ يُشاور في أموره حتّى يستبين له الصواب، ويستريح أتباعه والجنود معه أنّهم مشاركون في قرار الحرب، أنّهم يحاربون برأيهم، أنّهم لا يُجبرون على شيءٍ لا يعرفون له أولاً من آخر. هكذا كان ﷺ، فكان نعم القائد حقّاً، كان يشاور، وكان يعرف جنوده جيّداً.

٣ - أن يعرف خصائص جنوده وقدرات عدوّه:

القائد الموفّق هو الذي يعرف جنوده، ويعرف خصائص جنوده، يعرف أن هذا ينفع في كذا، وهذا ينفع في كذا.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٦٢٠/١)، والطبقات الكبرى (١٥/٢).

(٢) رواه أحمد (١٧٩٩٤)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٣٥٥): رواه أحمد، ورجاله ثقات؛ إلّا أن ابن غنم لم يسمع من النبي ﷺ.

(٣) رواه مسلم في الجهاد والسّير (١٧٦٣)، وأحمد (٢٢١). وفيه قول عمر: فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت.

كما يعرف أعداءه، يعرف نقاط القوّة فيهم ونقاط الضعف فيهم، يحاول أن يتفادى نقاط القوّة، وأنّ يستفيد من نقاط الضعف.

وهكذا كان رسول الله ﷺ، وكان يستعين على ذلك بالعيون، بالجواسيس تتجسّس على المشركين^(١)، ويعرف ما عندهم، يبعث الطلائع ويبعث العيون، وكان أحياناً يريد أن يباغتهم^(٢)، كثيراً ما كان يورّي بالجهة التي يريد أن يذهب إليها حتّى لا يتسرّب الخبر إلى أعدائه، ليصل فجأة إليهم فيباغتهم، فيجبرهم على التسليم بأقلّ الخسائر الممكنة، ولم يصرّح بغزوة غزاها إلّا غزوة تبوك^(٣)؛ لأنّ هذه كانت غزوة لها خصوصية، كانت غزوة إلى الروم أكبر قوّة ضاربة إلى الأرض؛ إذ بعد أن انتصرت على الفرس أصبحت أعظم قوّة في العالم، كقوة أمريكا اليوم.

وقد سمع النّبي ﷺ أنّهم يريدون أن يغزوه في المدينة، فأراد أن يسبق هو كما يقولون: الضربة الأولى نصف المعركة، أراد أن يغزوهم قبل أن يغزوه. كان هذا من حسن قيادته، وحسن سياسته الحربيّة، لا ينتظر حتّى يدخل أعداؤه عليه داره.

لا، أراد أن يبدأ هو ويفاجئهم بهذه المعركة، وبهذه الغزوة، غزوة تبوك، التي سمّيت غزوة العُسرة؛ لأنّها كانت في شدّة الحرّ، وفي أيام جني الثمار،

(١) كما فعله النّبي ﷺ في بدر؛ فعن أنس، أنّ النّبي ﷺ بعث بُسيسة عينا ينظر ما صنعت غير أبي سفيان. رواه مسلم في الإمارة (١٩٠١)، وأحمد (١٢٣٩٨).

(٢) كما في غزوة مكّة، وكان النّبي ﷺ قد دعا ربّه قائلاً: «اللهم خذ عليّ أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلّا بغتة، ولا يسمعوا بنا إلّا فجأة». انظر: دلائل الثبوت للبيهقي (٩/٥ - ١٢)، تحقيق عبد المعطي قلعجي، نشر دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٣) إشارة إلى قول كعب بن مالك في قصة توبته: ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلّا ورى غيرها. متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤١٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩).



كلُّ إنسان يريد أن يبقى في نخيله وثماره ليجني هذه الثمار ويستمتع بها، ولذلك رأينا المنافقين انتحلوا أعذارًا كثيرة ليتخلفوا ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

كان يورّي، ما معنى: يوري؟

يعني: يقول لفظًا فيه تورية، يسأل عن النهر الفلاني، فيفهم الناس أنّه ذاهب إلى الشمال؛ لأنّ هذا النهر في الشمال، ولكنّه يريد أن يذهب إلى الجنوب، ليُعْمِي على خصومه وأعدائه؛ حتّى لا يعرفوا وجهته.

٤ - أن يكون خبيرًا في الحرب:

وهكذا كان عليه السلام، كان خبيرًا في الحرب، صحيح أنّه لم يحارب في صباه، لكنّه شارك في حرب اسمها حرب الفجار^(١)، بين قريش وكنانة، شارك فيها أعمامه وكان صبيًا صغيرًا، ولكنّه درّب نفسه وهو يرعى الغنم، وكان يملك من الشجاعة ما لا يملكه أحد، ويملك من قوّة البدن ما لا يملكه أحد، صارع ركّانة^(٢) فصرعه، كان يركب الفرس معرورًا بلا سرج ولا لجام^(٣).

٥ - أن يكون قوي الجسم قوي النّفس:

كان صلى الله عليه وسلم قوي الجسم قوي النّفس، لا يخاف إلّا الله، لا يخاف الموت؛ لأنّه يعلم أنّ كلّ شيء بأجل عند الله، لا يستطيع أحد أن يميّتك قبل

(١) سميت هذه الحرب بحرب الفجار لما استُحلّ فيها من حرّات، وقيل: لما حدث فيها من قتل في الشهر الحرام. ووقعت هذه الحرب بين قريش ومن معهم من كنانة وبين هوازن. انظر: سيرة ابن هشام (١٨٤/١ - ١٨٦)، والطبقات الكبرى (١٠١/١) وما بعدها.

(٢) سبق تخريجه ص ١٨٧.

(٣) سبق تخريجه ص ١٨٧.

يومك ولا قبل ساعتك ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْقَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، فكان واثقاً بالله، في قمة الشجاعة.

وقد قال فارس الإسلام علي بن أبي طالب: كنّا إذا حمي الوطيس واحمرت الحديق، واشتدّ البأس اتقينا - يعني: احتمينا - برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه^(١).

انظروا هذه الشجاعة، الصّحابة يحتمون به في ساعة البأس والكرب، أوتي من قوّة الجسم، ومن شجاعة النّفس، ومن رجاحة العقل ما جعله أعظم قائد في العالم.

قد كتب كثير من العسكريين المسلمين؛ منهم اللواء محمود شيت خطاب، واللواء جمال الدين محفوظ، وغيرهما من الرّجال العسكريين عن عبقرية الرسول العسكرية ﷺ، وقارن الأستاذ عباس العقاد في كتابه «عبقرية محمد» قارن بين محمّد وبين نابليون، ووجد أنّ محمّداً ﷺ كان أقوى في قيادته، وأفضل من نابليون في حروبه، في مواضع كثيرة.

٦ - لا يستخفه النصر إذا انتصر، ولا تزلزله الهزيمة إذا انكسر:

كان ﷺ نعم القائد، والقائد الحقّ، القائد الفذّ، هو الذي لا يستخفه النصر إذا انتصر، ولا تزلزله الهزيمة والانكسار إذا انكسر، وهذا ما رأيناه في حياته ﷺ، ما أكثر ما انتصر في حياته، ولكنّه قد انكسر جيشه في غزوة أحد حينما خالفوا أوامره ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴿[آل عمران: ١٥٢]،

(١) سبق تخريجه ص ١٨٧.

بعد أن رأوا النصر في أوّل الأمر خالفوا أمره، وكشفوا ظهورهم للعدو، وتركوا الجبل الذي قال لهم الرسول ﷺ: لا تتركوه ولو رأيتمونا تخطفنا الطير، ولكنهم قالوا: إنّما كان يريد في حالة الهزيمة، والآن المسلمون قد انتصروا، فتركوا أماكنهم، وقائدهم الذي عيّنه الرسول يقول لهم: اذكروا وصية النبي ﷺ، ولكن الغنائم سال لعابهم إليها، لُعاة^(١) الدُّنيا أسالت لعابهم، فتركوا الجبل، ونزلوا ليأخذوا من الغنائم، وكشفوا ظهورهم.

فأدرك هذا الأمر قائد الفرسان، قائد الخيالة في جيش المشركين: خالد بن الوليد، الذي لم يكن قد أسلم بعد فانتهاز الفرصة، والتفّ على المسلمين من الخلف، وأعمل فيهم السيف، وكان ما كان، والله الأمر من قبل ومن بعد!

كانت هذه الهزيمة في أحد درسًا استفاد منه المسلمون، كان تمييزًا وتصفيّة كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

كما كان تطهيرًا وتربية ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قد أراد الله أن يتخذ من المؤمنين شهداء كما قال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(١) اللُعاة: نبت ناعم في أول ما ينبت، وهي: الكلاء الخفيف، يعني أنّه شيء يسير، قليل البقاء. انظر: النهاية في غريب الأثر مادة (ل.ع.ع).

من دروس أحد:

كان لا بد من هذه المحنة ليتعلم المسلمون منها دروسًا جديدة؛ فالانتصار المتوالي قد يحدث غرورًا في النفس، وعُجبًا بالقدرات الخاصة، فأراد الله أن يلقيهم هذا الدرس، ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٤٠ - ١٤٢].

كان درسًا لا بد منه، حتى إنهم حينما أشاعوا أن محمدًا قد مات علّق القرآن على ذلك فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

العبرة بالمبادئ أم بالأشخاص؟

أنتم تقاتلون من أجل شخص محمد أم من أجل حقيقة الدعوة والرسالة ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾، وتلا ذلك عليهم محمد ﷺ «ليعلقهم» بالدعوة لا بالداعي، «ليعلقهم» بالرسالة لا بشخص الرسول.

ولذلك استفاد أبو بكر من هذه الآية يوم وفاة النبي ﷺ، وقد هاج هائج الصحابة وقال منهم من قال: من قال: إنَّ محمدًا قد مات ضربت عنقه.

وقام أبو بكر وقال: أيُّها النَّاسُ، من كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(١).

إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ من قوَّة اليقين وقوَّة الإيمان برسالته بحيث لا يزعه ولا يزلزله انكسار لجيشه، ولا يستخفه نصر انتصر فيه.

كثيراً ما انتصر؛ ولكنَّه لم يُعجب بنفسه، ولم يغتر بجيشه، أعظم انتصار حقَّه هو نصر فتح مكَّة، الفتح الأعظم الَّذي أصبح به سيِّد الجزيرة، دانت مكَّة عاصمة الوثنيَّة العربيَّة، دانت للإسلام، ودخلها فاتحاً، وكسر الأصنام، وحطَّم الأوثان برمحه، وهو ينكسها على وجهها ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ومع هذا دخل متواضعاً، يكاد يضع جبهته على رحل الناقة^(٢)، ساجداً لله، أو أشبه بالساجد.

وحينما دخل المسجد الحرام صلَّى ثماني ركعات لله تعالى^(٣)، يسمِّيها العلماء: صلاة الفتح^(٤)، ثماني ركعات لله ﷻ.

ولم يناد أحد: عاش محمد، أو يحيا محمد؛ ولكن كان الهتاف باسم الله، لا باسم مُحَمَّد المنتصر.

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٦٧، ٣٦٦٨)، عن عائشة.

(٢) انظر: زاد المعاد (٤١٨/٣).

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٧٦)، ومسلم في صلاة المسافرين (٣٣٦)، عن أم هانئ.

(٤) قال ابن القيم: دخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسل، وصلَّى ثماني ركعات في بيتها، وكانت ضحى، فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنَّما هذه صلاة الفتح، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلدًا صلُّوا عقيب الفتح هذه الصلاة، اقتداء برسول الله ﷺ. انظر: زاد المعاد (٤١٨/٣).

كان الهتاف: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»^(١).

كانت هذه هي الكلمة التي سادت في ذلك اليوم، ودخل على ابنة عمه أم هانئ بنت أبي طالب وكان بيتها بجوار المسجد، وهو الذي خرج منه ليلة الإسراء، دخل عليها فقال: «هل عندك طعام آكله؟!». وكان جائعًا.

فقلت: إن عندي لكسرًا يابسة، وإنني لأستحيي أن أقربها إليك.

فقال: «هلميها».

فكسرتها ونثرت عليها لملح.

فقال: «هل من إدام؟».

فقلت: يا رسول الله، ما عندي إلا شيء من خلّ.

قال: «هلميه».

فلما جئته به، صبّه على طعامه، فأكل منه، ثم حمد الله تعالى، ثم قال: «نعم الإدام الخل يا أم هانئ، لا يفقر بيت فيه خلّ»^(٢).

محمّد الفاتح الأعظم فاتح جزيرة العرب، وسيد الجزيرة في يوم الفتح، ماذا يأكل؟

يأكلُ خبزًا جافًا مغموسًا بالخل! لم تُذبح الذبائح، ولم تُقم الاحتفالات، لكن اكتفى بهذا، وقال: «نعم الإدام الخل».

(١) رواه أبو داود في الحدود (٤٥٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٨٠٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٥٤/٤)، عن أم هانئ.

القائد العظيم هو الذي لا يستخفه النصر ولا تكسره هزيمة، وهكذا كان محمد ﷺ.

٧ - يعفو وقتما ينفع العفو:

كان هذا القائد يعرف متى يعفو ويسامح، ومتى يقسو ويشدد؛ في غزوة الفتح؛ فتح مكة، اجتمع أهل مكة في المسجد عن بكرة أبيهم، ووقف النبي ﷺ يقول لهم: «يا أهل مكة، ما تظنون أنني فاعل بكم؟».

قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم.

هؤلاء الفراعنة الجبابرة العتاة الذين طالما آذوه، وآذوا أصحابه ثلاثة عشر عامًا في مكة، وقتلوه في المدينة ثمانية أعوام، وشهروا عليه السيوف، وفعلوا به ما فعلوا، اليوم يلين كلامهم، اليوم يتكلمون بلغة الضعيف. يقولون: نظن بك خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم.

فماذا قال ﷺ؟

أنفس عن حقه الكريم؟!!

أكان يحمل ضغينة لهم في صدره من طول ما أؤذي منهم؟
لقد نسي ذلك كله، وقال هذه الكلمة التاريخية الرائعة، التي سجلها التاريخ بحروف من ذهب، قال: «يا أهل مكة، اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١).
أنتم أحرار ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤١٢/٢)، عن ابن إسحاق؛ قال: فحدثني بعض أهل العلم.

قال ما قاله أخوه يوسف من قبل لإخوته حينما آذوه وأهانوه قال:
﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

عفا عن أهل مكة إلا أفراداً معدودين يعتبرون - بلغة عصرنا - من مجرمي الحرب لم يعف عنهم، لكنه عفا عن الجميع.
هذا عفوه في هذا الموقف.

٨ - يقسو حين لا تنفع إلا الشدة:

ولكنه في موقف آخر لم يعف؛ موقفه من بني قريظة لم يعف عنهم.
لماذا؟ لماذا لم يعف عن يهود بني قريظة؟

أولاً: يهود بني قريظة طلبوا التحكيم، فقبل منهم التحكيم، وطلبوا أن يحكم فيهم حليفهم في الجاهلية سعد بن معاذ، فقبل النبي ﷺ ذلك، وحكم فيهم سعد بن معاذ: بأن تقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم، فنفذ ﷺ ما حكم به الحكم الذي اختاروه^(١).

ثانياً: لم يفكر ﷺ في العفو عن هؤلاء لعدة أسباب؟

لأنها لم تكن المرة الأولى لليهود، إنهم قبل ذلك نقضوا عهده في بني قينقاع، ونقضوا عهده في بني النضير، الذين نزلت فيهم أوائل سورة الحشر، ثم هؤلاء نقضوا عهدهم نقضاً مريباً، كانت قريش وغطفان قد أقبلت على المدينة تريد أن تستأصل شأفة المسلمين، أن تبید خضراءهم، كان المراد إبادة وتصفية نهائية للمسلمين، هذه الجيوش الهائلة الجرارة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، كلاهما في الجهاد، عن أبي سعيد الخدري.

التي أقدمت من هنا وهناك، أرادت أن تتخلص من محمد ودعوته مرة واحدة، فجاءوا وهاجموه في عقر داره.

وكان من حسن قيادة النبي ﷺ: أن استشار أصحابه كما قلنا، فأشار عليه سلمان بحفر خندق، ولم يكن هذا من شأن العرب، وحفر الخندق ليحول بين فرسان قريش وحلفائها، وبين اقتحام البلدة ودخول المدينة بالقوة.

ثم كان نصّ المعاهدة التي بين رسول الله ﷺ وبين اليهود، ويهود بني قريظة هم الباقون من إخوانهم، كان نصّ المعاهدة يقتضي أن يساعدوا الرسول ﷺ ويكونوا معه بالسلاح وبالمال ضد أي مُغير أو مهاجم للمدينة.

اتفاقية دفاع مشترك، ولكن هؤلاء لم يفعلوا ذلك، وليتهم اقتصروا على عدم تنفيذ المعاهدة! ولكنهم أعلنوا انضمامهم إلى المغيرين، إلى المهاجمين.

انظروا، الهجوم الذي يراد به استئصال المسلمين وعدم إبقاء باقية منهم، انضموا إلى المغيرين والمهاجمين.

إنها خيانة من أعظم الخيانات في التاريخ، لو أنهم حققوا ما كانوا يحلمون به من القضاء على محمد وأصحابه، ما كان هناك إسلام ولا مسلمون في التاريخ؛ لأن هذه كانت القضية؛ فقد أرادت قريش وغطفان وأتباعهما وأحبيشهما القضاء على محمد في مهده، في عقر داره.

ولكن اليهود - للأسف - لم يعملوا بالمعاهدة والاتفاق، وإنما انضموا إلى المهاجمين، إلى المغيرين، إلى الأعداء كما سجّل ذلك

القرآن حينما قال: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: ١٠، ١١].

وأي زلزلة أكبر من هذه الزلزلة؟

ولذلك كانت خيانة بني قريظة خيانة عظمى، بل من أعظم أنواع الخيانات العظمى، لم تكن خيانة لفرد بل كانت خيانة لهذه الرسالة، ولهذه الأمة، ولهذا الرسول ولهؤلاء الصَّحابة، خيانة لهذا الدين، قضاء على هذا الدين.

فكانت الجريمة جريمة كبيرة، ليس كجريمة أهل مكّة؛ لأنّه لم يكن بين الرسول وبين أهل مكّة أي عهد، أمّا هؤلاء فكان بينه وبينهم عهد، فغدروا ونكثوا ونقضوا.

ثالثاً: ثمّ إنّ الموقف في ذلك الوقت كان مختلفاً عن موقف فتح مكّة، موقف فتح مكّة كان الرسول قد ثبت أقدامه، وانتصر في عدة انتصارات، وأصبح الأمر مستتباً له إلى حد كبير.

أمّا في هذا الوقت فالعفو هنا معناه أن يقول اليهود: ضحكنا على محمّد، وخدعنا محمّداً، وأخذنا منه العفو، ما كان ليمنّ هؤلاء من أن يقولوا ذلك.

الجريمة عظيمة، والوقت في غاية الخطر، لو صدقت نبوءتهم، وتحققت أحلامهم لقضي على الإسلام قضاء مبرماً؛ فالجريمة كانت عظمى، والوقت كان وقتاً خطراً.

رابعاً: إنّ القوم غير القوم، العرب غير اليهود؛ العربي إذا عفوت عنه اعتبر أنك ملكته بعفوك، الإنسان أسير الإحسان، إذا عفوت عن العربي وأنت قادر اعتبر ذلك منّة منك، يحفظها لك طول عمره.

أمّا اليهودي، فلو عفوت عنه يقول: خدعته وضحكت عليه، وسأعود لمثلها بعد.

وهذا ما حدث.. حيي بن أخطب فرّ من بني النضير، ولكنّه لم يسكت، ظلّ يؤلّب العرب، هذه الغزوة نفسها من تأليب اليهود، من تأليب حُيي بن أخطب وبعض اليهود معه، حتّى أثاروا المشركين ليهاجموا الرسول ﷺ في عقر داره^(١).

ولذلك لم يكن يُتصوّر أن يعفو النّبي ﷺ عن بني قريظة، كان لا بدّ أن يؤاخذهم بجريمتهم، وإلّا بقوا يعيشون في الأرض فساداً، كما عاثوا من قبل، وكما عاث إخوانهم من قبل.

هذه - أيّها الإخوة - خلاصة موجزة لقيادة رسول الله ﷺ: القائد الموفّق، القائد الناجح، القائد الشجاع، القائد الذي لا يفت في عضده شيء.

بعد غزوة أحد نادى أصحابه وهم متخنون بجراحاتهم وبدمائهم، دعاهم ليلحقوا بجيش أبي سفيان في غزوة تسمّى: غزوة حمراء الأسد؛ حتّى يُظهروا للمشركين قوتهم وثباتهم، وقد ذكرها القرآن حينما قال: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٧٢ - ١٧٥].

(١) رواه البيهقي في الجزية (٢٣٢/٩). وانظر: السيرة النبويّة لابن هشام (٢١٤/٢).



اتِّهَامُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْعَنْفِ وَالْإِرْهَابِ (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

لَقَدْ أَصْبَحَ حِمَانًا مُسْتَبَاحًا، وَأَصْبَحْنَا فَرِيسَةً لِكُلِّ صَائِدٍ، تَجَرَّأَ عَلَيْنَا كُلُّ جَبَانٍ، وَتَعَزَّزَ عَلَيْنَا كُلُّ ذَلِيلٍ، وَاسْتَنْسَرَ فِي أَرْضِنَا الْبُغَاثُ، وَتَذَابَّتْ عَلَيْنَا النَّعَاجُ، وَاسْتَأْسَدَتِ الثَّعَالِبُ بِلِ الْأَرَانِبِ؛ هُوَ جَمْنَا فِي دِيَارِنَا، وَهُوَ جَمْنَا فِي مُقَدَّسَاتِنَا، بَلْ هُوَ جَمْنَا فِي أَقْدَسِ أَقْدَاسِنَا، هُوَ جَمْنَا فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ جَمْنَا فِي شَخْصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: أَعْظَمِ شَخْصِيَّةٍ فِي التَّارِيخِ، وَصَفْوَةِ خَلْقِ اللَّهِ، وَخَاتَمِ رَسْلِ اللَّهِ الَّذِي عَلَّمَهُ رَبُّهُ فَأَكْمَلَ تَعْلِيمَهُ، وَأَدَّبَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظِيمًا.

هَجُومُ قَسِّ نَصْرَانِيٍّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ:

نَشَرَتْ جَرِيدَةُ (الْوَطَن) الْقَطَرِيَّةُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمَاضِي الْخَامِسِ مِنْ أَكْتُوبَرٍ أَنَّ أَحَدَ الْقَسَاوِسَةِ الْأَمْرِيكَانِ هُوَ الْقَسِّ (جِيرِي فَاوِيل) أَذَاعَ فِي إِحْدَى شَبَكَاتِ التَّلِفِيزِيُونِ الْأَمْرِيكِيَةِ حَدِيثًا هَاجِمًا فِيهِ مُحَمَّدًا ﷺ، اتَّهَمَهُ

(١) أُلْقِيَتْ فِي مَسْجِدِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ بِالْأُدُوحَةِ، بِتَارِيخِ ١١ أَكْتُوبَرِ ٢٠٠١م.

بأنه كان إرهابيًا، وأنَّ المسلمين ليسوا إرهابيين من أنفسهم؛ بل إنَّهم تعلَّموا الإرهاب من مُحَمَّد ﷺ.

وقال هذا القسُّ: إنَّه - بما قرأه من الكُتَاب المسلمين، والكُتَاب غير المسلمين - كَوَّن فكرة عن مُحَمَّد، أنَّه كان رجلًا عنيفًا، كان من دُعاة العنف، وكان من دُعاة الحرب، ولم يكن مثل المسيح (يسوع) ﷺ الذي كان من دُعاة الحبِّ، ومن دُعاة السلام، ولم يكن أيضًا مثل موسى الذي كان من دُعاة السلام.

هكذا أطلق هذا الرجل مقولته ودعواه، أنَّ محمدًا ﷺ كان إرهابيًا، وكان عنيفًا، وكان قاسيًا، وكان من دُعاة الحرب بإطلاق، ولم يكن كالمسيح ولا كموسى ﷺ.

من الحقِّ إلى الباطل:

كان هذا القسُّ النصرانيُّ قد قال كلامًا طيبًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، قال: إنَّ أحداث سبتمبر كانت غضبًا من السماء، وكانت عقوبة من الله للأمريكيين لما انتشر فيهم من الشذوذ واللواط والإباحية، والدعوة إلى الإجهاض والعري، وإلى كذا وكذا ممَّا طبع المجتمع الأمريكي بالطابع اللاديني العلماني.

قال هذا الكلام، وهو مُحقِّق فيه، ولكنَّه للأسف بعد أن ثار عليه الشواذ، وثار عليه دُعاة العري، وثار عليه دُعاة الإجهاض والإباحية، اعتذر عمَّا قاله، وتأسَّف لهم، رجع عن موقف الحق ليتبنَّى موقف الباطل، ويتهم محمدًا ﷺ بأنه كان إرهابيًا، وكان عنيفًا، وكان من دُعاة الحرب.

رسول الرحمة العامّة:

كذبت أيّها القس؛ إنّ محمداً ﷺ هو كما وصفه ربه حينما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. لم يكن رحمة للعرب وحدهم، ولا للشرقيين وحدهم، ولا للمسلمين وحدهم، بل كان رحمة عامّة للعالمين، وعبر عن نفسه فقال: «إنّما أنا رحمةٌ مُّهداة»^(١). هو رحمة الله إلى هذه الأمّة، ورحمة الله إلى البشريّة كلها.

الدعوة بالحسنى:

جاء مُحَمَّدٌ ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويدعو الناس إلى صراط الله المستقيم بالحجّة والإقناع، والموعظة الحسنة، والدعوة بالتي هي أحسن، ظل يجاهد بالدعوة في مكّة ثلاثة عشر عاماً كما أمره ربه في سورة الفرقان: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

الصبر على الأذى:

ظلّ ثلاثة عشر عاماً في مكّة يجاهد بالقرآن، ويجاهد بالدعوة والبيان، ويجاهد بالصبر والاحتمال هو وأصحابه، حتّى عذّب منهم مَنْ عذّب، وقُتل منهم مَنْ قُتل، ومات تحت العذاب، وحُوصروا ثلاث سنوات، حُوصروا اقتصاديًّا، وحُوصروا اجتماعيًّا، حتّى أكلوا أوراق الشجر، ودُميت أشداقهم^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ٢٦.

(٢) انظر: المعرفة والتاريخ (٣٤٠/١)، تحقيق أكرم ضياء العمري، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ودلائل النبوة للأصبهاني ص ٥٥، تحقيق محمد الحداد، نشر دار طيبة، الرياض، ط ١، ١٤٠٩هـ.

وكان أصحابه يأتون إليه ما بين مضروب ومجروح ومشجوج ومكسور، يقولون له: يا رسول الله، ائذن لنا أن نقاتل دفاعاً عن أنفسنا. لم يتعوّد العرب أن يُضربوا ويُجرّحوا ويُشجّوا ثم يصمتوا في مقابل مَنْ فعل ذلك، العربي يموت ولا يقبل الدنية، ولكن النبي ﷺ كان يقول لهم: «إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا، كُفّوا أيديكم، وأقيموا الصلاة»^(١).

الإذن بالقتال:

ظلّ هكذا ثلاثة عشر عاماً حتّى هاجر إلى المدينة، وأذن الله له ولأصحابه المؤمنين في أن يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْبَنَاتِ وَالْأَنفُسِ الَّتِي أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمُومُ وَبِيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسَّجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيْسَ ضَرْبُ اللَّهِ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ * وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤١]. هذه الآيات أوّل ما نزل في شأن القتال تأذن للمسلمين أن يُقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم، فقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم وأوطانهم بغير ذنب إلّا أن يقولوا: ربنا الله.

سنة التدافع:

ويبين القرآن أنّ هذا الأمر بالقتال هو وفق سنة التدافع، فلولا دفع الله النَّاسَ بعضهم ببعض لتسلّط الأقوياء على الضعفاء، ولطغى المستكبرون في الأرض، ولأضاعوا الحرمات، ولهدّمو بيوت الله، فالمسلمون حينما

(١) سبق تخريجه ص ١٩٨.

أُذِنَ لَهُم بِالْقِتَالِ كَانُوا يَدَافِعُونَ حَتَّى عَنْ الْبَيْعِ وَالصَّلَوَاتِ، عَنْ مَعَابِدِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَا يَدَافِعُونَ عَنِ الْمَسَاجِدِ.

ثُمَّ تُبَيِّنُ الْآيَاتُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا انْتَصَرُوا لَمْ يَكُنْ شَأْنُهُمْ أَنْ يَقِيمُوا الْبَاطِلَ، أَوْ يُؤِيدُوا الظُّلْمَ، أَوْ يَنْشُرُوا الطُّغْيَانَ، وَلَكِنَّهُمْ إِذَا مُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾، رَعَوْا حَقَّ اللَّهِ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَرَعَوْا حَقَّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ بِإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، كَانَ هَذَا شَأْنُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

طبيعة رسالة المسيح:

أَمَّا الْمَسِيحُ ﷺ فَكَانَ لَهُ شَأْنٌ آخَرُ، الْمَسِيحُ لَمْ يَبْنِ أُمَّةً، وَلَمْ يُؤَسِّسْ دَوْلَةً، بَلْ لَمْ يُؤَسِّسْ أُسْرَةً، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ وَلَمْ يَنْجُبْ، كَانَ شَأْنُهُ أَنْ يَصْلَحَ فُسَادَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنْ يَقَاوِمَ غُلُوبَهُمْ وَطُغْيَانَهُمْ فِي الْمَادِيَةِ وَالشَّكْلِيَّةِ وَالطَّقُوسِيَّةِ، بِأَنْ يَخَفِّفَ مِنْ غُلُوبِهِمْ.

وَلِذَلِكَ كَانَتِ الْمَسِيحِيَّةُ - فِي حَقِيقَتِهَا - عِلَاجًا لِهَؤُلَاءِ، وَكَانَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَغَالَاةِ أَيْضًا فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ رِسَالَةً مُؤَقَّتَةً، لَمْ تَكُنْ رِسَالَةً عَالَمِيَّةً، فَالْمَسِيحُ - كَمَا فِي الْإِنْجِيلِ - يَقُولُ: إِنَّمَا بُعِثْتُ لَخِرَافِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ^(١). جِئْتُ لِهَذَا الْقَطِيعِ الضَّالِّ الضَّائِعِ؛ لِأَحَاوِلَ أَنْ أُرُدَّهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَقَالَ: إِنَّ رِسَالَتَهُ لَيْسَتْ هِيَ الْخَاتِمَةُ، بَلْ سَيَأْتِي بَعْدَهُ (الْفَارْقَلِيطُ)، وَهِيَ كَلِمَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْحَمْدِ، الَّذِي سَيَكْسِرُ عُمُودَ الْكُفْرِ، وَسَيُبَيِّنُ لِلنَّاسِ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَنْشُرُ النُّورَ، وَيَفْعَلُ، وَيَفْعَلُ^(٢). وَهِيَ أَوْصَافٌ لَا تَنْطَبِقُ إِلَى

(١) إِنْجِيلُ مَتَّى (٢٤/١٥).

(٢) انْظُرْ: الْجَوَابُ الصَّحِيحُ لِمَنْ بَدَلَ دِينَ الْمَسِيحِ لِابْنِ تَيْمِيَّةٍ (٢٩٢/٥)، نَشْرُ دَارِ الْعَاصِمَةِ، =

على مُحَمَّد ﷺ، وتتوافق مع ما قاله القرآن: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

على كلِّ حالٍ كانت المَسِيحِيَّة رسالة مؤقتة لطائفة محدودة من النَّاس، ولذلك لم يكن همُّ المسيح إِلَّا أن يقاوم شَكليَّة هؤلاء، وتمسُّكهم بالحرفيَّة، بأن يدعوهم إلى الرُّوحانيَّة، إلى المثاليَّة، يقول: إِنَّ الغنيَّ لا يدخل ملكوت السماوات حتَّى يلج الجملُ في سمِّ الخياط^(١). دعا النَّاس إلى الزهد المطلق، وهذه لا تصلح دعوة عامَّة للبشر جميعًا.

وقال: كان مَنْ قبلكم يقولون: السنُّ بالسنِّ، والعينُ بالعين، والأنفُ بالأنف. وأنا أقول: مَنْ ضربك على خدِّك الأيمن فأدر له خدَّك الأيسر^(٢). هذه دعوة مثاليَّة تصلح لمجتمع محدود، ولا تصلح للبشر عامَّة في كل زمان، وفي كل مكان، وإلا فبعض النَّاس إذا لطمك على خدِّك الأيمن وأدرت له خدَّك الأيسر فإنَّه سيلطمك اللطمة الثانية والثالثة؛ فهل مثل هذا الأمر يصلح للنَّاس عامَّة؟

هناك قابيل وهناك هابيل، هناك ابن آدم الشرير وابن آدم الخير الطيب، قال ابن آدم الشرير لأخيه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧]. فماذا حدث

= السعودية، ط ٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، وهداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن القيم (٣٢٨/١)، نشر دار القلم، جدة، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م. وقد غيرت الترجمات العربية الحديثة للإنجيل كلمة (الفارقليط) التي تدور حول معنى الحمد إلى المُعَزِّي. انظر: إظهار الحق لعلامة الهند محمد رحمت الله (١١٨٥/٤) وما بعدها، تحقيق محمد أحمد الملكاوي، نشر الرئاسة العامة للبحوث والإفتاء، السعودية، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

(١) إنجيل متَّى (٢٤/١٩).

(٢) إنجيل متَّى (٣٩/٥ - ٤٢)، ولوقا (٢٩/٦، ٣٠).

بعد قال له الخير: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧، ٢٨]؟ هل ارتدع؟ لا، لم يرتدع؛ ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَاصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠]، فإذا كثر إخوة قابيل، وأتباع قابيل ذوو النزعة الشريرة؛ ماذا يمكن أن نفعل؟ لا بد أن نقف بالقوة ضد هؤلاء.

الإسلام شريعة العدل والإحسان:

وهذا ما شرعه الإسلام، الإسلام شرع العدل، وشرع الإحسان والفضل، العدل: أن تُقابل السيئة بالسيئة. والفضل: أن تعفو عمن أساء إليك.

وهذا ما يقوله القرآن: ﴿ وَجَزَاؤُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ * وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٠ - ٤٣]. فيمكن أن تنتصر من ظالمك، ويمكن أن تغفر وتعفو، حسب ما تراه.

ويقول: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ * [النحل: ١٢٦]. لا تزيد ولا تتجاوز، ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ * [النحل: ١٢٦].

ولذلك كان النبي ﷺ أحياناً يعاقب وينتقم ممن ظلم وأساء، وكان أحياناً يعفو؛ حسبما يتطلب الموقف، ففي فتح مكة عفا عن أهلها جميعاً، وقال لهم: « ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ » [يوسف: ٩٢]؛ اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١). عفا عنهم جميعاً إلا أفراداً محدودين.

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤١٢/٢).

ولكن في غزوة بني قُرَيْظَةَ لم يعف ولم يسامح؛ لأنَّ جريمة يهود بني قُرَيْظَةَ كانت فظيعة، كانوا قد اتَّفَقُوا مع رسول الله ﷺ على الجهاد المشترك، إذا هاجم المدينة مُهاجِم أن يكونوا بأنفسهم وأموالهم مع رسول الله ضدَّ المُغِيرِينَ، فإذا بهؤلاء اليهود في أشدَّ الظروف وأحلك الأوقات ينقضون العهد، وينضمون إلى المهاجمين في وقت يُراد فيه إبادة المسلمين إبادة كاملة، يُراد تصفيتهم نهائيًّا، حيث جاء جيش جرار من قريش وغطفان وأحابيشهما يغزو المسلمين في عقر دارهم، ويحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم.

ولو نجحت خطَّتهم لقُضي على الإسلام، ولقُضي على المسلمين، ولم يُعبد الله في الأرض، كما أحب البعض ذلك حسدًا من عند أنفسهم؛ لأنَّ محمدًا خاتم النبيين، ولأنَّ هذه الأمة آخر الأمم.

كانت جريمة يهود بني قُرَيْظَةَ جريمةً بشعة فظيعة، وزاد من بشاعتها أنَّهم قبل ذلك أعانوا المشركين، هم وبنو النضير، وسامحهم النبي ﷺ، فلو سامحهم مرَّة أخرى لقالوا: ضحكنا على محمد. و«لا يُلدغ المؤمنُ من جحرٍ مرَّتَيْن»^(١).

ثمَّ إنَّ العربي إذا عفوت عنه وسامحته عرف لك هذا الفضل، أمَّا اليهوديُّ إذا تکرَّر سماحك له فهو يقول: خدعته وضحكت عليه. والشاعر يقول:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا^(٢)

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٣٣)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٨)، عن أبي هريرة.

(٢) ديوان المتنبي ص ٣٧٢.

كما أنَّ جريمة بني قُرَيْظَةَ كانت في وقت لا يمكن التسامح فيه، كان وقت البناء والتأسيس، والدُّنْيَا هائِجَةٌ من حول المسلمين، وقد رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة، أمّا في فتح مَكَّة فقد استتب الأمر للمسلمين، فلا مانع من السماح والعفو.

بين سيرة مُحَمَّدٍ والمسيح:

هكذا نرى محمداً ﷺ رجل دولة، يبنّي أُمَّة، ويشرّع سياسة، ويقيم للنّاس مناهج، ولم يكن المسيح ﷺ كذلك، فلا يُتصور منه أن يكون عنده مثل ذلك.

ولذلك تميّز السيرة النبويّة بأن فيها متّسعاً للقدوة، لكل مَنْ يريد أن يقتدي، يجد المقاتل المدافع في سيرته ﷺ قدوة فيما يفعله عند الحرب، ويجد المسالم في سيرته ﷺ قدوة فيما يفعله عند السلم، يجد أسوة في حالة الانتصار، ويجد أسوة في حالة الانكسار.

ولكن سيرة المسيح ليس فيها مثل هذا، حتّى إنّ الإنسان لا يجد في حياة المسيح ﷺ: كيف يتعامل الزوج مع زوجته؟ وكيف يتعامل الأب مع أبنائه؟ وكيف يتعامل الجد مع أحفاده؟ لا يوجد هذا في سيرة المسيح ﷺ، فهي سيرة محدودة، أمّا مُحَمَّدٌ ﷺ فسيرته مفتوحة عامّة شاملة جامعة.

غزوات الرسول وسرايا أصحابه:

لقد خاض مُحَمَّدٌ ﷺ الحروب والمعارك، ولكنّه خاضها بالحق لا بالباطل، خاضها ليقم العدل، ويطرّد الظلم، وهذه سيرته وسُنّته واضحة مكشوفة لكل مَنْ يقرأ، ولكل مَنْ يدرس.

ولو أننا تتبعنا الغزوات المُحمَّديَّة، وهي نحو سبع وعشرين غزوة، والسرايا النبويَّة التي بعث فيها أصحابه، وهي بضع وخمسون سرية، لو بحثنا عن نتائج هذه المعارك كلها سنجدها بضع مئات.

في غزوة بدر قُتل فيها سبعون من المشركين، وحوالي أربعة عشر استشهدوا من المسلمين، وفي غزوة أحد استشهد سبعون من المسلمين، وأفراد من المشركين، ولم يُقتل في غزوة الخندق إلاَّ آحاد، ولم يقتل في فتح مكَّة إلاَّ أفراد، وكذلك فتح خيبر، وجلاء بني قَيْنُقَاع وبني النَّضِير، وقد ذكرنا موقف بني قُرَيْظَة، أمَّا هَوَازِن والطائف وثقيف فلا يمكن أن يزيد القتل فيها عن مئات على أقصى شيء.

القتال في الكتاب المُقدَّس:

ولكن إذا نظرنا إلى ما جاء في التوراة التي يقول فيها هذا القس: إنَّ موسى كان قدوة في الدعوة إلى السلام. التوراة التي يؤمن بها اليهود والنصارى اليوم، والتي يُسمُّونها (الكتاب المُقدَّس)، مَنْ قرأ (سفر التثنية) في التوراة، وهو الَّذي يتضمَّن التشريعات، وقرأ الفقرات التي تتعلَّق بالحرب والقتال يشيب رأسه، يقفُّ شعره من هول ما يقرأ؛ إن هذه التوراة تبيح الدماء، وتبيح قتل الأطفال، وقتل النساء، بل قتل الحمير، وقتل البهائم، وتخريب العامر، ولا تُبقي شيئاً إلاَّ جعلته ياباً، هكذا قال الرب لموسى: عندما تدخل قرية افعل بها كذا، واضرب رجالها ونساءها بحدِّ السيف^(١). هذا ما تقوله التوراة.

ومن يقرأ التوراة يجد ضحايا القتال الذي قام به موسى، وقام به يشوع أو يوشع بن نون من بعده، أو قام به داود، عشرات الآلاف من

(١) سفر التثنية (١٠/٢٠ - ١٨).

الضحايا ومن القتلى؛ يتساءل: أين هذا من ضحايا غزوات مُحَمَّد ﷺ، وسرايا أصحابه؟ فهؤلاء يضللون الناس، إما أنهم جهلة لم يقرؤوا، ولم يعرفوا الحقائق، أو أنهم كذبة يعرفون الحقائق ثم ينكرونها، ويكذبون على خلق الله.

الامتنان بنعمة السلام:

لم يكن مُحَمَّد ﷺ رجلاً مُتَعَطِّشاً للدماء، لا والله، حينما تمر المعركة بغير دماء وقتال نقرأ في القرآن الذي أنزله الله على مُحَمَّد، وهم يزعمون أنه من كلام مُحَمَّد، نجد القرآن وهو يُعَقِّبُ على غزوة الخندق، غزوة الأحزاب، التي يصفها الله تعالى بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

يُعَقِّبُ القرآن على هذه الغزوة التي ردَّ الله فيها الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا من المسلمين شيئاً، فيقول: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. انظروا إلى هذا التعبير: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾. الحمد لله؛ انتهت المعركة بغير دماء وبغير قتال، هل يقول هذا كتاب يتعطش نبيه للدماء؟

وفي غزوة الحديبية التي انتهت بصلح مع قريش كان ظاهره أن فيه ضيماً على المسلمين، وجوراً على حقوقهم، واعترض عليه عمر وبعض الصحابة في البداية، ولكن كان فيه الخير كل الخير، أنزل الله في هذا الصلح سورة سمّاها سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. قال عمر بن الخطاب: أفتح هو يا رسول الله؟ استبعد أن يكون فتحاً بغير حرب، بغير أن تُسلَّ السيوف، أفتح هو يا رسول الله؟ قال:

«نعم هو فتح»^(١). اعتبر أنَّ المهادنة والموادعة مع قريش، وأن يلقي النَّاس السلاح عشر سنوات، ويكفَّ بعضهم عن بعض.. اعتبر القرآن هذا فتحًا، بل فتحًا مبينًا!

ويقول في هذه السورة: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]. معقول أن يمتنَّ الله على المؤمنين بأنَّه كفَّ أيدي المشركين عنهم، لكنَّه يمتنُّ هنا أيضًا بأنَّه كفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين من بعد أن أظفرهم عليهم، ومعنى هذا أنه يمتنُّ عليهم بنعمة السلام، هذا ما جاء به القرآن الذي أنزله الله على مُحَمَّد ﷺ.

كراهة التسمية بحرب:

ويقول النبي ﷺ: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ: عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ؛ وَأَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ: حَارِثٌ وَهَمَامٌ؛ وَأَقْبَحُ الْأَسْمَاءِ: حَرْبٌ وَمُرَّةٌ»^(٢). فأحبُّ الأسماء إلى الله ما عبَّد وحمَّد، وأصدق الأسماء حارث: وهو العامل، وهمام: وهو الذي يهتم بالشيء، وهي صادقة لأن النَّاس إما أنَّهم يعملون ويشغلون أو يهتمون بالعمل والشغل.

وأقبح الأسماء حرب ومُرَّة، حتَّى إنَّه ﷺ يكره لفظ حرب، كلمة حرب، كان الجاهليون يسمون أبناءهم باسم حرب، مثل أبي سفيان بن حرب، فمحمَّد ﷺ يكره هذا الاسم، كما يكره اسم مُرَّة لما فيه من

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الجزية (٣١٨٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٥)، عن سهل بن حنيف.

(٢) رواه أحمد (١٩٠٣٢)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأدب (٤٩٥٠)، والنسائي في الخيل (٣٥٦٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٠٤، ١٠٤٠)، عن أبي وهب الجشمي. وعُلِّل الإمام الخطابي قبح اسم «حرب» لما في الحرب من المكاره. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٢٨٧/١)، تحقيق د. عبد الله الجبوري، نشر مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٣٩٧هـ.

المرارة، فهو يحبُّ الأسماء التي فيها تفاؤل، «أقبح الأسماء حربٌ ومُرة»؛
أيقال هذا نبيٌّ يتعطش للدماء، ويوصف بأنه كان عنيفاً؟ لا والله، لم يكن
مُحمَّد ﷺ عنيفاً، وما كان قاسياً.

الترغيب في الرفق والتنفير من العنف:

بل كان ﷺ يدعو إلى الرفق واللطف، وينهى عن الخشونة والعنف،
دخل عليه بعض اليهود فقالوا: السام عليك يا مُحمَّد. لوَّوا ألسنتهم بدل
أن يقولوا: السلام. حرَّفوا الكلمة وقالوا: السَّام. والسَّام يعني الموت
والهلاك، فقال ﷺ: «وعليكم».

لكن عائشة سمعتهم وغازها هذا التَّحريف فقالت: بل السَّام واللعنة
عليكم يا أعداء الله. فقال لها: «يا عائشة، إنَّ الله يحبُّ الرفق في الأمر
كله». قالت: أو لم تسمع ما قالوا يا رسول الله؟ قال: «فقد قلت:
وعليكم»^(١). قالوا: الموت عليك يا محمد. فقال: وعليكم. يعني أنَّ
الموت مكتوب على الجميع، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ﴿كُلُّ
نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

لم يشأ مُحمَّد ﷺ أن يجعل الأمر معركة، مع أنَّ هذا من سوء الأدب،
أن تذهب إلى شخص وتقول له: الموت عليك. صحيح أنَّ الموت حق،
لكن هذا سوء أدب، ولذلك اغتاظت عائشة، ولكن النبي علَّمها هذا
الدرس في التعامل: «إنَّ الله يحبُّ الرفق في الأمر كله».

ولذلك روت عائشة عنه ﷺ: «إنَّ الله يحبُّ الرفق، ويكره العنف،
ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»^(٢). وروت عنه ﷺ:

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام (٢١٦٥)، عن عائشة.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٣)، عن عائشة.

«ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا نُزِعَ من شيء إلا شانه»^(١). فهو يدعو إلى الرفق، ويكره العنف، ويقول: «من أُعطي حظه من الرفق أُعطي حظه من الخير»^(٢). هكذا وردت أحاديث عدة عنه.

وقال الله تعالى له: ﴿فَمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. لم يكن فظًا ولا غليظ القلب؛ بل كان أرحم الناس بالناس، وأرفق الناس بالناس، وأرحم الناس للناس، يقول: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء»^(٣)، «لن تدخلوا الجنة حتى ترحموا». قالوا: يا رسول الله، كلُّنا رحيم. قال: «أما أنها ليست برحمة أحدكم صاحبها، أنها رحمة العامة»^(٤). أن ترحم الناس جميعًا، هكذا عليه السلام يرحم الناس جميعًا، حتى في الحرب.

أخلاقيّة الحرب في الإسلام:

عادة الناس في الحرب أن يكونوا غاضبين منفعلين، ويحاولون أن ينتقموا من أعدائهم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقتلوا وليدًا، ولا تغدروا، ولا تُمَثِّلُوا»^(٥). كان المشركون - كما في غزوة أحد - يقطعون الأنوف،

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٤)، وأحمد (٢٤٣٠٧)، عن عائشة

(٢) رواه أحمد (٢٧٥٥٣)، وقال مخرّجوه: بعضه صحيح، وبعضه صحيح لغيره. والترمذي في البر والصلة (٢٠١٣)، وقال: حسن صحيح. عن أبي الدرداء.

(٣) رواه أحمد (٦٤٩٤)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الأدب (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح. والحاكم في البر والصلة (١٥٩/٤)، وصحّحه، ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في الصحيحة (٩٢٥)، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) عزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٠٩) للطبراني وقال: رواه رواة الصحيح. وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦٧١). ورواه النسائي في الكبرى في القضاء (٥٩٢٨)، والحاكم في البر والصلة (١٦٧/٤)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، بلفظ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى ترحموا». عن أبي موسى الأشعري.

(٥) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأحمد (٢٣٠٣٠)، عن بريدة.

ويجدعون الأذان، ويُشوّهون صورة القتلى، وقالوا: إنهم بقروا بطن حمزة بن عبد المطلب، وأخرجوا كبده، وحاولت هند بنت عتبة أن تلوكها وتأكلها^(١). هكذا كان العرب، وكان غيرهم من الأمم، ولكن النبي ﷺ نهاهم عن المثلة، عن التشويه، فللميت حرمة، أي ميت كان.

مروا ذات مرة على النبي ﷺ بجنزة، فقام لها واقفاً، احتراماً للميت، فقالوا: يا رسول الله، أنها جنزة يهودي. فقال ﷺ: «أليست نفساً؟»^(٢). انظروا، ما أروع الموقف، وما أروع التعليل، «أليست نفساً؟». أنها نفس بشرية ينبغي أن تُحترم عند موتها، «أليست نفساً؟». بلى، ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكانة.

ميكافيلية الغرب:

وإذا كانت الحرب في الإسلام حرب أخلاقية، فإن الحرب عند الغربيين - المسيحيين للأسف - منفصلة عن الأخلاق، كما أن الاقتصاد عندهم منفصل عن الأخلاق، والسياسة عندهم منفصلة عن الأخلاق، والعلم عندهم منفصل عن الأخلاق، عندهم هذه النظرية الملعونة المشؤومة، نظرية الفيلسوف السياسي (ميكافيلي) الذي زعم أن الغاية تبرر الوسيلة، فحسبك أن تريد العدل في ظنك، ولا مانع من أن تتخذ من الوسائل ما ليس مشروعاً! الغربيون عامة يؤمنون بهذا، بل كثيراً ما تكون الغايات عندهم غير أخلاقية، كما نرى اليوم في مواقفهم السياسية المختلفة.

كُنَّا نودُّ من هذا القسّ الأمريكي الذي هاجم وافترى على نبي الرحمة مُحَمَّد ﷺ أن يقف مع الحقّ ضدّ الباطل، وأن يقف مع العدل ضدّ الظلم،

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٩٥/٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣١٢)، ومسلم (٩٦١)، كلاهما في الجنائز، عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد.

وأن يقف مع المستضعفين ضد الطواغيت، ولكنه للأسف يقف مع إسرائيل، مع الصهاينة، في حقهم وباطلهم، في عدلهم وظلمهم، في صوابهم وخطئهم؛ يرى أنهم أصحاب الحق.

الإرهاب الإسرائيلي:

كنا نود من هذا القس الذي قال عن محمد ﷺ ما قال أن ينكر على بني إسرائيل ما يفعلونه بإخوتنا في فلسطين، أن ينكر قتل النساء، وقتل الأطفال، وقتل الشيوخ، وقتل المدنيين، وتدمير المنازل، وتحريق المزارع، وتخريب المدارس والمساجد والطرق، وهذا الحصار الذي يراد منه تجويع الشعب الفلسطيني وتركيعه.

كنا نود من هذا القس المتدين أن يشجب هذه الأعمال الوحشية التي لا يقرها دين في السماء، ولا قانون في الأرض، لكن هذا القس يساند القساوسة بكل قوته، وحينما دعا (بوش) في وقت من الأوقات، وطلب من الصهاينة أن ينسحبوا من المدن الفلسطينية بعث إليه برسالة ينكر هذا الموقف، ينكر أن ينسحب الإسرائيليون المحتلون الذين ليس لهم أي حق في احتلال هذه الأرض، بعث إلى بوش ينكر عليه دعوته الإسرائيليين أن ينسحبوا!

هل يعتبر هذا الموقف دينياً؟ ذلك الموقف الذي يناصر الطغيان، ويقف مع الظلم والجبروت، الذي يكثر الفساد، ويطغى في البلاد؛ أهذا موقف ترضاه السماء، ويرضاه المسيح داعية الحب، وداعية السلام؟ أهذه دعوة إلى السلام أيها المسيحيون، أيها القساوسة؟ يا رجال الدين، أين ما تدعون إليه؟ أين الحق في هذه المواقف!!

إننا نعجب، ثم نعجب، ثم نعجب من مواقف هؤلاء الظاهرة البطلان، والواضحة للعيان، التي ينكرون فيها الحقائق، وهي كالشمس في رابعة

النهار، يقفون مع الصهاينة الطُّغاة الظالمين الذين اغتصبوا أرضاً ليست أرضهم، وأقاموا فيه دولة، فسَلَّم النَّاسُ بهذه الدولة، ثمَّ هم يحتلون الآن بلدًا آخر في فلسطين الذي تقول الأمم المتحدة، ويقول مجلس الأمن، ويقول العالم: أنها ليست إسرائيلية. كيف يباح لهم أن يحتلوا هذه الأرض؟

الغيرة والغضب للرسول والمُقدَّسات:

إننا نقول: إنَّ أعظم شخصيَّة في التاريخ هي شخصيَّة مُحَمَّد ﷺ الذي أنشأ أُمَّة من عدم، وأقام دينًا هو خير الأديان، وأسَّس دولة قامت على العدل والإحسان والشورى، وطبَّقت أفضل مناهج عرفها التاريخ، مناهج تقوم على التكامل والتوازن، وتجمع بين المثاليَّة والواقعية، بين الحقوق والواجبات، تمزج الرُّوح بالمادَّة، والعقل بالقلب، وتصل الأرض بالسماء، والدُّنيا بالآخرة.

هذا ما أقامه مُحَمَّد ﷺ، فإذا تطاول متطاولٌ من هؤلاء على مقام مُحَمَّد ﷺ؛ فإنَّ من حقِّنا - أُمَّة الإسلام - في المشارق والمغارب أن نغضب لرسولنا، وأن نغضب لمُحمَّدنا، وأن نغضب لمُقدَّساتنا، ومن حقِّنا أن نشور على هؤلاء، ومن حقِّنا أن نقول لهم: قِفُوا عند حدِّكم، ولا تتطاولوا على مقام هو أعظم مقام بشري في تاريخ هذا العالم.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿[التوبة: ٣٢ - ٣٣].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه؛ إنَّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية

أما بعد، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

الصدام بين فتح وحماس:

فلا زال الكيان الصهيوني المتجبر الظالم الطاغوي يعيث في البلاد، ويكثر فيها الفساد، لا زال هذا الكيان يقتل ويدمر ويحرِّق ويخرِّب، لا زال يفعل بإخوتنا الفلسطينيين كل يوم ما تقشعر منه الأبدان، وتشيب لهوله الولدان، لا زال يفعل هذا.

ولا زال إخوتنا في فلسطين يقاومون ويقاومون، ويضربون أروع الأمثلة، ويخطُّون للتاريخ ما يفخر به، وإن كان ممَّا يخزي له التاريخ ويُسجِّلُه بالعار والسَّار موقف القادة العرب في كلِّ مكان من الاستخزاء والاستسلام، وترك إخواننا يتجرَّعون الصابَ والعَلَم، ويخوضون المعركة وحدهم، ويتحمَّلون المصائب وحدهم.

وليس من أخلاق الإسلام، ولا من أخلاق العرب، ولا من الإنسانيَّة في شيء أن يُترك إخوتنا وحدهم، أين الأُمَّة العربيَّة، وأين القوميَّة العربيَّة، وأين الأخوة الإسلاميَّة، وأين العقيدة الإسلاميَّة؟ أين.. أين؟

إنَّنا نُحيِّي إخوتنا في فلسطين، نترحم على الشهداء، ونبارك موقف الرجال والأبناء والنساء، ونقول لهم: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، إنَّ مع اليوم غداً، وإنَّ غداً لناظره قريب، ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

كل ما نطلبه من إخواننا في فلسطين - سلطة ومعارضة - أن يقفوا صفًا واحدًا، وجبهة مترابطة، ولا يسمحوا لكيد الكائدين ووسوسة الموسوسين، أن تجعلهم يصطدم بعضهم ببعض، كل ما تريده إسرائيل، وتريده أمريكا من ورائها أن يضرب الفلسطينيون بعضهم بعضًا، وأن يكيد بعضهم لبعض، وأن يتمزق الصف، وأن يُوجَّه السلاح الفلسطيني إلى الصدر الفلسطيني، هذا ما نُحذِّر منه.

لقد تألمنا أشد الألم حينما وقع اصطدام بين فتح وحماس في الأسبوع الماضي، ونرجو ألا يتكرر هذا، وأن يكون إخواننا أعقل وأحكم وأكيس من أن يقعوا في المصيدة، وأن يقعوا في الفخ الذي نُصب لهم، يجب على الجميع أن يعلموا أن عدوهم واحد، ولا ينبغي أن تُوجَّه رصاصة إلا إلى صدره.

نسأل الله تعالى أن يجمع كلمتهم، وأن يسدد رميتهم، وأن يقوّي شوكتهم، وأن يفتح لهم فتحًا مبينًا، ويهديهم صراطًا مستقيمًا، وينصرهم نصرًا عزيزًا، اللهم أتم عليهم نعمتك، وأنزل في قلوبهم سكينتك، واكلاًهم في كنفك الذي لا يُضام، واحرّسهم بعينك التي لا تنام، وانصرهم على عدوك وعدوهم.



عظمة أخلاق النبي ﷺ (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

لا زالت معركة الدفاع عن رسول الله ﷺ، والغضب للإساءة إلى حرمة هذا النبي العظيم: دائرة الرحي في العالم الإسلامي وخارجه، وهي معركة فُرضت علينا وهي كُرْهُ لَنَا، لم نكن نحن البادئين بها، نحن الذين اعتدي علينا دون أي سبب، ودون أي مقدمات تدعو إلى ذلك، فكان على الأمة أن تغضب لرسولها ونبينا العظيم.

وحينما دعونا إلى جعل يوم الجمعة الماضي يوم غضب لله ولرسوله، ولأنبياء الله جميعاً، ولمقدّسات الإسلام، وكل مقدّسات الأديان - حتى الوثنيّة منها - أردنا أن يكون هذا الغضب غضباً عاقلاً حكيماً، غير متهور ولا متجاوز للحدود، ولذلك أنكرت بعض ما أدى إليه بعض هذا الغضب في بعض البلاد، من تجاوز وتعدّ للحدود، حيث أحرقت بعض السفارات أو القنصليات أو الكنائس، أو اعتدي على بعض الممتلكات الخاصّة أو العامّة أو الأشخاص، فهذا ما لم نرده قط.

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٣ فبراير ٢٠٠٦م.

أمة محمد لا تسكت عن إهانة نبيها:

نحن نريد أن نبلغ صوتنا إلى العالم كله؛ ليعلم الناس أن أمة مُحَمَّد لا يمكن أن تسكت على إهانة نبيها العظيم، هذا قدس الأقداس، هذا أعز المقدّسات لديها، ولا يدخل هذا في حرية التعبير قط، لا يمكن أن يفهم أحد أن حرية تعبيرك تجعلك تسيء إلى الناس دون سبب، أين حرية التعبير في هذا؟ فهذا الغضب من حق هذه الأمة، ولا زلنا متمسكين بحقنا.

دعوات إيجابية للرد على الإساءات:

وقد دعونا إلى أشياء إيجابية، لم ندعُ إلى قتل أحد، كما ادّعت عليّ كذبًا إحدى الصحف الإيطالية، على لسان رجلٍ عربي كذاب هناك؛ ادّعى أنني دعوت إلى قتل الرّسّامين ومديري الصحف، وقد سمعتم وسمع الملايين معكم عبر هذه الفضائيّة القطريّة خطبتي ما دعوتُ إلى قتل أحد! دعوت إلى الغضب العاقل لرسول الله، دعونا الحكومات أن تضغط على الأمم المتّحدة؛ لإصدار قرارٍ صريحٍ دوليٍّ يمنع الإساءة إلى مُحَمَّد ﷺ، وإلى كلّ أنبياء الله ورسله، وإلى مقدّسات الأديان جميعًا، قرار صريح ليس فيه مجال للالتباس أو الاشتباه، وهذا كلام صحيح، مَنْ يعيب علينا هذا؟ لأنّ هذه الإساءات مصدر للنزاع والصراع بين الأمم والشعوب، ونحن ندعو إلى السلام وإلى المحبّة، لا إلى العداوة ولا إلى البغضاء.

ودعونا إلى مقاطعة البضائع الأجنبية، بضائع الدانمارك، ومن تضامن معها من الدول وأصر على هذا، وهذا من حقنا، إن بعض من تحدث من الدانماركيين قال: المسلمون لا ينتجون ونحن ننتج، فكيف يستغنون عنا؟

ونقول لهم: والله نستطيع أن نستغني عنكم بدائل من الشرق، من الصين ومن اليابان، ومن كوريا ومن تايوان، ومن ماليزيا ومن غيرها، ونستغني عنكم بما لدى بعضنا أيضًا، ونستغني عنكم بالتقلل والتزهد، لو تقرر هذا؛ ولم نجد إلا أن نصوم ونحصى حمى رسولنا ﷺ لصمنا وجعنا؛ من أجل الدفاع عن حرمة رسول الله ﷺ.

صورة زائفة شائنة:

واليوم أيها الإخوة نريد أن نقف موقفًا إيجابيًا للدفاع عن رسولنا ﷺ، نحن نعلم أن الغربيين عندهم صورة شائنة ورثوها عن مُحَمَّد ﷺ منذ الحروب الصليبية، تتمثل هذه الصورة في أن رجلًا قام في جزيرة العرب ادّعى النبوة كذبًا، وادّعى أنه موحى إليه من الله، والسيف في يمينه يقطع به الرقاب، وكلما وجد امرأة جميلة ضمّها إلى حريمه، وهو يعبد حجرًا أسود في مكة، إلى آخر هذه الافتراءات التي افتروها أثناء الحروب الصليبية وبعدها.

وما زالت هذه الصورة الكاذبة الزائفة الشائنة، التي ليس لها من الصحة أدنى نصيب: تعمل في عقول الكثيرين منهم، ومنها عقول أصحاب هذه الجريدة ومن قلّدهم، فهم ينظرون إلى مُحَمَّد ﷺ على أنه رجل سفّاح، يضع قبلة في عمامته، ويغتصب النساء الجميلات والأطفال القاصرين، وكذا من الأكاذيب، التي ما أنزل الله به من سلطان.

الصورة الصحيحة للنبي ﷺ:

ولذلك كان علينا نحن المسلمين أيها الإخوة: أن نقدّم للعالم صورة صحيحة عن مُحَمَّد ﷺ، وعن رسالته، نحن المسلمين الذين بلغوا ملياراتًا

وثلث مليار من البشر، أو أكثر، هم يتكاثرون بحمد الله، نحن المسلمين لم نستطع إلى اليوم أن نبلغ رسالة الإسلام الصحيحة إلى العالم، لم نستطع إلى اليوم أن نُقدِّم صورة مُحمَّد المشرقة إلى العالم، وهذا فرض كفاية على المسلمين: أن يقدموا هذه الصورة الجميلة، لهذا الرسول العظيم إلى العالم.

قليل من الغربيين من أنصفوا النبي ﷺ :

قليل من الغربيين هم الذين قرؤوا سيرة هذا النبي وأعجبوا به غاية الإعجاب، فمنهم من آمن بهذا الرسول وآمن بدينه وقال كلمته: يا له من دين لو كان له رجال. دين عظيم ولكنّه لا يجد رجالاً عظماء، منهم من دخل في هذا الدين قديماً وحديثاً، ومنهم من آمن به، ولم يدخل في هذا الدين، ومن هؤلاء الفيلسوف البريطاني الشهير توماس كارلايل الذي ألف كتاباً اسمه (الأبطال)، وجعل من أبطاله محمداً ﷺ، البطل في صورة نبي، جعل محمداً المثل الأعلى لبطولة الأنبياء، وتحدث عن هذا الرسول حديثاً عظيماً.

وقال لمن يشكك في بطولته: ماذا تطلب ممّن يدعي لك أنّه بناء أكثر من أن يقدّم لك بناءً عظيماً يسع آلاف النّاس، ويعيش مئات السنين؟ كذلك ماذا تطلب ممّن يدعي لك أنّه نبي، أنّ الله هدى على يديه الألوف والملايين من النّاس، ولا زال النّاس يدخلون في دينه إلى اليوم، وأهله أكثر النّاس تمسكاً بدينهم من أي أمة في الأرض؟ هكذا قال كارلايل، وقال: ألا فليعلم النّاس أن مثل الباطل كمثّل ورق البنكنوت الزائف، يمرّ من يدٍ إلى يدٍ، إلى عدّة أيدي، ثمّ لا يستمرّ حتّى يُضبط ويُعرف أنّه زائف؛ فلا يستطيع أن يرفع أحد به رأساً.

لا يمكن أن يستمرّ الباطل إلى الأبد، دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَغَابَ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا بَكَتُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

قليل من الغربيين من عرفوا قيمة مُحَمَّد ﷺ، وهم الذين أُتيح لهم أن يدرسوا سيرته بتعمُّق وإنصاف، بعيداً عن التحيز، بعيداً عن الهوى والغرض والمرض، ولكن أكثرهم لم يُتاح لهم هذا، ولم نهئ لهم نحن الفرصة، نحن المسؤولون عن ضلال هذه الأمم، نحن المسؤولون أن نُبلِّغها رسالة مُحَمَّد ﷺ، وأن نعلّمها عظمة مُحَمَّد ﷺ.

عظمة محمد وعبقريته:

ومحمد عظيم بكلّ ميزان كما يقول العقّاد رَحِمَهُ اللهُ في كتابه (عبقريّة محمد)، أَلَّفَ العقّاد هذا الكتاب ليقول: إِنَّ محمداً عبقرى بالنبوة والرسالة، وهذا لا كلام فيه، ولكن إذا نظرنا إلى الأمر بالمقياس البشري المحض المجرد، إذا نظرنا إليه بميزان العظمة البشرية والعبقرية البشرية فهو عبقرى العباقرة، وعظيم العظماء، بكل ميزان، بميزان الدين، بميزان العلم، بميزان الفضائل، بميزان الإنجاز، بكل ميزان مُحَمَّد عظيم.

ويكفي أَنَّ الله ﷻ أَثنى على مُحَمَّد في كتابه بما لم يُثنِ به على رسول من رسله، ولا على نبي من أنبيائه، أَثنى الله على كثير من أنبيائه، وخصوصاً أولي العزم من الرسل، ولكنّه خَصَّ محمداً بما لم يخص به أحداً؛ فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطَا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ

ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

شهادة الله تعالى لنبيه:

ثم شهد له هذه الشهادة العظيمة؛ فقال يرد على المشركين الذين اتَّهموه بالجنون وهم المجانين: ﴿تَوَالَّقَ مَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ - ٤].

انظروا إلى هذه الشهادة، ممَّن هذه الشهادة؟ من رب السماوات والأرض، من خالق مُحَمَّد، والموحي إلى مُحَمَّد، ومعلم مُحَمَّد، من الله ﷻ يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. أي عظمة أن يشهد الله من فوق سبع سماوات، ومن فوق عرشه لِمُحَمَّد ﷺ بعظمة الخلق.

إذا مدح شخص شخصاً له قيمة علمية وأدبية: أصبح الممدوح يعتز بذلك، ويفخر بذلك على الناس، فما بالك بمن أثنى عليه ربه وخلّد ذلك في كتاب نتلو آياته آناء الليل وآناء النهار، نتعبد لله بهذه الشهادة، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ما أعظم وما أروع وما أصدق وما أبلغ هذه الشهادة؛ من الله تعالى لعبده ولرسوله ولصفيه وخليه مُحَمَّد ﷺ.

عظمة الخلق وعظمة الرسالة:

عظمة الخلق تتكافأ مع عظمة الرسالة التي بُعث بها مُحَمَّد ﷺ، فرسالته رسالة عامّة، ليست كالرسالات من قبله، كان كل رسول من قبله يُبعث إلى قومه خاصّة، أمّا هو فُبُعِثَ إلى النَّاسِ كافّة، بُعث إلى الأحمر والأسود، إلى العرب والعجم، إلى أهل الشرق وأهل الغرب، إلى الجن

والإنس، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ما قال نبيٌّ: بُعثت إلى النَّاسِ كافَّةً. المسيح عليه السلام يقول: بُعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالَّة. كلُّ نبيٍّ جاء إلى قومه، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١]، ﴿وإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [العنكبوت: ١٦]، ﴿وإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوِّمُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: ٨٤]، ﴿وإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوِّمُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: ٥٠]، ﴿وإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوِّمُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: ٦١]، هكذا بعث الله الأنبياء إلى أقوامهم، إلَّا محمدًا صلى الله عليه وآله، وهو الَّذي قال: «بُعثت إلى النَّاسِ كافَّةً»^(١). وقال له ربه: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فهي رسالة عامَّة لكافَّة النَّاسِ ولكافَّة الخلق.

رسالة خالدة خاتمة:

وهي رسالة خالدة خاتمة لكلِّ الرسالات، لم يقل نبي: إنِّي آخر الرسل، وليس بعدي رسالة، وليس بعدي شريعة. مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله هو الَّذي أعلن ذلك على الملائكة، وقال: «أنا العاقب فلا نبيَّ بعدي»^(٢). كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقد صدَّقته أربعة عشر قرنًا مضت من الزمان لم تقم نبوة مسموعة لها قيمة، قامت نبوات كاذبة مثل مسيلمة الكذاب وغيره، ولكن لم تقم رسالة ذات قيمة تناوئ رسالة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، فهي الرسالة الخالدة.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٣٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١)، عن جابر.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٢) مختصرًا، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٤)، عن جبير بن مطعم.

وأُمَّةٌ مُحَمَّدٌ هِيَ أُمَّةُ الْخُلُودِ، خَتَمَ اللَّهُ بِقِرْآنِهِ الْكُتُبَ، وَخَتَمَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ الرِّسَالَاتِ، وَخَتَمَ اللَّهُ بِأَمَّتِهِ الْأُمَمَ، وَلِذَلِكَ كَتَبَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَبْقَى، حِفْظُهَا اللَّهُ مِنَ الْإِسْتِثْصَالِ، وَضَمَنَ لَهَا أَنْ تَبْقَى حَافِظَةٌ لِلرِّسَالَةِ؛ فَجَعَلَ مِنْهَا أُمَّةً يُسَمِّيهَا الْعُلَمَاءُ الْأُمَّةَ الْمَنْصُورَةَ أَوْ الطَّائِفَةَ الْمَنْصُورَةَ، بَاقِيَةٌ عَلَى الْحَقِّ، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، هَذِهِ الْأُمَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، الدَّاعِيَةُ إِلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

رسالة شاملة لشؤون الدين والدنيا:

فهذه الرسالة خالدة، وهي أيضاً شاملة مستوعبة لشؤون الدين والدنيا، لم يكن الإسلام مجرد عقيدة لاهوتية، تنزوي في ضمير الإنسان بين المرء وربّه، لا، بل جاءت عقيدة شاملة ورسالة شاملة لكل شؤون الحياة، تستوعب شؤون الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَالْإِسْلَامُ دِينٌ وَدُنْيَا، عَقِيدَةٌ وَشَرِيعَةٌ، عِبَادَةٌ وَمُعَامَلَةٌ، دَعْوَةٌ وَدَوْلَةٌ، خُلِقَ وَقُوَّةٌ، هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

هذه الرسالة بهذا العموم، وهذا الشمول وهذا الخلود، وهذا الامتداد لا بدّ لها من رسول عظيم يحمل أعباءها فكان اختيار الله - ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] - لهذا النبي العظيم الذي وصفه الله بالخلق العظيم، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

صاحب الخلق العظيم:

نحن في حاجة إلى أن نتحدث عن هذا الخلق العظيم، الذي تميز به مُحَمَّدٌ ﷺ، والذي أثنى الله به عليه، ولم يكن هذا الثناء من فراغ، ولكنه

منبئ عن حقيقة، هذا الخلق الذي وصفته عائشة رضي الله عنها - وهي ألصق الناس به، وأقرب الناس إليه - حينما سُئلت عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: «كان خُلُقُه القرآن»^(١). أي أن من أراد أن يعرف تفاصيل الخلق المحمدي فليقرأ القرآن.

وضربت مثلاً بآيات سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٩]. كل هذه الصفات تجدها تتجلى في شخصية مُحَمَّد ﷺ، وفي حياته وفي سيرته.

اقرأ أوصاف المؤمنين في أول سورة الأنفال، أو أوصاف المتقين في أول سورة البقرة، أو أوصاف عباد الرحمن في آخر سورة الفرقان، أو أوصاف الأبرار في سورة الإنسان، أو أوصاف المحسنين في سورة الذاريات، أو أوصاف أولي الألباب في سورة الرعد، اقرأ هذا كله واقرأ سيرة مُحَمَّد ﷺ تجده قرآناً مُفسِّراً، قرآناً يسعى على قدمين، تجده بأخلاقه وفضائله يُفسِّر القرآن، هكذا كان مُحَمَّد ﷺ.

لا انفصال بين مبادئ القرآن وحياته ﷺ:

لم يكن هناك انفصال بين شخصيته وسيرته وحياته العملية وبين القرآن، وإلا لاتَّخذ أعداؤه من ذلك ذريعة إلى الطعن فيه، وقالوا: أين أنت ممَّا تقوله في كتابك يا محمد؛ تدعو إلى الصدق وأنت تكذب،

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١)، عن عائشة.

تدعو إلى الأمانة وأنت تخون، تدعو إلى الوفاء وأنت تغدر، تدعو إلى كذا وأنت كذا. ما استطاع أحد أن يتفوّه بشيء من ذلك طوال حياته، لأنّه كان الصورة الحقيقيّة لأخلاق القرآن، هكذا كان مُحَمَّدٌ ﷺ.

كان يمثل الخلق العظيم في شموله، كان خُلُقُه لكل الناس: للأقوياء والضعفاء، للأنصار والخصوم، للأقارب والأباعد، للمسلمين وغير المسلمين، للإنسان والحيوان، كل ذلك كان خلقه ﷺ، لم يكن له خلق مع جماعة وخلق مغاير مع جماعة أخرى؛ بل كان يتعامل مع أهل بيته وأقرب الناس إليه، كما يتعامل مع أبعد الناس عنه، وأبغض الناس إليه تمامًا.

الرسول في بيته:

كان مع أهله نِعَم الزوج لزوجاته، ونِعَم الأب لأبنائه وبناته، ونِعَم الجد لأحفاده وحفيداته، ونِعَم العشير لعشرائه، ونِعَم الصديق لأصدقائه، كان مثلاً حيّاً، مثلاً عاليّاً للإنسان في هذه العلاقات كلها، حتّى مع خدمه، يقول أنس بن مالك، الَّذِي ذهبت به أمه وهو ابن عشر سنوات إلى النبي ﷺ، وقدمته إلى النبي ﷺ ليعلمه ويتعلم منه، فيقول أنس في أواخر حياته: «خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفّ، ولا: لم صنعتَ؟ ولا: ألا صنعتَ؟»^(١). عشر سنوات لم يرَ الرجل فيها كلمة تسيء إليه، حتّى كلمة (أفّ) الّتي تدلُّ التّأفّف والتّضجّر، لم يسمعها منه. وحتى لو غضب ﷺ على خادم من الخدم عنده؛ كما أغضبته إحدى الخادِمات عنده، فماذا قال لها؟ نظر إليها وقال: «والله لولا القِصاص يوم القيامة؛ لأوجعتُك بهذا السّواك»^(٢). وليس بالسّوط أو الكرباج!

(١) متّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٨)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٩).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٨٤)، وأبو يعلى (٦٩٤٤)، والطبراني (٣٧٦/٢٣)، وجوّد =

القيامة حاضرة عنده، إنَّه يعيش في الدُّنيا بقلب أهل الآخرة، رجلاه تمشيان على الأرض، وعينه ترنوان إلى السماء، يتعامل مع الخلق وقلبه مُعلّق بالخالق، حتّى في التعامل مع الخادمة، الإنسانة البسيطة، ولذلك قال أصحابه: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده أحدًا قط، ما ضرب زوجة، ولا ضرب خادمًا، ولا ضرب دابةً^(١).

حتّى الدوابّ لم ينلها منه أذى، قد يضرب الإنسان حماره إذا نفر، وفرسه إذا حرن، ولكن محمّدًا ﷺ كان أوسع صدرًا، وأعظم صبرًا من أن يضيق بهذه الأمور. انظروا إلى هذا القلب الكبير، إلى هذا الصدر الرحب، الذي يحتمل الخدم، ويحتمل الدوابّ، ويحتمل الخلق جميعًا.

أخلاق النبي مع أعدائه:

هكذا كان خُلُقُه مع النَّاس، مع الأقارب والأباعد، ومع الأحبة والمُبغضين له، كان يستطيع أن يدعو على قريش حينما آذوه، وذهب إلى الطائف وآذاه أهل الطائف، واستقبلوه أسوأ استقبال، وعاد من عندهم مجروح القدمين، ومجروح القلب أكثر من القدمين، وحينما دعا ربه وقال: «اللهم إنّي أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الراحمين»^(٢). وجاءه جبريل معه ملك الجبال يقول له: لو شئت أن أطبق عليهم الأخشبين! على أهل مكّة، وإن شئت كذا.

= إسناده الهيثمي في المجمع (١٨٤١)، وضعفه الألباني في الصحيحة (٤٣٦٣)، عن أم سلمة. ولكن القود (يوم القيامة) ثابت بأحاديث أخرى صحاح.

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٨) عن عائشة.

(٢) سبق تخريجه ص ٧١.

فيقول: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»^(١). يرجو أن يؤمن هؤلاء الكفار، وأن يهتدي هؤلاء الضلال؛ فلم يئس منهم أبداً؛ لأنه ﴿لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٢). هذا قلب كبير يسع الأقارب ويسع الأبعد، يتعامل مع الأنصار ومع الخصوم، هكذا كان خلقه ﷺ خلقاً شاملاً، يشمل الحياة كلها.

أخلاق ثابتة غير متغيرة:

وكان من عظمة هذا الخلق المحمدي أنه خلق ثابت، هناك بعض الناس يتصف بالفضائل في حين من الزمن، فإذا تغير حاله تغيرت أخلاقه، فهو عند الغنى بأخلاق، وعند الفقر بأخلاق، عند اليسر بأخلاق، وعند العسر بأخلاق، عند الانتصار بأخلاق، وعند الانكسار بأخلاق، في حالة الضعف بأخلاق، وفي حالة القوة بأخلاق، لا، ولكن مُحَمَّدًا ﷺ ظل ثابتاً على أخلاقه.

أخلاقه في السلم هي أخلاقه في الحرب، ليس عنده ما قاله الغربيون من أن الغاية تبرر الوسيلة، لا، لا يقبل أبداً إلا الغاية الشريفة والوسيلة النزيهة، لا يقبل الوصول إلى الحق بطريق الباطل أبداً، «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(٣)، هكذا علم أمته، السياسة عنده ترتبط بالأخلاق، والحرب عنده ترتبط بالأخلاق، والاقتصاد عنده يرتبط بالأخلاق، والعلم عنده يرتبط بالأخلاق، لا انفصال عنده بين الحياة والأخلاق أبداً.

(١) سبق تخريجه ص ٥٩.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢)، عن عبد الله.

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

ولذلك رفض أن يُقاتل، وأن يُقتل إلا من يقاتله، رفض قتل النساء والصبيان، وحينما رأى امرأة مقتولة في إحدى المعارك أنكر هذا على أصحابه وقال: «ما كانت هذه لِتُقاتل»^(١). ونهى عن قتل النساء والصبيان^(٢)، فالحرب التي يُفترض أن تغلي فيها الصدور بالغضب، ولا يقف الناس فيها عند حدود: مقيدة في الإسلام بالفضائل والأخلاق، برعاية العهود، «لا تغدروا»، بتحريم التمثيل بالجثث، «ولا تمثلوا»، بتحريم الخيانة، «ولا تغلُّوا»^(٣) أي لا تخونوا في الغنيمة، هكذا كان مُحَمَّد ﷺ.

الوفاء بالعهد وحفظ الأمانة:

ولذلك في إحدى المعارك جاء حذيفة بن اليمان، وقد كان عاهد المشركين ألا ينضم إلى مُحَمَّد، ولكنه رأى الرسول في حاجة إليه؛ فجاء ليضم نفسه إلى الجيش المسلم، وأخبره أنه كان قد أعطى القوم عهداً؛ فرفض أن يقبله، وقال هذه الكلمة: «نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم»^(٤). لم يقبل الخيانة حتى في الحرب.

ويقول: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»^(٥). كما قال تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

(١) رواه أحمد (١٥٩٩٢)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٩)، عن رباح بن ربيع.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠١٤)، ومسلم (١٧٤٤)، كلاهما في الجهاد والسير، عن ابن عمر.

(٣) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، عن بريدة بن الحصيب.

(٤) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٧)، وأحمد (٢٣٣٥٤)، عن حذيفة بن اليمان.

(٥) رواه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، وقال: حسن غريب. كلاهما في البيوع، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٤٢٣)، عن أبي هريرة.

كان المشركون يستأمنون الرسول ﷺ على أغلى ما عندهم وهو في مكة، فلما أذن الله له بالهجرة ماذا فعل النبي ﷺ في أمانات هؤلاء القوم، الذين آذوه أشد الإيذاء، واضطروه إلى الخروج من أحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إليه، وهم الذين صدّوا عن سبيل الله وفعلوا ما فعلوا؟ كان يمكنه أن يقول: آخذ هذه الأمانات مقابل الإيذاء، وما فعل المشركون بالمسلمين. ولكنّه رفض ذلك، وخلف عليّ بن أبي طالب بعده حينما نام في فراشه، وكلفه أن يرد الأمانات والودائع إلى أهلها، هكذا كان مُحَمَّد الأمين مع أعدائه، سمّوه الأمين منذ بدء حياته وفي فجر شبابه، فالثبات في أخلاق مُحَمَّد ﷺ ظل كما هو، ثابت على العهد به، لا يتلون ولا يتغير أبداً.

التوازن في الخلق النبوي:

ثمّ من عظمة هذا الخلق المحمدي أنّه خلق متوازن، يُعطي كلّ ذي حقّ حقّه، يعطي ربّه حقّه، ويعطي النفس حقّها، لا يُطغي حقّاً على حقّ، كما قال لأحد أصحابه وقد غلا في قيام الليل وصيام النهار: «إنّ لبدنك عليك حقّاً - أي في الراحة - ولعينك عليك حقّاً - أي في النوم - ولأهلك عليك حقّاً - أي في المؤانسة - ولزورك عليك حقّاً - أي في المشاركة - ولربّك عليك حقّاً - أي بالعبادة - فأعطِ كلّ ذي حقّ حقّه»^(١).

ولذلك كان ﷺ أعبد النّاس لله، ومع هذا يؤدّي لأزواجه حقوقهنّ، ويؤدّي لأصحابه حقوقهم، ويؤدّي لكلّ إنسان حقّه، ويوازن بين الظاهر والباطن، بين الجسم والروح، يقول: «إنّ الله لا ينظر إلى صُوركم ولا أجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢).

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٦٨)، عن أبي جحيفة السوائي.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) (٣٣)، عن أبي هريرة.

ولكن هذا لا يعني إهمال حقّ الجسد، فحينما قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال له بعض أصحابه: يا رسول الله، إنني رجل أولعتُ بالجمال في كل شيء، وأحبتُ أن يكون نعلي حسناً، وثوبي حسناً؛ فهل هذا من الكبر؟ قال: «لا، إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، ولكنَّ الكبر بطرُ الحقِّ وغمطُ الناس»^(١). أن تردَّ الحق استخفافاً به، وتحتقر النَّاس، «بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم»^(٢).

كان يوازن بين حقّ الجسم وحقّ الرُّوح، وحقّ الدُّنيا وحقّ الآخرة، وحقّ الظاهر وحقّ الباطن، حقّ العقل وحقّ العاطفة، وهكذا، وهذا هو تتميم مكارم الأخلاق، الذي أعلن عنه ﷺ ولخص رسالته فيه حينما قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٣).

تتمُّ مكارم الأخلاق بأن يعطي للدُّنيا حقَّها، وللآخرة حقَّها، وللدين حقَّه، ولكلِّ شيءٍ حقَّه، كما دعا ﷺ ربه فقال: «اللهمَّ أصْلِحْ لي ديني الَّذي هو عصمة أمري، وأصْلِحْ لي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأصْلِحْ لي آخِرَتِي الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي، واجْعَلْ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، واجْعَلْ الموتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»^(٤).

هذه هي مكارم الأخلاق كما جاء بها محمد ﷺ، فهي تشمل الدُّنيا والآخرة، وتشمل المسلمين وغير المسلمين، وتشمل الإنسان والحيوان،

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٦٤٤)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) (٣٢)، عن أبي هريرة.

(٣) سبق تخريجه ص ٤٥.

(٤) رواه مسلم في الذكر (٢٧٢٠)، عن أبي هريرة.



وسنفصل ذلك إن شاء الله في خطب قادمة؛ لنبين عظمة مُحَمَّد ﷺ الذي اختاره الله من بين خلقه؛ ليحمل رسالته ورحمته للعالمين، إلى أن تقوم الساعة، ويرث الله الأرض ومن عليها.

أقول قولي هذا أيُّها الإخوة والأخوات، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنَّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *





الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

فوز حركة حماس وواجبنا نحوها:

لي كلمتان في هذه الخطبة، الكلمة الأولى كنت أريد أن أقولها في الجمعة الماضية، ولكن الدفاع عن رسول الله والغضب لرسول الله لم يدع لها مكاناً، والآن أقول كلمة مختصرة عنها.

هذه الكلمة تتعلّق بفوز حركة المقاومة الإسلامية حماس، بفوزها الساحق في الانتخابات الفلسطينية، التي جرت في غاية من النزاهة والشفافية، أجرتها السلطة نفسها، ولم يدّع أحد أن فيها تزيفاً أو تزويراً، ولكن الشعب الفلسطيني بإرادته الحرة، باختياره الطوعي هو الذي اختار هذه الفئة لتقوده، وتقود مسيرته في المرحلة القادمة، اختار جماعة حماس لتقود المسيرة، فهذا تفويض من الشعب الفلسطيني، ولا يجوز لأحد أن يطعن في إرادة الشعب الفلسطيني.

بعض الناس يدعو إلى الديمقراطية، وإلى أن تُعطى الشعوب حقها في الاختيار، وأن تكون صناديق الانتخاب هي الحاكمة، فإذا اختار الشعب مَنْ يُمثّله رفض النتائج! هذا كذب من هؤلاء الذين يدعون إلى الديمقراطية، أي ديمقراطية يريدون؟ إنَّهم لا يريدون الديمقراطية، إنَّهم يريدون إملاء إرادتهم من فوق على الشعوب!

لقد اختار الشعب الفلسطيني بإرادته الحرة، وهذا يدل على وعي أمتنا بحمد الله، أصبحت أمتنا تملك وعياً حقيقياً، بعد أن انتشر التعليم

إلى حد معقول، وأصبحت الفضائيات تساهم في توعية الناس، لم يعد الناس معزولين عن الأحداث؛ بل أصبحت الأحداث مكشوفة إلى حد كبير، وهذا الأمر جعل الشعوب تختار عن حرية وعن بصيرة مَنْ يُمثلها، ومن هنا اختار الشعب الفلسطيني حماس.

بعض الناس قالوا ومنهم أمريكي: إن هذا كان عقاباً لفتح. لا، لم يكن عقاباً لفتح، إنه اختيار مبني على برنامج قُدّم للناس، رأى الناس البرنامج، وعرفوا ماذا يُقدم لهم؟ ورأوا أنّ الذين يمثلون هذا البرنامج قادرون على تنفيذ برنامجهم، استطاع الشعب أن يُميّز بين الخبيث والطيب، أن يعرف الحرامي من النظيف، أن يعرف المستقيم من المنحرف، أصبح عند الشعب وعي، فلا يجوز أن نتهم هذا الشعب بأنه لا يعرف الصحيح من الزائف، والمحق من المبطل، لا، لقد اختار الشعب الفلسطيني عن بصيرة، واختار عن وعي مَنْ يُمثله.

ونحمد الله ﷻ أنّ الشعب الفلسطيني اختار هذه الفئة المؤمنة، الواعية المجاهدة، التي قدّمت الدماء والأرواح في سبيل دينها ووطنها، لم تبخل بدم، ولم تظن بمال، اختار الشعب الذين اختاروا خيار المقاومة، ولم يستسلموا كما استسلم الآخرون، لم يسيروا في الزفة، رفضوا الاستسلام، ورفضوا التطبيع، ورفضوا الهرولة مع المهرولين، اختارهم الشعب وهو يعلم مَنْ هم؟ فلا بدّ أن يستجيب الجميع.

وقد جُنّ جنون إسرائيل ومن يحمي إسرائيل من الأمريكان وغيرهم، من نتائج هذه الانتخابات، وقالوا: لماذا يختار الفلسطينيون حماس؟! وهذا عجيب؛ لماذا لا تحترمون خيار الشعوب؟ وقرّروا أن يحجزوا المعونات والمستحقات التي كانت تُصرف من قبل إلى هذا الشعب، كأنّ

هؤلاء هم الذين يملكون أرزاق البشر، كأنما هم آلهة في هذه الدنيا، والله لا تملكون أن تأكلوا من رزق أحد لقمة، ستأتي للناس أرزاقهم، إذا كنتم أصررتم على أن تحرّموا هذا الشعب من حقه، ولن تستطيعوا أن تصمدوا طويلاً أمام هذا، ستضغط عليكم الشعوب، وسيضغط عليكم العالم.

وهنا أيضاً موقف الأمة العربيّة والإسلاميّة، الحكومات والدول العربيّة والإسلاميّة، لا يجوز لهذه الدول أن تسلم حماس، وأن تدعها وحدها، لا، لا يجوز هذا، لا بدّ أن نشدّ أزهرهم، لا بدّ أن نحمي ظهرهم، لا بدّ أن نقف بجوارهم، لا بدّ أن نكون لهم إخوة متعاونين، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، علينا أن نتعاون في العسر واليسر، والمنشط والمكره.

وجزى الله أهل قطر خيراً، قيادة وحكومة وشعباً، حيث أعلنت تأييدها لحماس من الناحية المادية، ومن الناحية الأدبيّة، تدفع لها وتحت بلاد الخليج وغيرهم من بلاد العرب على الدفع لها، وهكذا يجب أن يكون الموقف من بلاد الخليج، ومن بلاد العرب، ومن بلاد الإسلام عامّة، فالأمة الإسلاميّة أمة واحدة، مهما اختلفت أوطانها، ومهما اختلفت أجناسها، ومهما اختلفت ألوانها هي أمة واحدة، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، «يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(١)، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، المسجد الأقصى ليس مسجد الفلسطينيين وحدهم، وأرض النبوات والإسراء والمعراج ليست أرض الفلسطينيين وحدهم، إنّها أرض الأمة، وإنّهُ مسجد الأمة الإسلاميّة جميعاً، فعلى الأمة أن تقف بجوار حماس.

(١) رواه أحمد (٦٧٩٧)، وقال مخرّجوه: صحيح. وأبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧٣)، عن عبد الله بن عمرو.

وعلى الشعوب الإسلامية أيضاً أن تقوم بواجبها في تأييد حماس، وتأييد المؤسسات الخيرية والإنسانية في فلسطين مثل (ائتلاف الخير)، وغيرها، يجب أن نقف جميعاً مع هذه الفئة المؤمنة الصادقة، المجاهدة في سبيل الله، ولا نزكي على الله أحداً.

وقد عرض الإخوة في حماس ألا يستأثروا بالحكم وحدهم، قالوا لإخوانهم في الفصائل المختلفة: تعالوا إلى كلمة سواء، ضعوا أيديكم في أيدينا؛ لنقيم حكومة وحدة وطنية لنشرككم معنا، لا نريد أن نكون حزباً واحداً، كما كانت فتح من قبل، وكما رأينا الأحزاب الواحدة في البلاد العربيّة تستأثر بالحكم، وتضطهد المعارضة، وتأخذ كل شيء لنفسها، وتحتكر كل الخيرات، لا نريد حماس هذا، وإنما نريد أن تشرك الجميع.

نحن ندعو فتح، وندعو الفصائل الإسلامية المختلفة أن تتعاون مع حماس، وأن يقف الجميع في هذه المرحلة كتلة واحدة؛ كالبنیان المرصوص، إن في ساعة المعارك وفي ساعة الأزمات لا يجوز أن يختلف الناس، من أجل أهواء شخصية، ومصالح حزبية، يجب أن تقدم المصالح الكبرى على المصالح الصغرى، والمصالح الكلية على المصالح الجزئية، والمصالح الوطنية على المصالح الفئوية، يجب أن يقف الجميع لمصلحة الوطن، ولمصلحة الأمة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنِينَ مَرْصُوصٍ﴾ [الصف: ٤].

نحن مع حماس نشدُّ أزرها، وندعو الله لها أن يؤيدها بزُوح من لدنه، وأن يُسدّد خطاها، وأن يُنير بصيرتها، وأن يجمع كلمتها على الهدى، وقلوبها على التقى، وأن يُقوّي إخواننا الفلسطينيين ليكونوا معها صفّاً

واحدًا، وإن شاء الله مع الأخ أبي الوليد خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس ستسمعون منه كلمة بعد الصلاة إن شاء الله.

موقع متخصص للدفاع عن النبي ﷺ :

أمّا كلمتي الثانية فهي عن رسول الله ﷺ، لقد طالبنا بقرارٍ دولي يدين الإساءات إلى الرسل والمقدسات جميعًا، وطالبنا بمقاطعة المنتجات الدانماركيّة والنرويجيّة، وكل من آذى رسول الله وأصرّ على ذلك.

ولكنّا اليوم - كما قلت لكم في أوّل الخطبة - نريد عملاً إيجابيًا، ولذلك قررنا، وأعلنت ذلك في برنامج (الشريعة والحياة) يوم الأحد الماضي أن ننشئ موقعًا للدفاع عن رسول الله، لتعريف العالم عامّة والغربيين خاصّة برسول الله ﷺ، نقوم ببعض فرض الكفاية علينا لنُعَلِّم الأمم: مَنْ هو مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي غضبت مئات الملايين من أجله؟ فهذه الملايين لم تغضب من هوس، ولا من مُجَرَّد عاطفة، لماذا أَحَبَّت هذه الملايين مُحَمَّدًا ﷺ؟ نريد لهؤلاء أن يعرفوا هذا.

ولا بدّ أن نقدم إليهم ذلك في صورة علمية، نقدم إليهم مُحَمَّدًا ﷺ، نقدم إليهم سيرته وحياته، نقدم إليهم شخصيته وأخلاقه، وجوانب العظمة في شخصيته وشمائله، نقدم لهم آياته ومعجزاته، الدالة على صدق نبوّته، نقدم لهم رسالته التي جاءت رحمة للعالمين، وما فيها من معاني، وما فيها من جوانب في العقيدة والعبادة، والأخلاق والقيم، والتشريعات والآداب، نقدم عظمة الرسالة الإسلاميّة، نقدم أثر مُحَمَّدٍ ﷺ في العالم، في الأمة، في التاريخ البشري، ماذا قدم أتباعه؟ وكيف أنشؤوا حضارة ربّانيّة إنسانيّة، أخلاقيّة عالميّة، جمعت بين العلم والإيمان، بين الإبداع المادي والسمو الروحي والأخلاقي، يجب أن نقدم مُحَمَّدًا ﷺ إلى هؤلاء.

ولهذا قرّر موقع (إسلام أون لاين) أن يتبنّى هذا الأمر، ويعلن عنه، ويقدمه للناس، وسنسمع بعد الصلاة كلمة من الأخ الدكتور القره داغي يُحدّثكم باختصار عن هذا الموقع الجديد.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يُهيّئ لنا من أمرنا رشداً، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، اللهم اجمع كلمة أمتنا على الهدى، وقلوبها على التقى، وأنفسها على المحبة، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل، اللهم إنّنا نسألك أن تعلي كلمة الإسلام، وأن ترفع راية القرآن، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، فضلاً منك ونعمة.

* * *

الرسول العابد ﷺ (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

لا زلنا مع الحبيب المصطفى ﷺ لتعرف على سيرته، ونتعرف على شخصيته، وعلى جوانب عظمة هذه الشخصية، وعلى الرسالة التي أرسله الله بها رحمة للعالمين، وحجة على الناس أجمعين.

ذكرنا في بعض ما مضى من الخطب علاقته ﷺ بالناس التي يُجسدها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وذكرنا علاقته بالدنيا التي تفر الناس بشهواتها وزخارفها وأعراضها، فكانت علاقته بها الزهد في متاعها، متاع الغرور، المتاع الأدنى، والتعلق بما عند الله، ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

تحدثنا عن زهده ﷺ في الدنيا التي لم يأخذ منها شيئاً، لا لنفسه، ولا لأهله، ولا لأقاربه، كان يوصي أصحابه وأحبابه أن يكون نصيبهم من الدنيا كزاد الراكب المسافر، يأخذ منها ما يحتاج إليه في سفره، ولذلك مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في عدة أوساق من شعر في

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ١٠ مارس ٢٠٠٦ م.

نفقة أهله وعياله، رهن درعه عند يهودي لأنه احتاج إلى بعض الشعر لطعام أهله وعياله، ما ترك ﷺ وراءه من الدنيا صفراء ولا بيضاء، ولا شيئاً مما يتعلّق به الناس.

النبي ﷺ أعبد الناس:

واليوم - أيها الإخوة - نتحدّث عن علاقته ﷺ برّبّه، كيف كانت هذه العلاقة بالله ﷻ؟ إننا نتحدّث هنا عن مُحَمَّد العابد لربه، الذي تفنّن في عبادته لله ﷻ، وتقرّب إليه بما لم يتقرّب إليه أحد من خلقه، لا في الأوّلين ولا في الآخرين.

لماذا كان مُحَمَّد ﷺ أعبد النَّاس لله؟ لأنه يعلم أنّ العبادة هي الغاية من خلق المُكَلَّفِين، إنّ الله لم يخلق النَّاس لحاجته إليهم، ولم يخلق النَّاس لمجرد أن يأكلوا ويشربوا ويلهوا ويلعبوا، ولكن خلقهم لغاية ومهمة ورسالة، أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، أن يعرفوا الله حقّ معرفته، وأن يعبدوه حقّ عبادته، لا بدّ أن يعرفوه ثمّ يعبدوه.

يقول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. خلق الله السماوات والأرض لهدف، لغاية، أن يعرف النَّاس ربهم بأسمائه الحسنی، وصفاته العليا، خصوصاً هاتين الصفتين العظيمتين: العلم، والقدرة: ﴿لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

فإذا عرف النَّاس ربهم عبدوه، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ * [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. خلق الله النَّاس ليعبدوه، عرف مُحَمَّد

ذلك فكان أعبد النَّاس لربه الَّذي خلقه فسوّاه، ووفّقه وهداه، وبعثه إلى النَّاس أجمعين؛ رحمة للعالمين.

العبادة زاد الطريق إلى الله:

ومن ناحية أخرى فإنَّ العبادة هي زاد الطريق إلى الله، هي العدة في معركة الدعوة إلى الله، هي التي تشدُّ أزر الداعي إلى الله، وتقوي ظهره في مواجهة الكافرين المعاندين المعادين.

عَلِمَ اللهُ ﷻ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ جَاءَ بِدَعْوَةٍ لَا يَقْبَلُهَا الْكَثِيرُونَ، هِيَ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَدَعْوَةُ الْخَيْرِ، وَدَعْوَةُ الْهُدَى، وَدَعْوَةُ الصَّلَاحِ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ يَعَارِضُهُ أَهْلُ الْبَاطِلِ، وَالْخَيْرُ يَعَادِيهِ أَهْلُ الشَّرِّ، وَالْهُدَى يَقَاوِمُهُ أَهْلُ الضَّلَالِ، وَالصَّلَاحُ يَقِفُ فِي سَبِيلِهِ أَهْلُ الْفُسَادِ، فَكُلُّ هَؤُلَاءِ سَيَجْتَمِعُونَ لِيَعَارِضُوا مُحَمَّدًا ﷺ، وَهُوَ لَا يَرِيدُ لَهُمْ إِلَّا الْخَيْرَ، يَرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى اللهِ ﷻ، يَرِيدُ أَنْ يَنْقُلَهُمْ مِنَ الْوَثْنِيَّةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، يَرِيدُ أَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَلَكِنْ سَيَقِفُ النَّاسُ فِي وَجْهِهِ، سَيَرْمُونَهُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَتَزَوَّدَ لِهَذِهِ الْمَعْرَكَةِ، وَأَنْ يَتَسَلَّحَ لَهَا بِسِلَاحِهَا، وَسِلَاحُهَا هُوَ الْعِبَادَةُ لِلَّهِ، هُوَ تَقْوِيَةُ الْجَانِبِ الرُّوحِيِّ.

وهذا ما أوصى الله به رسوله منذ أوائل الدعوة، منذ فجر الدعوة إلى الله، منذ عاد مُحَمَّدٌ ﷺ بعد أن لقيه جبريل، وعَلَّمَهُ الْآيَاتِ الْأَوَّلَى مِنْ سُورَةِ الْعَلَقِ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. وعاد إلى زوجته خديجة يقول لها: «زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي». يطلب أن تغطيه من شِدَّةِ مَا رَأَى مِنَ الْبَرْدِ، وَمَا قَاسَى مِنْ غَطَّةِ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ اللهُ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ﴾ [المزمل: ١]. أَيُّهَا الْمَتَغَطِّي بِثَوْبِهِ وَبَرْدَتِهِ، لَيْسَ هَذَا أَوَانُ التَّغَطِّي وَلَا أَوَانُ النَّوْمِ، انْهَضْ مِنْ فِرَاشِكَ، انْهَضْ مِنْ نَوْمِكَ، انْهَضْ مِنْ رَاحَتِكَ، وَاسْتَعِدْ لِلْمَعْرَكَةِ الْقَادِمَةِ،

﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٢ - ٤]،
 تعلّم في مدرسة الليل ومدرسة القرآن، خذ زادك منهما، لماذا؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي
 عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، سنلقي عليك حملاً لا يقدر عليه إلا أولو العزم،
 سنحملك رسالة كبرى للعالمين جميعاً تهدي من ضل، وتصلح من فسد.

كان لا بدّ أن يتزوّد إذاً من عبادة الله ليواجه المعركة التي سيقف
 ضده فيها المشركون في مكّة، وإذا رحل إلى المدينة وهاجر إليها
 سيحاربونه في عقر داره، سيواجه المشركين الوثنيين، سيواجه اليهود
 الغادرين، سيواجه الرومان النصارى البيزنطيين المتربصين، سيواجه
 المجوس المنتظرين أيضاً، سيواجه المنافقين الذين يعيشون بين
 المسلمين كأنّهم منهم، وما هم منهم، كان لا بدّ أن يتزوّد لهذه المعركة
 بعبادة الله **وَعَلَّك**.

أخذ النبي من كل أنواع العبادة بنصيب:

وقد أخذ **ﷺ** الأُبهة لذلك؛ فتزوّد من عبادة الله بكل أنواع العبادة، لم
 تكن عبادته من نوع واحد.

بعض النَّاس يُفتح له في الصلاة فيصلي، ويهمل العبادات الأخرى،
 وبعض النَّاس يُفتح له في الصوم، فيصوم الاثنين والخميس باستمرار،
 أو يصوم يوماً ويفطر يوماً؛ كأحب الصيام إلى الله: صيام داود، وبعض
 النَّاس يُفتح له في الصدقة، وبعض النَّاس يُفتح له في تلاوة القرآن،
 وبعض النَّاس يُفتح له في التسبيح والتهليل والتكبير، وبعض النَّاس
 يُفتح له في الدعاء والاستغفار، وبعض النَّاس يُفتح له في الإحسان إلى
 الخلق، كل واحد يُفتح له في ناحية.

ولكن محمدًا ﷺ اشتملت عبادته على هذه النواحي كلها وأكثر منها، عبد الله بكل ما يتعبد به العابدون، وما يتقرب به المتقربون، عبد الله بأداء الفرائض، أركان الإسلام التي بُني عليها هذا الدين: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، أتقن هذه الفرائض، وأداها كما يحب ربه ﷻ، أعطاهما حقها، لم يهمل في وقتها، لم يهمل في ركن من أركانها، لم يهمل في شرط من شروطها.

صلاة النبي ﷺ :

إذا نظرنا إلى الصلاة نجده أداها في أوقاتها، وما كان يحب أن يتأخر عنها، ويصليها في الجماعة، وظلَّ يؤديها إلى مرض موته، كان يصلي وهو مريض مرض الموت، ويحاول أن يصلي في الجماعة، وحينما عجز أن يُصلي بالناس استخلف أبا بكر أن يُصلي بالناس، وصلى وراءه^(١)، هكذا كان ﷺ.

وكان يدخل الصلاة وهو محبب لها، مقبل عليها، يُكبر تكبيرة الإحرام، ثم يذكر الله ﷻ، يدعو بدعاء الاستفتاح، وقد روي عنه أكثر من دعاء من أدعية الاستفتاح، مثل الدعاء الذي كان يُعلمه عُمر للناس من بعده: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»^(٢).

ودعاء آخر رواه عنه أبو هريرة أنه كان يقول: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد، اللهم نقني من الخطايا كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٨٧)، ومسلم في الصلاة (٤١٨)، عن عائشة.

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٣٩٩)، عن عمر بن الخطاب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٤٤)، ومسلم في المساجد (٥٩٨).

ودعاء آخر رواه عنه عليٌّ رضي الله عنه أنه كان يقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي
فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إِنَّ صَلَاتِي وَنَسْكَي
وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُسْلِمِينَ»^(١). أدعية شَتَّى تشعر منها أنه يناجي ربَّه مناجاة المحبِّ
لحبيبه، مناجاة القريب من قريبه.

ثم يقرأ الفاتحة يمدُّ بها صوته مدًّا، يقف على رؤوس الآيات، ثمَّ
يقرأ ما تيسر من القرآن، أحياناً كان يطيل، قرأ في صلاة المغرب
سورة الأعراف وسورة الطور، وهي صلاة وقتها قصير، وكان أكثر
ما يطيل إذا صَلَّى وحده في الليل، ولكنه كان إذا صلى بالناس راعى
ظروف مَنْ وراءه، وكان ينهى أصحابه أن يطيلوا بالناس ويقول: «إِذَا
أَمَّ أَحَدُكُمْ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ وراءكم الكبيرَ والضعيفَ والمريضَ
وذا الحاجة»^(٢).

كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على الصلاة، إذا ركع قال: «سبحان ربِّي العظيم»^(٣)،
قد يقول عشر مرَّات^(٤)، وقد يقول أكثر من ذلك، وربَّما أضاف إلى
التسبيح فيقول: «سُبُّوح، قُدُّوس، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»^(٥)، «اللهمَّ لك
ركعتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، خَشَعْتُ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي
وَعَظْمِي وَعَصْبِي»^(٦). وهكذا.

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأحمد (٨٠٣).

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٠٣)، ومسلم في الصلاة (٤٦٧)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٢)، عن حذيفة.

(٤) رواه أحمد (١٢٦٦١)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الصلاة (٨٨٨)، عن أنس.

(٥) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٧)، وأحمد (٢٤٠٦٣)، عن عائشة.

(٦) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأحمد (٨٠٣)، عن علي بن أبي طالب.

ويقوم من الركوع فيذكر الله وَعَجَّلَ ويحمده: «سمع الله لمن حمده»^(١)،
«اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من
شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد - وكُلُّنا لك عبدٌ - :
لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك
الجد»^(٢). يُطيل في هذا الركن الذي كثيراً ما يُخففه الناس.

فإذا سجد أطل السجود أيضاً، «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو
ساجد»^(٣)، يقول: «سبحان ربي الأعلى»^(٤). وله في سجوده دعوات كثيرة،
منها: «سجد وجهي للذي خلقه وشقَّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسن
الخالقين»^(٥)، «اللهم لك سجدتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، وعليك
توكلتُ، فاغفر لي ما قدّمتُ وما أخرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ»^(٦).

كلُّ ركن من أركان الصلاة نجد فيه مناجاة مُحمَّد لربه وَعَجَّلَ، إنَّه
لا يؤديه أداءً آلياً مجرد رسوم وطقوس، لا، لم تكن هذه صلاته، ولم
تكن هذه عبادته، كانت صلاته مناجاة لله وَعَجَّلَ، تقرباً من الله وَعَجَّلَ، يشعر
أنَّ الله تجاهه، أنَّ الله بين يديه.

هكذا كان ﷺ، يؤدي الصلاة في وقتها، يؤديها بخشوعها، يُتمُّ
ركوعها وسجودها وخشوعها، ليس كما يفعل الكثيرون في هذه الصلاة

(١) رواه البخاري في الأذان (٧٣٥)، عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٧)، وأحمد (١١٨٢٨)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأحمد (٩٤٦١)، عن أبي هريرة.

(٤) جزء من حديث حذيفة السابق.

(٥) جزء من حديث علي بن أبي طالب السابق.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٢٠)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٦٩)،

عن ابن عباس.

الَّتِي لَا يَقُومُ فِيهَا صَلْبٌ، وَلَا يَسْتَقِرُّ فِيهَا جَسْمٌ، وَلَا يَخْشَعُ فِيهَا قَلْبٌ، وَلَا يَر_اقِبُ فِيهَا رَبٌّ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خ_اشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٢].

ولم يكتفِ ﷺ بصلاة الفرائض: الصلوات الخمس؛ بل كان يصلي السنن الرواتب، يصلي ركعتين قبل الصبح، وركعتين قبل الظهر، وركعتين بعد الظهر، وركعتين قبل العصر، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، ثم يقوم الليل.

المحافظة على صلاة الليل:

لم يكن يدع صلاة الليل سفرًا ولا حضرًا، هذه الصلاة - قيام الليل - الَّتِي كان يستغرق فيها بالمناجاة مع ربه، وقد حكى عنه أصحابه في صلاة الليل، حكى عنه ابن عباس حينما ذهب ليشاهد صلاة رسول الله ﷺ عند خالته ميمونة بنت الحارث: زوج النبي ﷺ، واستيقظ ليرى رسول الله ﷺ، وصلى خلفه حينما قام للصلاة، قال: قام فذكر الله وتوضأ ولم يكثر من صب الماء - لأنه ﷺ كان يقتصد في استخدام الماء - ثم قام فصلّى، فوقف ابن عباس عن يساره، فأخذه النبي ﷺ وأوقفه عن يمينه بحذائه - أي محاذاته - فصلّى إحدى عشرة ركعة، واحدة منها الوتر.

قال ابن عباس: وحينما دعا ربه قام وقال: «اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي لساني نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يساري نورًا، ومن فوقني نورًا ومن تحتي نورًا، ومن بين يدي نورًا، ومن خلفي نورًا، واجعل لي نورًا، واجعلني نورًا»^(١). دعاء النور لنبي النور ﷺ، هو

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٦)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣)، عن

ابن عباس.

نبيُّ النُّور والتنوير، يريد أن يُنَوِّر العقول، ويُنَوِّر القلوب، ويُنَوِّر الحياة، وأوَّل ما يُنَوِّر الحياة الإيمان وعبادة الله وَجَلَّ.

وروت عائشة عن قيامه الليل الكثير، سُئِلَتْ: ما أوَّل ما كان يستفتح رسول الله ﷺ قيام ليله؟ قالت: كان يستفتح بهذا الدعاء: «اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون؛ اهدنا لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنك؛ إِنَّكَ تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم»^(١). أدعية كثيرة ذكرها الصحابة عن رسول الله ﷺ في قيامه لليل.

كان يستمتع بقيام الليل، وظلَّ كذلك طوال حياته، وإذا فاته قيام الليل لسبب أو آخر، لمرض أو وجع أو تعب أو شيء من ذلك: عَوَّض ذلك؛ فصلى إحدى عشرة ركعة بالنهار عوضًا عمَّا فاته من قيام الليل.

هكذا كان ﷺ يحرص على أداء الفرائض، ثمَّ يحرص على النافلة، وأهمها قيام الليل، وقد روى عن ربِّه أنَّ أداء الفرائض يؤدي بالعبد إلى منزلة القرب من الله، وأداء النوافل يُؤدِّي بالعبد إلى منزلة الحبِّ لله، كما جاء في الحديث القدسي: «وما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بشيءٍ أَحَبَّ إليَّ ممَّا افترضته عليه، وما يزال عَبْدِي يتقَرَّبُ إليَّ بالنوافل حتَّى أَحَبَّهُ، فإذا أَحَبَّهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يسمع به، وبصره الَّذِي يبصر به، ويده الَّتِي يبطش بها، ورجله الَّتِي يمشي بها»^(٢). كان ﷺ مثلاً لما علمنا إياه، هكذا كانت صلاته ﷺ.

(١) رواه مسلم في الصلاة (٧٧٠)، عن عائشة.

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

صيام النبي ﷺ :

وكذلك كان صيامه ﷺ، كان يصوم رمضان، فيحسن الصيام، ويقومه فيحسن القيام، ويقول: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

وكان في صيامه إذا أفطر يُفطر على رطبات، فإن لم يجد فعلى تمرات، فإذا لم يجد هذا ولا ذاك أفطر على جرعات ماء، ثم يقوم الليل، وخصوصًا في العشر الأواخر من رمضان كان يُحييها كلها، كان في غير هذه العشر يقوم بعض الليل وينام بعض الليل، أمّا هذه العشر؛ فكان يحييها كلها كما قالت عائشة: كان إذا دخل العشر شدّ منزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله^(٢). يوقظ زوجته ليشاركنه الخير، وكان كثيرًا إذا قام من الليل يقول: «أَيَقْظُوا صَوَاحِبَ الْحُبَرِ - حَجَرَاتِ أَزْوَاجِهِ - يَا رَبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

هكذا كان ﷺ يصوم فيحسن الصيام، ويقوم فيحسن القيام، ويتخذ من رمضان متجرًا يتجر فيه بالطاعات، ويتقرب فيه بأفضل القربات إلى الله ﷻ.

إنفاق النبي ﷺ :

وكان ﷺ يتقرب إلى الله بالزكاة والصدقة، ما أحسب أنه كان عنده مال يدفع منه الزكاة، لم يكن عنده إبل ولا غنم يُخرج زكاتها عند كل

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٠١)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤)، كلاهما في الاعتكاف، عن عائشة.

(٣) رواه البخاري في التهجد (١١٢٦)، عن أم سلمة.

حول، ولم يكن عنده زرع ولا ثمر يُخرج زكاته عند كل حصاد، ولكن كانت تأتيه الغنائم، ويأتيه الفبيء؛ فلا يُبقي منه شيئاً يحول عليه الحول، كان ما يجيئه يُنفقه في سبيل الله، ولو كان له مثل جبل أُحُدٍ ذهباً لأنفقه هكذا وهكذا في كل ناحية، لا يُبقي منه شيئاً؛ إلا شيئاً قليلاً يرصده لِدَيْنٍ، كما قال ﷺ^(١).

ولكنه كان يتصدق صدقة مَنْ لا يخشى الفاقة، صدقة مَنْ يعلم أنّ الله يُخلف عليه، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، يتصدق بكل ما يستطيع، قليلاً كان أو كثيراً، ولو كان شق تمره، هكذا كان ﷺ، وهكذا علّم الأمة ألا يستصغروا شيئاً، ويقول: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(٢).

كان يُحسن إلى النَّاسِ كلِّ النَّاسِ، الأقارب والأباعد، مَنْ وافقه ومَنْ خالفه، حتّى إنّ بعض النَّاسِ جاءه وأساء إليه فأعطاه وأجزل له العطاء، فرجع الرجل يقول: جئتُه وهو أبغض النَّاسِ إليّ، وعُدت وهو أحبُّ النَّاسِ إليّ^(٣). هكذا كان ﷺ يتعبّد لله بالصدقة والإحسان إلى الخلق.

وكان يتعبّد لله ﷻ بالحج والعمرة، إنّه لم يحج في حياته إلا مرّة واحدة، هي حجّة الوداع التي ودّع فيها النَّاسِ، «ألا هل بلغْتُ؟ اللهم فاشهد»^(٤)، واعتمر أربع مرّات، هكذا حافظ على الفرائض الركنية التي هي مباني الإسلام وأركانه العظام.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٤)، ومسلم في الزكاة (٩٤)، عن أبي ذر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٢)، ومسلم في الزكاة (١٠١٦)، عن عدي بن حاتم.

(٣) رواه مسلم في الفضائل (٢٣١٣)، وأحمد (١٥٣٠٤)، عن صفوان بن أمية.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الحج (١٧٤١)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)، عن أبي بكر.

ملازمة النبي ﷺ للذكر:

وكان يتعبد إلى الله ﷻ بالذكر، بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، بهذه الباقيات الصالحات، لا يفتر لسانه عن ذكر الله ﷻ. وسأله بعض أصحابه: يا رسول الله، لقد كثرت عليّ شرائع الإسلام فدلني على أمر جامع أتمسك به. قال له: «لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله»^(١). هكذا كانت وصيته، وهو لا يوصي بشيء إلا كان أسبق الناس إليه، وأول الناس عملًا به؛ ليتعلم الناس منه بالأسوة قبل أن يتعلموا منه بالكلمة.

هكذا كان ﷺ يسبح الله كثيرًا، ويحمد الله كثيرًا، ويكبر الله كثيرًا، يذكر الله ذكرًا كثيرًا، ويسبحه بكرة وأصيلًا، وآناء الليل وأطراف النهار، يسبحه ويذكره في أوقات الشدة، يعتصم بذكر الله في الشدة، في المحنة، كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩]. كانوا يؤذونه بسيئ القول، يقولون: مجنون، وشاعر، وساحر، وكاهن، إلى آخر ما يقولون، فكان هذا يؤذي النبي ﷺ ويحزنه، فيقول له: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧].

عبادة الله في السراء والضراء:

ولكنه هنا أوصاه أن يلجأ إلى عبادة الله، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، من هذه الأقوال البذيئة السيئة، التي لا تمت إلى الحقيقة بأدنى صلة، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾،

(١) رواه أحمد (١٧٦٨٠)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الدعوات (٣٣٧٥)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣)، والحاكم في الدعاء (٤٩٥/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن بسر.

اليقين هو الموت، ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ * حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ ﴿[المدر: ٤٦، ٤٧]، أي: أتانا الموت، أي استمر في عبادتك، فكان من خصائص عبادته ﷺ أَنَّهُ مستمر فيها، لا يصلي يوماً وينقطع يوماً، لا يذكر الله في حين ويغفل عنه في حين، لا، كان دائم العبادة، في السرَّاء والضَّرَّاء، في النِّعماء والبأساء، في العافية والبلاء، في اليسر والعسر، في السفر والحضر، في الصِّحَّة والمرض، في كل هذا كانت عبادته دائمة، عبد ربَّه حَتَّى أَتَاهُ اليقين.

هكذا كان ﷺ يلجأ إلى العبادة في ساعة الشِّدة والمحنة، وكذلك أمره الله تعالى أن يلجأ إلى العبادة في ساعات النصر والرخاء، يقول ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣]. عندما يأتي النصر، وعندما يأتي الفتح، وعندما ترتفع راية الإسلام، وعندما يدخل النَّاس فيه من كلِّ فجٍّ، ومن كلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ، هنالك سَبِّح بحمد ربِّك واستغفره.

ولذلك كان الصحابة يقولون: كنَّا نعد للنبي ﷺ في المجلس الواحد مائة مرَّة يقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ»^(١). يتأوَّل القرآن، ينفذ قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.

دعاء النبي ﷺ :

وكان ﷺ يتعبَّد لله بالدعاء، يدعو الله ﷻ، وله أدعية كثيرة، لم يُروَ عن نبيٍّ من الأنبياء مثل هذه الدعوات، ألَّف فيها الأقدمون كتبًا

(١) رواه أحمد (٤٧٢٦)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الصلاة (١٥١٦)، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وابن ماجه في الأدب (٣٨١٤)، عن ابن عمر.

عديدة؛ منذ الإمام النسائي الذي ألف كتابه (أذكار اليوم والليلة)، وتلميذه ابن السني، والإمام النووي في كتابه (الأذكار)، وابن تيمية في (الكلم الطيب)، وابن القيم في (الوابل الصيب)، وابن الجزري في (الحصن الحصين)، كتب كثيرة في أدعيته ﷺ، وفي كل كتب الحديث، في البخاري، ومسلم، والترمذي، وغيره تجد (كتاب الدعوات)، دعوات النبي ﷺ.

استغفار النبي ﷺ:

كما كان ﷺ يتعبد لله بالاستغفار، لم يؤثر عن نبي من صيغ الاستغفار ما أثر عن مُحَمَّد ﷺ، رأينا القرآن يروي عن سيدنا نوح قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]. وسيدنا إبراهيم يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١]. وسيدنا سليمان يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]. وسيدنا موسى يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

أمَّا ما أثر عن النبي ﷺ فشيء كثير كثير، منه ما سُمِّي (سيد الاستغفار)، سيد أساليب الاستغفار، وهو قوله: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(١).

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦)، وأحمد (١٧١١١)، عن شداد بن أوس.

ومنه قوله: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي»^(١)، مُحَمَّدٌ ﷺ يقول: «وكل ذلك عندي»! «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»^(٢). هكذا كان ﷺ.

كتب شيخنا الشيخ مُحَمَّدُ الغزالي كتاباً سماه (فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء)، كأن الذكر والدعاء فنٌ يتفنن فيه الرسول ﷺ، إذا قرأت هذه الروائع من الأدعية والاستغفارات تجد فيها من الكلمات البليغة والرائعة، والرقيقة والمؤثرة، التي تُهزُّ القلب هزًّا، وتزلزل كيان الإنسان زلزالاً.

عبادة الدعوة والصبر والهجرة والجهاد:

كما تعبَّد ﷺ لربه بالدعوة إلى الله، نصب نفسه داعياً إلى الله من أول يوم، يقول: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]. على ما لقيه من الأذى.

والصبر على هذا الأذى عبادة أخرى، وجهاد آخر، جهاد الدعوة، وجهاد الصبر، والاحتمال للأذى والعذاب من أعداء الله، ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، كان هذا أيضاً من عبادة الله ﷻ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٩)، عن أبي موسى.

(٢) جزء من الحديث السابق.

وعبد الله بالهجرة إلى الله، هاجر في سبيل الله وَعَجَلَ، وترك أهله وبلده وموطنه، ونظر إلى مكة وهو خارج إلى المدينة، نظر إليها وقال: «أَمَّا وَإِنَّكَ أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَإِنَّكَ لِأَحَبِّ بِلَادِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنْ قَوْمَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»^(١). فخرج مُكْرَهًا من بلده في سبيل الله، هذه كلها عبادات.

ثم عبد ربّه في المدينة بالجهاد المُسَلَّح في سبع وعشرين غزوة غزاها وشهدا بنفسه، هكذا كان ﷺ، عبد ربّه بكلّ ألوان العبادة، واستمرّ في عبادته حتّى أتاه اليقين.

تِلْذُذُهُ بِالْعِبَادَةِ:

وكان من خصائص عبادته: أنّه يتلذذ بالعبادة، لم يكن يُؤدّي العبادة كارهاً، أو يُؤدّيها متثاقلاً، أو يُؤدّيها مجرّد تسديد للأوامر، لا، بل كان يحبّ العبادة، يقول لبلال إذا حضر وقت الصلاة: «أَرْحَنَا بِهَا يَا بِلَال»^(٢). أرحنا بإقامة الصلاة، بعض النّاس كأنّما يقول: أرحنا منها. يريد أن يستريح من الصلاة، لا أن يستريح بالصلاة، لا، النبي ﷺ كان يستريح بالصلاة، وقال: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٣). كانت قرّة عينه، وسرور فؤاده، وانشرح صدره، «وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»^(٤)، إذا كانت هناك شدة يلجأ إلى الصلاة؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

(١) سبق تخريجه ص ١٨٤.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٧.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٦.

(٤) رواه أحمد (٢٣٢٩٩)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في قيام الليل (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣)، عن حذيفة بن اليمان.

كان يتلذذ بالعبادة، ففي الصوم كان يواصل الصوم، إذا جاء وقت المغرب لا يفطر، لا يأكل ليفرغ وقته لعبادة الله، لا يريد أن يشغل نفسه بطعام ولا شراب، كان يواصل الصوم أكثر من يوم، ولكنه نهى أصحابه أن يواصلوا إشفاقاً عليهم، قالوا: يا رسول الله، تنهانا عن الوصال وتواصل؟! فقال لهم: «وأيكم مثلي؟ إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقيني»^(١). ليس معنى هذا أن ربه يأتيه بالطعام، لا، وإلا لما كان صائماً، ولكن معناه أنه مشغول بذكر الله، بحب الله، بمناجاة الله، قلبه مع الله، فلا يهتم بالأكل ولا بالشرب؛ كما قال ابن القيم:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نورٌ تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حاد
إذا اشتكت من كلال السير أوعدها روح اللقاء فتحيا عند ميعاد^(٢)
هكذا كان ﷺ يتلذذ بالصيام، ويتلذذ بالصلاة، ويتلذذ بعبادة الله.

خشيتته من الله ﷻ :

ومع هذا كله كان يخشى من الله ﷻ، كان يخاف ألا يكون هذا كافياً، كانت عائشة تقول: كان يقوم من الليل حتى تتورم قدماه. فقالت له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»^(٣) أليست مغفرة الله تستحق شكره؟

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣)، كلاهما في الصيام، عن أبي هريرة.

(٢) من شعر إدريس بن أبي حفصة كما في زهر الآداب للحصري القيرواني (٥٥١/٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٧)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار.

وكان يستغفر الله في المجلس الواحد مائة مرة، ويقول: «إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١). وكان يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(٢). يشعر أنه مُقَصِّرٌ فِي حَقِّ رَبِّهِ، مُفْرَطٌ فِي جَنْبِ اللَّهِ، فَمَاذَا يَفْعَلُ الْمُقَصِّرُونَ وَالْمُفْرَطُونَ الَّذِينَ أَضَاعُوا الصَّلَوَاتِ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، وَمَاذَا يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورُونَ بِأَنْفُسِهِمْ؟!

لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ ﷺ يَغْفُلُ عَنْ رَبِّهِ طَرْفَةً عَيْنٍ، كَانَ يَر_اقِبُ رَبَّهُ فِي حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، وَغَدَوَاتِهِ وَرُوحَاتِهِ، وَكَانَتْ تَنَامُ عَيْنَاهُ، وَقَلْبُهُ لَا يَنَامُ.

ذَلِكَمُ هُوَ مُحَمَّدٌ الْعَابِدُ لِرَبِّهِ، إِنَّهُ أَعْبَدَ النَّاسُ لِلَّهِ، وَأَخْلَصَ النَّاسُ عِبَادَةَ لِلَّهِ، وَأَحْسَنُ النَّاسُ عِبَادَةَ لِلَّهِ، وَأَدُومُ النَّاسُ عِبَادَةَ لِلَّهِ، كَانَ يَقُولُ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدُومُهَا وَإِنْ قَلَّ»^(٣). وَكَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ^(٤)، وَاطْبَ عَلَيْهِ وَدَاوَمَ، عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبْ لَكُمْ.

* * *

-
- (١) رواه مسلم في الذكر (٢٧٠٢) (٤١)، عن الأغر المزني.
- (٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) (٤٢)، وأحمد (١٧٨٤٧)، عن الأغر المزني.
- (٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٣)، عن عائشة.
- (٤) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦) (١٤١)، وأبو داود في قيام الليل (١٣٦٨)، عن عائشة.



الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

فوز حركة حماس وواجب الوقت:

لي كلمة أقولها في هذه الخطبة، هذه الكلمة عن إخواننا في حركة المقاومة الإسلامية حماس، لقد أعطى الشعب الفلسطيني أغلبية أصواته لهذه الحركة، ثقة منه بأصحابها في انتخابات حرّة نزيهة، أشرفت عليها السلطة بنفسها، وكم نتمنّى في بلادنا العربيّة والإسلاميّة أن تقع مثل هذه الانتخابات النزيهة الحرة.

وكان لا بدّ لحماس أن تأخذ هذا التفويض بعين الاعتبار والثقة، متوكّلة على الله وعِزُّه، وأن تحمل الأمانة التي حُمِّلَتْها؛ إنّ الشعب الفلسطيني وكُلّ الإخوة في حماس أن يقودوا السفينة في السنوات الأربع القادمة، وهم أهل لها إن شاء الله.

ولكن المرء قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه، ضعيفٌ بمفرده قويٌ بجماعته، لا بدّ للإنسان أن يتعاون مع غيره، وهكذا عرض الإخوة في حماس على سائر الفصائل الفلسطينيّة أن تتعاون معها، مدّت إليهم يدها بإخلاص وثقة.

ونريد من الإخوة في الفصائل الفلسطينيّة - وخصوصًا في فتح أكبر الفصائل - نريد منهم أن يتعاونوا.. حرام على الإخوة في فلسطين أن يتخاذلوا ولا يتناصروا في هذا الموقف، الذي تريد إسرائيل فيه أن تقف ضد هذه الحركة، وأن تقف ضد الفلسطينيّين، وأن تمنعهم حتّى ما يستحقّونه من أموال، حتّى الأموال التي تأخذها منهم عن طريق الجمارك تريد أن تصادرها ولا تعطيها لهم.

يجب على الإخوة الفلسطينيين جميعًا - أيًا كان اتجاههم - أن يُقدِّروا قدر هذه المرحلة، قدر هذه الآونة العصيبة الرهيبة، التي تمرُّ بها أمتنا، وأن يحملوا مع حماس الأمانة، فالأمانة مشتركة، و«المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضُه بعضًا»^(١)، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ﴾ [الصف: ٤]. في ساعة المعركة لا مجال لاختلاف أو تفرق، يجب أن يحمل الجميع العبء، ﴿كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ﴾، ونحن في معركة مع أعدائنا.

وعلى الإخوة في فلسطين - خصوصًا الإخوة في فتح، الذين حملوا عبء الجهاد من قديم - أن يذكروا إخوانهم الذين رافقوهم في السلاح والجهاد والاستشهاد، عليهم أن يذكروا ما قدموا من شهداء، ومن دماء، ومن تضحيات، عليهم أن ينتصروا على أهوائهم وعلى أنفسهم، عليهم أن يكونوا يدًا واحدة مع إخوانهم.

إنَّ فلسطين ليست ملكًا لحماس، وليست ملكًا لفتح، وليست ملكًا لأي فصيل من الفصائل، هي ملك الفلسطينيين جميعًا؛ بل هي ملك العرب والمسلمين جميعًا، إنَّ فلسطين ليست للفلسطينيين وحدهم، إنَّ فلسطين أرض النبوات، إنَّ فلسطين أرض المقدَّسات، إنَّ فلسطين أرض الإسراء والمعراج، إنَّ فلسطين أرض المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، إنَّ فلسطين أرض القدس الشريف، أرض الرباط إلى يوم القيامة.

ولذلك كان للمسلمين حق فيها، فعلى المسلمين أن يرعوا الله وعَجَلًا، وأن يرعوا إخوانهم الفلسطينيين، وإخوانهم العرب، وإخوانهم

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى الأشعري.



المسلمين، وأن يُقدروا دقة المرحلة وخطورتها، وأن ينتصروا على كل المفترقات، لا مجال هنا لتفريق، لا مجال هنا للنظرة الحزبية، أو النظرة الشخصية، أو النظرة النفعية، يجب أن نتصر ونعلو فوق المنافع، وفوق الأحزاب، يجب أن يكون الوطن فوق الحزب، وأن يكون الإسلام فوق الجميع، وأن يعمل الجميع لنصرة الله، لنصرة دينه، لنصرة وطنه، لنصرة حرماته ومقدساته، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الله هي الحق والعدل والحرية.

أسأل الله لإخوتنا في حماس، وإخوتنا في فتح، وإخوتنا في فصائل الجهاد جميعاً، وإخوتنا في فلسطين كلها: أن يجمع كلمتهم على الهدى، وقلوبهم على التقوى، وأنفسهم على المحبة، ونياتهم على النصر، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

* * *



الرسول ﷺ إنساناً^(١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

لا زال حديثنا موصولاً عن صفوة الله من خلقه، وخاتم رسله، أعظم شخصية في تاريخ البشر، محمد بن عبد الله، نبي الرحمة، وهادي الأمة، رحمة الله للعالمين، وحجته على الناس أجمعين، ونعمته على المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

حديثنا عن رسول الله ﷺ، وكنا في آخر خطبة خطبناها تحدثنا عن الرسول البشر، الرسول الإنسان، فمحمد ﷺ وإن خصّه الله تعالى بالوحي وبالنبوة وبالرسالة، وختم به الأنبياء والمرسلين، فما هو إلا بشر من البشر، وإنسان من الأناسي، يأكل كما يأكل البشر، ويشرب كما يشرب البشر، ويتزوّج كما يتزوّج البشر، ويبتلى بما يُبتلى به البشر،

(١) أُلقيت هذه الخطبة بمسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٢١ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ،

الموافق: ١٧ أبريل ٢٠٠٩م.

ويحيا كما يحيا البشر، ويموت كما يموت البشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. محمّد البشر الإنسان هو موضع حديثنا، أو تكملة لما تحدّثنا به في الخطبة الماضية.

حينما اقترح المشركون على النبي ﷺ أن ينزل الله عليهم كتاباً من السماء، أو يفجر لهم من الأرض ينبوعاً، أو يجعل له جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، إلى آخر ما قالوا: أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]. ليس في يدي أن أصنع لكم هذه الأشياء.

وليس من شأن الرسل أن يفجروا الأرض، أو يجعلوا جنّات من نخيل وعنب؛ بل هذا هو شأن الناس، أن يزرعوا ويغرسوا وينشئوا جنّات النخيل والأعناب، إنّما شأن محمّد ﷺ أن يصنع أمة تزرع، وتصنع، وتنتج، وتستثمر، وتعمّر الأرض، وتُجمل الحياة، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.

كان النَّاسُ يتوقّعون أن ينزل عليهم ملك من السماء، أو ينزل مع الرسول ملك يؤيّد، فأمر الله تعالى رسوله أن يُبلّغ قومه المتعنتين المكابرين: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مَطْمَئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]. لأن المفروض أن يكون الرسول من جنس المبعوث إليهم.

أمّا أن يكون المبعوث إليهم بشراً أناسيّ، وينزل عليهم ويبعث إليهم ملك؛ فكيف يخاطبهم؟ وكيف يفهمونه؟ وكيف يتّخذون منه أسوة وقدوة، وهو لا يأكل ولا يشرب، ولا ينكح ولا ينام، ولا يعترية ما يعترى البشر؟!

لا بد للرسول أن يكون بشراً ليقتردي به الناس في حياته كلها، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ذروة الكمال البشري:

كان محمد ﷺ إنساناً بكل ما في الإنسان من معنى، ولكنه كان إنساناً بالغاً ذروة الكمال البشري، أعدّه الله إعداداً، وصنعه على عينه، واصطنعه لنفسه، وأدّبه فأحسن تأديبه، وعلمه فأكمل تعليمه، ولذلك لم يكن بشراً عادياً، ولا إنساناً كسائر الأناسي، بل كان بشراً عظيماً، وصفه خالقه ومُرسله فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. هكذا وصفه مَنْ أرسله للناس، وَمَنْ خلقه وأعدّه للرسالة.

النبوة اصطفاء:

من شأن الله تبارك وتعالى أن يُعِدَّ رُسُلَهُ، وأن يصطفيهم من أفضل خلقه، ومن أصفاهم أنفُسًا، ومن أطيبهم معدنًا حتّى يكونوا أسوةً للخلق، كل رسل الله ﷻ اصطفاهم الله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فالنبوة اصطفاء، وليست بالكسب، لا يستطيع الإنسان بعمله الصالحات، واجتنابه السيئات، وفعله للخير، وتقدّمه في عبادة الله: أن يكسب النبوة، فالنبوة لا تُكتسب، وإنّما النبوة تُمنح من الله، يصطفي الله مَنْ يشاء من عباده، ولذلك أعلن الله في كتابه، وعلى لسان

نبه أنه ختم النبوات والرسالات، فلا مجال لأحد أن يدّعي النبوة بعد، لأن النبوة لا تُكتسب.

الرسالة العامة الخالدة:

لقد أعدَّ الله تبارك وتعالى محمدًا ﷺ الإعداد اللائق برسالة عامة خالدة، كان الرسل - قبل مُحَمَّد ﷺ - يُبعث كل رسول إلى قومه، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١]، ﴿وإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [العنكبوت: ١٦]، ﴿وإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: ٨٤]، ﴿وإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: ٥٠]، ﴿وإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: ٦١]، كل رسول يُرسل إلى قبيلته أو إلى قومه، إلا مُحَمَّد ﷺ فقد أُرسل إلى النَّاسِ كَافَّةً، ولهذا عُدَّ هذا الأمر من خصائصه، وهناك كتب ألفت في خصائص مُحَمَّد ﷺ، فيما خصَّ الله به محمدًا دون الآخرين.

وفي حديث جابر الذي رواه الشيخان: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّة، وبُعث إلى النَّاسِ كَافَّةً»^(١). كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧، التكويد: ٢٧]، ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إعلان عالميّة الدعوة الإسلاميّة في المرحلة المكيّة:

وهذه الآيات التي تفيد عالميّة الدعوة المُحمّديّة، وعالميّة الرسالة الإسلاميّة، كلها في القرآن المكي، وهذا يردُّ على بعض المبشّرين والمستشرقين، الذين زعموا أن محمدًا كان في أوّل الأمر يعلن أنه رسول

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٣٨)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، عن جابر.

للعرب، ولما حدث صلح الحديبية بدأ يتّجه إلى الملوك، ويرسل إلى كسرى وقيصر، والمقوقس والنّجاشي، وأمراء الشام وغيرهم، ما يعني أن هذا تحوّل في دعوته.

وهذا كذب، من أوّل يوم أعلن الرسول ﷺ أنه رسول للنّاس كافّة، حتّى إنّه حينما جمع أهله وأقاربه: من بني هاشم، وبني عبد المطلب، وبني عبد مناف قال: «إني بُعثت إليكم خاصّة، وإلى النّاس كافّة»^(١). وجاء القرآن يؤكد هذا بآياته، فرسالة مُحَمَّد ﷺ تميّزت بأنها رسالة عامّة للنّاس جميعًا، إلى العالم كله.

وتميّزت أيضًا بأنّها رسالة خالدة، ليست لجيل من الأجيال، ليست رسالة قرن أو قرنين أو عشرة قرون، أنّها الرسالة الخاتمة، فليس بعد مُحَمَّد نبي، وليس بعد القرآن كتاب، وليس بعد الإسلام شريعة.

إعداد الله نبيه ﷺ للرسالة العالميّة الخالدة:

والعجيب أنّ الأنبياء الذين بُعثوا قبل محمد: لم يُعلن أحد منهم هاتين الدعوتين، لم يُعلن أحد أنّه بُعث للعالمين، ولم يُعلن أحد أنّه آخر الرسل، مُحَمَّد ﷺ هو الذي أعلن هذا بوضوح، فكان لا بدّ أن يُعدّه ربّه لأن يكون أهلاً لحمل الرسالة العالميّة، وحمل الرسالة الخالدة، فهو رسول إلى النّاس كل النّاس، ورسول إلى الزمن كل الزمن، حتّى تقوم الساعة؛ فكان إعدادُه إعدادًا لائقًا بمكانة الرسالة التي يحملها إلى العالم، ولذلك فحينما نقول: إنّه ﷺ كان إنسانًا. فهذا صحيح، ولكنّه كان إنسانًا اكتملت فيه معاني الإنسانيّة، ربّاه ربّه ﷻ فأحسن تربيته.

(١) رواه أحمد (١٣٧١)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والنسائي في الخصائص (٨٣٩٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١٠٩): رجاله ثقات، عن علي بن أبي طالب.

ومن هنا نجدہ ﷺ في كل حالة من أحواله البشريّة يبلغ القمة، ينتهي إلى الذروة، يُجسّد الكمال الإنساني حسبما يستطيعه البشر، هكذا كان ﷺ، ومن يدرس سيرته في حياته كلها في مكّة والمدينة، حياته في بيته، وحياته في المجتمع، وحياته في ليله، وحياته في نهاره، وحياته في السلم، وحياته في الحرب، وحياته عند الانتصار، وحياته عند الانكسار، حياته في أيّام الشدة، وحياته في أيّام الرخاء.

سيرة جامعة مكتملة الحلقات:

من يدرس هذه السيرة النبويّة الحافلة الجامعة، التي لم توجد سيرة في الدُّنيا لنبيٍّ من الأنبياء مثلها، من قرأ منكم سير الرسل السابقين وجدها نُتفاً من حياة الرسول لا تُمثّل الحياة مكتملة، وإنما تُمثّل حلقات منها، ولولا أنّ القرآن سجّل لهؤلاء الرسل كثيراً من نقاط حياتهم ما عرفناها من كتبهم نفسها، ولكن سيرة مُحَمَّد ﷺ سيرة جامعة، سيرة مكتملة الحلقات منذ ولادته إلى وفاته، تحكي السيرة كيف وُلِد؟ وكيف استقبله أهله؟ وكيف أُرْضِع؟ وكيف ذهب إلى بني سعد وأرضعته حليلة السعدية؟ وما حدث له في الصغر، وكيف رعى الغنم؟ وكيف عمل في التجارة؟ وكيف ذهب إلى الشام مرّة، وإلى كذا؟ وكيف شارك في وضع الحجر الأسود حينما كانت تُبنى الكعبة؟ كل هذه الأشياء حُكِيت عن مُحَمَّد ﷺ، ثمّ هجرته، وما بعد الهجرة أكثر تفصيلاً، وحياته الخاصّة.

بعض الناس يقول: لا شأن لنا بالحياة الخاصّة. لا، ليس عند الرسول دوائر حمراء، كل حياته مبذولة للناس، مروية للناس، حتّى كانت عنده تسع نساء، لو نسيت إحداهن شيئاً من حياته تحكيها الأخرى، لأنّ حياته أسوة للمؤمنين من أتباعه، وكل حياته تشريع للأمة، تؤخذ منها القدوة.

الجانب العاطفي في حياته ﷺ :

لهذا أقول: كان ﷺ الإنسان الكامل، إذا نظرنا إلى الجانب العاطفي في حياته ﷺ، كيف كان يفرح؟ وكيف كان يحزن؟ وكيف كان يضحك؟ وكيف كان يبكي؟ هو بشر كالbشر يفرح بالمسرّات، يفرح بالنعمة التي تأتي إليه، ويحزن للآلام، ويحزن للمصائب التي تنزل به أو بمن يحب، هذا شأن الإنسان السوي، فليس جلمودًا من الصخر، وليس قاسي القلب تمرّ عليه الأحداث ولا تدمع عينه، ولا يتأثر قلبه، لا، بل كان إنسانًا رقيقًا يفرح لما يُفرح، ويحزن لما يُحزن.

إذا رزقه الله ولدًا فرح به، وإذا مات هذا الولد حزن عليه، إذا أصابته النعمة من الله ﷻ فرح وشكر، وإذا نزلت به البلية حزن وصبر، هكذا كان ﷺ، ولذلك نجد في القرآن: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦]. أي: إنّ المشركين كانوا إذا تحدّثوا عنه بالسوء قالوا: مجنون. وقالوا: ساحر. وقالوا: كاهن. وقالوا: شاعر. وقالوا: مفترٍ، افترى هذا القرآن. وكانت هذه الأقوال تحزّ في نفسه، وتحزنه ﷺ، فليس أصعب على الإنسان البريء من أن يُتهم بما ليس فيه، ولذلك كان يحزن، وكان الله تعالى ينهاه أن يحزن، وألا يهتم لقولهم، ويأمره أن يصبر على ما يقولونه.

وكان يحزن كلّما أقبل عليهم وأعرضوا عنه، كلّما دعاهم إلى الله فأدبروا عن دعوته، أصمّوا آذانهم، وأعموا أعينهم، فلم يبصروا الحق، ولم يستمعوا لكلمة الحق، وكان هذا يؤذي النبي ﷺ، ويحزنه أشدّ الحزن، ولذلك يقول له الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]،

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]. فكان يحزنه إعراض قومه عنه.

وكان يحزن إذا رأى أصحابه يُعَذَّبُونَ، وهو لا يملك أن يصنع لهم شيئاً، يمرُّ عليهم وهم تحت أتون العذاب، كما مرَّ على عمار بن ياسر، وأبيه ياسر، وأمه سمية، فلم يملك أن يصنع لهم شيئاً إلاَّ أنه قال لهم: «صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ؛ فَإِنَّ مَوْعَدَكُمْ الْجَنَّةَ»^(١). وهو يتقطَّع قلبه من أجل هؤلاء، ليس يسيراً على القائد أن يرى جنوده يُعَذَّبُونَ، وهو عاجز عن الدفاع عنهم، كان كل هذا يُحزنه عليه الصلاة والسلام.

وحينما ماتت زوجته خديجة رضي الله عنها، وهي أوَّل مَنْ آمَنَ به من الخلق جميعاً، كانت أوَّل مَنْ استقبلته حين أتاها مفزوعاً ممَّا رأى في غار حراء، وحكى لها ما حدث مع جبريل، وكيف غَطَّه وضمَّه؟ وكيف قال له: اقرأ. فربت على كتفه، وطمأنت قلبه، وقالت هذه الكلمات التي كانت برداً وسلاماً على فؤاده: والله لا يخزيك الله أبداً. لا يمكن أن يكون هذا شيطاناً، مثلك لا تنزل عليه الشياطين، إنَّما تنزل على كل أفَّاك أثيم: والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنَّك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر^(٢).

وكانت دائماً إلى جواره، كانت سنده في الداخل، وسكنه في البيت، وعونه على أموره، ولذلك كان يذكرها بكل خير، كان وفيّاً لها، ولذكرياتها، ولصديقاتها، ولكل مَنْ يُحب خديجة، وقال: «آمَنْتُ بي حينَ كفر بي النَّاسُ، وصدَّقْتَنِي حينَ كذَّبَنِي النَّاسُ، وواسْتَنِي بِمالِها

(١) سبق تخريجه ص ٥٥.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، عن عائشة.

ونفسها حين حرمني الناس، ورزقني الله منها الأولاد حين لم يرزقني من غيرها»^(١).

حينما ماتت خديجة من السنة العاشرة من البعثة، وكانت هذه السنة قد مات فيها أيضاً عمه أبو طالب، وكان عمه سنده في الخارج، وخديجة سنده في الداخل، مات الاثنان في عام واحد، حتّى سُمّي (عام الحزن)^(٢)، الحزن على مَنْ فقدهم، وليس هناك شيء أشد على النفس من فقد الأحاب.

شَيْئَانِ لَوْ بَكَتِ الدَّمَاءُ عَلَيْهِمَا عَيْنَايَ حَتَّى يُؤْذِنَا بِذَهَابِ
لَمْ يَبْلُغَا الْمِعْشَارَ مِنْ حَقِّهِمَا فَقَدْ الشَّبَابَ وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ^(٣)

فرحه ﷺ:

وكان مُحَمَّدٌ ﷺ يفرح كما يفرح البشر، ولكنّه فرح لا يصل إلى البطر أو الأشر، أو العُجب أو الغرور؛ بل هو فرح بالحقّ.

هناك فرح بالحقّ وفرح بالباطل، الله تعالى قال للمشركين: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بَعِيرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]. ولكن فرح المؤمن يكون دائماً بفضل الله ﷻ، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، إذا أدّى المؤمن حقّ ربه أو حقّ عباده: فرح بما وفقه الله إليه، وحمد الله ﷻ على نعمته، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فرح بانتصاره في بدر، وفرح

(١) رواه أحمد (٢٤٨٦٤)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. والطبراني (١٣/٢٣)، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٢٨١)، عن عائشة.

(٢) انظر: ثمار القلوب، لأبي منصور الثعالبي ص ٦٤٤، نشر دار المعارف، القاهرة.

(٣) ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب، انظر: ديوان الإمام علي بن أبي طالب ص ٣٩، تحقيق د. عبد المنعم الخفاجي، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

بانتصار الروم على فارس كما تنبأ القرآن المكي حينما قال: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم: ٢-٥]. ففرح المؤمنون، وفرح سيد المؤمنين ﷺ بنصر هؤلاء.

الاعتدال في فرحه وفي حزنه ﷺ:

وكلما آتاه الله نعمةً فرح بها فرحاً لا يبلغ البطر والأشر، كما أن حزنه لا يبلغ درجة الانهيار، بعض الناس إذا حزن اشتدَّ حزنه حتى ينهار، كما نرى كثيراً من الشاكِّين أو المرتابين أو الجاحدين لوجود الله ﷻ، وللدار الآخرة، وللقدر خيره وشره، إذا أصيبوا بمصيبة في حياتهم، فشلاً في حبٍّ، أو كساداً في تجارة، أو إخفاقاً في امتحان، إذا أصابه شيء من هذا سارع فقتل نفسه، ينتحر والعياذ بالله.

وليس هذا حزن المؤمنين، المؤمن يحزنه هذا، وينكد عليه عيشه، وينغص عليه حياته، ولكنه لا يصل إلى درجة الانهيار، فشان المؤمنين إذا أصابتهم مصيبة أن يقولوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧]. فكان عليه الصلاة يحزن، ولكن لا يبلغ حزنه درجة الانهيار.

رحلته إلى الطائف:

ولم يكن حزنه ﷺ يبلغ درجة اليأس، فقد رأى من قومه ما رأى، ووصل به الأمر إلى أن قال: ندع مكَّة ونذهب إلى الطائف، لعلنا نجد في أهل الطائف ما لا نجد في أهل مكَّة. وذهب إلى الطائف في رحلة

شديدة قاسية، ماشيًا على قدميه في الحرّ الشديد، في الصحراء والجبال حتى وصل إلى الطائف، ولكنهم للأسف استقبلوه أسوأ استقبال، قالوا: ألم يجد الله غيرك حتى يرسلك، إن كنت صادقًا فأنت أعظم من أن نتحدث معك، وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من أن نستمع لك^(١).

فلم يستمعوا إليه، وسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم، يرمونه بالحجارة حتى دمت قدماه، جُرحت قدماه، وأشد من جرح القدم جرح القلب، جراحات القدم تُداوى، ولكن جراحات القلب أشد ما تكون على النفس الكريمة، وأصعب ما تكون على النفس الأبية، فرجع ﷺ من عندهؤلاء مجروح الجسد، ومجروح الفؤاد!

وأتى إليه ملك الجبال يقترح عليه: أن يطبق عليهم الجبال من حولهم، وأن يستريح من شرهم، ولكنه ﷺ لم يقبل ذلك^(٢)، وإنما شكّا إلى الله، «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين»^(٣)، ولكن مع هذه الشكوى لم يقبل أن تنزل عليهم تستأصلهم، وقال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٤)، وقال: «إنني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا شريك له»^(٥).

(١) القصة ذكرها ابن هشام في سيرته (٤١٩/١)، وابن حبان في السيرة النبوية (٩١/١)، وانظر: عيون الأثر (١٥٥/١).

(٢) سبق تخريجه ص ٥٩.

(٣) سبق تخريجه ص ٧١.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢)، عن ابن مسعود.

(٥) سبق تخريجه ص ٥٩.

وهذا ما كان، تحقّق أمله ﷺ، وكان أهل مكّة والمدينة والطائف هم الذين رفضوا الردّة، بعد موته ﷺ.. ارتدّت قبائل العرب، إلّا أهل مكّة والمدينة وأهل الطائف، هكذا كان حزنه ﷺ، حزن لا يبلغ درجة اليأس، أو الغضب على مَنْ أحزنه حتّى يدعو عليهم: أن يأخذهم الله أخذًا أليماً شديداً، كما أخذ الأمم من قبلهم، فكان ﷺ غاية في الاعتدال، في فرحه، وفي حزنه، وهكذا كانت حياته كلها حياة معتدلة متوازنة، يفرح ويحزن، ويضحك ويبكي، ويرضى ويغضب، ولكن لا يخرج عن حدّ الاعتدال، فهكذا أدبه الله ﷻ فأحسن تأديبه، وهكذا صنعه الله على عينه ليكون المثل الأعلى، والإنسان الأكمل، والقُدوة العليا للبشر جميعاً، صلوات الله وسلامه عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *



الخطبة الثانية

أما بعد، فيا أيها الإخوة المسلمون:

مكانة اللغة العربيّة في الإسلام:

في الأسبوع الماضي والذي قبله ذهبت إلى مصر لأشارك في جلسات مجمع اللغة العربيّة، ومن حق اللغة العربيّة علينا نحن المسلمين أن نعنّى بها، لأنّها لسان القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿كَذَّبُ فَصَلَّتْ عَائِيتُهُ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [فصلت: ٣، ٤]، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوزُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨]، فالعربيّة لسان القرآن.

والعربيّة لسان السُّنّة النبويّة، فمحمد ﷺ عربيّ، ولسانه عربيّ، وأصحابه عربّ، الذين نشرُوا الإسلام في العالم كانوا عربّا، كما أنّ المقدسات الإسلاميّة في أرض العرب، فالعربيّة هي لسان الإسلام.

والعربيّة لسان الثقافة الإسلاميّة، لا تستطيع أن تقرأ التفسير أو الحديث أو الفقه أو أصول الفقه أو العقيدة وتتعلمها على أصولها إلّا إذا درست العربيّة، ولذلك نرى إخواننا في بلاد العجم في الهند وباكستان وبنغلاديش وأفغانستان وتركيا ونيجييريا وهذه البلاد كلها حين تريد أن تعلم العلوم الإسلاميّة تدرسها بالعربيّة، فالعربيّة هي لسان الثقافة الإسلاميّة.

والعربيّة هي لسان التفاهم المشترك بين المسلمين، اللسان الذي ينبغي أن يكون القاعدة العامّة في التفاهم هو لسان العرب.

التفريط في اللغة العربيّة:

ولكن للأسف لم يعط العرب اللغة العربيّة العناية الكافية، فكثير منهم يذهب بأولاده - أبنائه أو بناته - إلى المدارس الأجنبية، ويتعلم الأطفال لغة غير لغتهم، القرآن يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. فلا بدّ أن يتعلّم الإنسان ويُعلم بلسان قومه، ولكننا للأسف نبعث أولادنا - خصوصاً الطبقات العليا، وبعض الطبقات الوسطى - إلى المدارس الأجنبية ليتعلّموا بغير لغة العرب، ويفكّروا بغير لغة العرب، فلا يستطيعوا أن يفهموا القرآن، ولا أن يفهموا مثل هذه الخطبة، ولا أن يفهموا درساً من الدروس الدينيّة، ولا أن يتابعوا الإذاعة أو التلفزيون، أو يقرؤوا صحيفة، هؤلاء الأولاد الذين يذهبون إلى المدارس الأجنبية غرباء عن قومهم، لا يدرسون السيرة النبويّة، ولا التاريخ الإسلامي، يدرسون تاريخ بريطانيا، أهذا يجوز؟!

ثم الدولة المفترض أنّها تعنى باللغة العربيّة، وهي اللغة الرسمية حسب الدستور القطري، وهناك قرار يلزم بأن تكون المراسلات والمكاتبات باللغة العربيّة، ومع هذا فإنّ الشركات والمؤسّسات والبنوك تتعامل باللغة الإنجليزيّة.

ثم في المدة الأخيرة زحفت اللغة الأجنبية على التعليم، فوجدنا المدارس المستقلة تُعلّم باللغة الإنجليزيّة، وقد عشنا حياتنا في قطر منذ نصف قرن، والعربيّة هي لغة التعليم في المدارس والجامعات، وخرّجت أجيالاً، وابتعث من الجامعات من ابتعث وأثبت جدارته ووجوده.

الآن زحفت اللغة الأجنبية على المدارس والجامعات والشركات، هذا غير اللغات الأسيوية التي تملأ الساحة؛ لكثرة العمالة ونهضة

العمران في قطر، فأصبحت اللغات الأخرى تزاخم العربيّة، حتّى في البيوت، بعض البيوت فيها عدة أفراد غير عرب، فيها حارس وسائق وطباخ، وخادمة ومربية، وكل هؤلاء يتكلمون بلغات أخرى، والطفل يتلقّى منهم في سنّ التلقّي، والتأثر لغة غير لغة الوطن، ماذا صنعنا بلغتنا؟ أهذا يجوز في أمة عربيّة وفي بلد عربي، يعتز بعروبته وإسلامه؟

إنّ هذه الأمور جديرة بأن يفكر فيها أهل الحل والعقد، وأن يراجعوا أنفسهم، الإمام الشافعي رحمته الله قال: يجب على كل مسلم - حتى العجم في بلادهم - أن يتعلم من العربيّة ما يصحّح به عبادته، وهنا نجد بعض إخواننا من الهنود والباكستانيين والبلاد الأخرى: يعيش في قطر عشرين سنة أو أكثر، ولا يتعلم العربيّة، ولا يهتم أحد بتعليمه العربيّة، أهذا يجوز؟

إنّ العربيّة هي جزء من هويتنا، من شخصيّتنا الإسلاميّة وشخصيّتنا القوميّة، ولذلك كان علينا أن نعنّى بها، أن نعطيها من الاهتمام ما يليق بها، هذا هو الواجب علينا إن كنا عربًا، وإن كنا مسلمين، وإن كنا نعزّز بذاتنا وهويتنا.

أسأل الله سبحانه أن ينير لنا الطريق، اللهمّ اهدنا سُبُلنا، اللهمّ هيّئ لنا من أمرنا رشدًا، اللهمّ لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، اللهمّ ارحم أمة مُحَمَّد، ووحد أمة مُحَمَّد، وأعزّ أمة مُحَمَّد، اللهمّ أعزّنا بالإسلام، وأعلي بنا كلمة الإسلام، وارفع بنا راية القرآن، وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين؛ إنّك سميعٌ قريب.

* * *



الرسول ﷺ مُعَلِّمًا وَمُرَبِّيًا

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

لا زال حديثنا موصولاً حول شخصية الرسول الأعظم، والنبي الأكرم: مُحَمَّدٌ ﷺ الذي جعله الله أسوة للمؤمنين، ومُعَلِّمًا للعالمين.

بعض الفلاسفة التي يقولون عنهم: فلاسفة المسلمين. مثل الفارابي، وابن سينا، والكندي: فلاسفة المدرسة المشائية الإسلامية - كما يسمونها - سمّوا أرسطوطاليس: الفيلسوف اليوناني المعروف: الْمُعَلِّمُ الْأَوَّل.

الْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ :

والحقيقة أَنَّ الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، فأرسطوطاليس مُعَلِّمٌ فِي مجال مُعَيَّن، فِي مجال الفلاسفة، ولأناس محددين، أَمَّا مُعَلِّمُ الْبَشَرِيَّةِ، مُعَلِّمُ النَّاسِ جَمِيعًا، خَاصَّتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ، قَارِئِهِمْ وَأُمِّيَّهِمْ، بَدْوَهُمْ وَحَضَرَهُمْ، رِجَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، كِبَارَهُمْ وَصِغَارَهُمْ، الْمُعَلِّمُ الْعَامُّ لِلْبَشَرِيَّةِ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]، فهو

مُعَلِّمٌ ومُربٍّ، ولذلك قال: ﴿وَيُزَكِّهِمْ﴾. التزكية هنا بمعنى التربية، فكلمة (زكا يزكو) في اللغة العربيّة تحمل معنيين: معنى الطهارة، ومعنى النماء، فهو يُطَهِّرُ الإنسان من رذائل الشرك، ورذائل الجاهليّة، ورذائل النفاق، وينمّيهِ بفضائل الإيمان، وفضائل الإخلاص، وفضائل الشخصيّة السوية المتكاملة، فهو مُعَلِّمٌ ومُزَكِّ.

وقد دخل النبي ﷺ المسجد فوجد فيه حلقتين: حلقة فيها أناس يدعون الله، ويذكرون الله، وحلقة فيها أناس يتعلمون ويتدارسون، فقال: «أَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَدْعُونَ اللَّهَ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَتَعَلَّمُونَ». فجلس معهم، وقال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا»^(١). وهذا الحديث في سنده شيء من الضعف، ولكن يقويه الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتِنًا وَلَا مُتَعَتِّيًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُبْسِرًا»^(٢). بل يقويه أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ذَكَرَ مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِهِ: أَنَّهُ يُعَلِّمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُزَكِّي النَّاسَ، وَدَعَا سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْجُوَّةِ الْمُنْتَظَرَةِ: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]. فمحمّد ﷺ هو المُعَلِّمُ الأوّل.

تعليمه ﷺ في كل مكان وزمان:

وفي آخر خطبة خطبها على هذا المنبر بيّنت لكم أَنَّ هَذَا الْمُعَلِّمَ كَانَ يُعَلِّمُ فِي كُلِّ مَكَانٍ: فِي الْمَسْجِدِ، وَفِي الْبَيْتِ، وَفِي الطَّرِيقِ، وَفِي

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٩)، والدارمي في المقدمة (٣٦١)، وضعفه الألباني في ضعيف

ابن ماجه (٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٨)، عن جابر بن عبد الله.

السوق، وفي السفر، وفي الحضر، يُعَلِّم في كل مكان، ويُعَلِّم في كل زمان: في النهار، وفي الليل، وفي الشتاء، وفي الصيف، وحيثما تيسر له علِّم، ويُعَلِّم النَّاس جميعًا: يُعَلِّم الرجل، ويُعَلِّم المرأة، ويُعَلِّم الكبير، ويُعَلِّم الصغير.. كان مُعَلِّمًا ﷺ.

وهيَّا الله له من العلم ما يستطيع به أن يُعَلِّم الآخرين، لأنَّه أيضًا علِّم! مَنْ الَّذِي علِّمه؟ علِّمه جبريل: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]، وعلِّم جبريل من الله، لأنَّه ينقل عن الله ﷻ، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. فالله تعالى هو الَّذِي علِّمه في النَّهاية، علِّمه من يعلم ما في السماوات والأرض، فضلًا عمَّا عنده من خبرة وتجربة وحكمة، ومواهب أعطها له الله ﷻ، فكان أعقل العقلاء، وأحكم الحكماء، وأبلغ البلغاء، وأفصح الفصحاء.

لغته وفصاحته ﷺ :

عنده من اللغة، وأدب اللغة، وبيان اللغة ما ليس عند غيره، لأنَّه من قريش واسترضع في بني سعد، أرضعته حليلة السعدية، ذهب إلى هذه القبيلة البدوية ليتعلم منها لغة البادية، ليزيد من مخزونه اللغوي، فجمع لغة البادية إلى لغة الحضر، ولذلك كان أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء، وَمَنْ عَكَفَ عَلَى بِلَاغَتِهِ ﷺ ودرسها تبَيَّنَتْ لَهُ فِيهَا الْعَجَائِبُ مِنَ الْكُنَايَاتِ، وَالِاسْتِعَارَاتِ، وَالتَّشْبِيهَاتِ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ مَا لَا يَوْجَدُ عِنْدَ غَيْرِهِ، فَكَانَ ﷺ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالْأَدَبِ، وَجَوَاهِرِ الْحِكَمِ، وَجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَرَوَائِعِ التَّوْجِيهِ، وَعِظَائِمِ التَّشْرِيعِ: مَا لَيْسَ عِنْدَ بَشَرٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَهْلًا لِأَنْ يُعَلِّمَ.

منهجه وأساليبه في التربية ﷺ :

في الخطبة الماضية عرفنا: أين يُعَلِّم؟ ومتى يُعَلِّم؟ ومن يُعَلِّم؟
واليوم نتحدّث عن كيف كان النبي ﷺ يُعَلِّم؟ طريقته في التربية، منهجه
في التربية، أساليبه في التربية ﷺ.

اليوم يُشِيدون بالقيم والمبادئ التربويّة الحديثة، ويظنون أن هذه
القيم التربويّة ممّا استورد من الغرب، من أوروبا وأمريكا، وأنّ المسلمين
عالة على غيرهم، وهذا للأسف جهل بتراث هذه الأمة وما عندها من
كنوز في الحكمة والمعرفة، ومنها الكنوز التربويّة.

من درس منهجه ﷺ في التربية عرف أنّ هذه القيم التي يسمّونها
حديثة هي قيم قديمة، وأنا من حوالي ثلاثين سنة كتبتها في كتاب لي
اسمه (الرسول والعلم)، قدمته للمؤتمر العالمي للسيرة النبويّة الذي عُقد
في الدوحة في قطر بمناسبة قدوم القرن الخامس عشر الهجري.. الرسول
والعلم، وذكرت منها علم التربية.

تربية الشخصية المسلمة المتكاملة:

كان ﷺ هو الأسوة للناس في حُسن التربية، في الطريقة المثلى في
تربية المتعلمين، وتربية الناس أجمعين، فكان يربّي الشخصية المسلمة،
الشخصيّة المتكاملة، الشخصية المتوازنة، لا يربّي إنساناً للدنيا وحدها،
فهو من أهل الدنيا ولا علاقة له بالدين ولا بالآخرة، ولا يربّي الإنسان
لحياته الفردية أو الأسرية، ولا علاقة له بالجماعة والأمة، ولا يربي
الإنسان للجانب الروحي والجانب الأخروي منعزلاً عن الحياة الدنيا
ومشكلاتها وتياراتها، إنّهُ يربيه لهذا كله، للدين وللدنيا، للأولى

وللآخرة، للفرد وللجماعة، للأسرة وللأمة، هكذا يربي هذه الشخصية المتكاملة، الإنسان الناجي الذي ذكره الله في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

فلا يكفي أن يكون الإنسان مؤمناً يعمل صالحاً في نفسه، ولكنه لا يهتم بإصلاح غيره، يقول: نفسي نفسي، أنا وليخرب العالم. لا، أنت مسؤول عن غيرك، أنت متضامن مع غيرك، أنت لبنة في بنية، أنت فرد في جماعة، أنت عضو في جسم كبير؛ فلا يسعك أن تعيش وحدك بعيداً عن الأمة، ولذلك كان النبي ﷺ يربي المسلم على هذا.

كان يربي المسلم بكل الأساليب التي تصنع منه إنساناً متوازناً ومتكاملاً.

السؤال والجواب في الحديث النبوي:

لم تكن طريقته فقط الإلقاء، أن يأتي فيلقي الخطبة كما ألقاها أنا هكذا.. وانتهى الأمر، لا، ما كانت هذه طريقته، حتى أحياناً وهو يخطب يثير السائلين الحاضرين، ويشركهم معه.

ففي خطبة حجة الوداع، والجموع الحاشدة أمامه بعشرات الآلاف، لم يلق عليهم الخطبة إلقاءً، ولكن سألهم: «أيُّها الناس، أيُّ يوم هذا؟». حسبوا أنه سيُغيّر اسمه فسكتوا، وقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أليس هذا يوم النحر؟». قالوا: بلى. فقال: «وأيُّ شهر هذا؟». فسكتوا، فقال: «أليس شهر ذي الحجة؟». قالوا: بلى. قال: «وأيُّ بلد هذا؟». فسكتوا، قال: «أليس هو البلد الحرام؟». ثم قال: «إنَّ الله حَرَّمَ

عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»^(١).

كانوا في الجاهليّة يُعْظَمُونَ حرمة البلد الحرام، والشهر الحرام، والأيام الحرام، ولكنّهم لا يحترمون الدماء والأموال والأعراض، يستبيحونها بسهولة، فأراد أن يُعرّفهم أنّ الذي حرّم هذا الشهر وهذا البلد، هو الذي حرم هذه الدماء والأموال والأعراض، بهذا الأسلوب الحواري.

كان يحاورهم في أكثر الأمور، أحياناً يسألهم، وأحياناً يتيح لهم أن يسألوا، أحياناً يسألهم: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟». قالوا: يا رسول الله، كلنا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: «فإن ماله ما قدّم، ومال وارثه ما أخّر»^(٢). المال الذي تنفقه وتتصدّق به هو مالك الذي يبقى لك، والمال الذي تبقّيه معك وستتركه يوماً ليس مالك في الحقيقة، فأنت تهتم بما ستتركه لأولادك، ولا تهتم بما تقدّمه لنفسك، فهكذا كان يسأل الصحابة.

وأحياناً يذكر اللفظة تُثير السؤال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قالوا: يا رسول الله، ننصره مظلوماً؛ فكيف ننصره ظالماً؟ فقال: «تأخذ على يديه، تمنعه من الظلم، فذلك نصر له»^(٣).

ومن ذلك قوله: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)، عن أبي بكرة.

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢)، عن أنس.

«إِنَّه كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(١). كلاهما حمل السيف ليقتل أحدهما الآخر، فسبق سيف أحدهما إلى الآخر، فهما الاثنان في النار، لأنَّ المقتول كان يريد أن يقتل صاحبه أيضًا، فالمسألة تتعلق بالنية والقصد، وهكذا كان يَعْلَمُهُم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأحيانًا كان يسألهم عن بعض الألفاظ فيجيبون، ثمَّ يشرح لهم معنى آخر غير المعنى المتبادر منها.

من ذلك أَنَّهُ سَأَلَهُم: «مَا تَعْدُونَ الصُّرْعَةَ فِيكُمْ؟». قالوا: مَنْ لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ. مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَصَارِعَهُ فَيَغْلِبَهُ، قَالَ: «إِنَّمَا الصُّرْعَةُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٢). هذا هو الرجل الشديد القوي، ليس صاحب الجسم القوي الَّذِي يَغْلِبُ غَيْرَهُ، وَلَكِنْ صَاحِبُ النَّفْسِ الْقَوِيَّةِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْظِمَ غَيْظَهُ، وَيَمْلِكُ نَفْسَهُ، وَيُوقِفُ غَضَبَهُ عِنْدَ الْزُّورِ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «أَتَدْرُونَ مَنْ الْمَفْلَسُ؟». قالوا: الْمَفْلَسُ فِينَا مَنْ لَا دَرَاهِمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. قَالَ: «إِنَّ الْمَفْلَسَ مَنْ أَمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(٣). هذا هو المفلس عنده رصيد من الحسنات، ولكنَّه ضيعها بعدوانه على حقوق الآخرين وحرماتهم، هكذا كان يُعْلَمُهُم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٠٨٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٨٨)، كِلَاهُمَا فِي الْفَتَنِ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الْبِرِّ وَالصَّلَةِ (٢٦٠٨)، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الْبِرِّ وَالصَّلَةِ (٢٥٨١)، وَأَحْمَدُ (٨٨٤٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي صِفَةِ الْقِيَامَةِ (٢٤١٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

يقول لأبي بن كعب: «أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَكْبَرُ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؟». قال: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فكرر عليه السؤال: «أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَكْبَرُ؟». فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فضرب في صدره وقال: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»^(١). يريد أن يُحرِّكَ عقولَ أصحابه، أن يستثير ما عندهم، أن يعرف: هل يقرؤون ويفطنون لمعاني الآيات؟ أم يسردون القرآن سردًا ولا ينتبهون لمعانيه؟ فعرف أن أبا بن كعب التفت إلى معاني الآيات، وعرف أن هذه الآية التي فيها الثناء العظيم على الله - آية الكرسي - هي أعظم آية في كتاب الله، فقال: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ».

الثناء على النابهين والمتميزين:

وهكذا كانت طريقته أن يثني على مَنْ كان له موقف طيب، أو جواب حسن، أو علم نافع، أو عمل صالح، يثني على النابهين منهم، وعلى مَنْ عمل خيرًا منهم حتَّى يشجعهم.

قال لسعد بن أبي وقاص: «ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»^(٢). وقال لعمر بن الخطاب: «إِذَا سَلَكَتَ فَجًّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا آخَرَ»^(٣). وقال لخالد بن الوليد: «خَالِدُ سَيْفٍ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ»^(٤). وقال لعلي بن أبي طالب: «أَنْتَ مِنْ بَمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(٥).

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨١٠)، وأحمد (٢١٢٧٨)، عن أبي بن كعب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١١)، عن علي بن أبي طالب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٦)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٤) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٧٥٧)، عن أنس.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤١٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٤)، عن سعد بن أبي وقاص.

وهكذا كان يُشجع مَنْ كان له موقف حسن منهم، حتّى يضرب به المثل لغيره.

تنبيه المخطئ على خطئه برفق:

وكان ﷺ ينبّه مَنْ أخطأ على خطئه، ولكن برفق، كان ﷺ يصلي، ودخل أبو بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رفيع بن الحارث - فوجده في الركوع، فأراد أن يدرك الركوع، حتّى لا تضيع منه الركعة، فقال: الله أكبر. وركع من عند باب المسجد، وظل يمشي وهو راكع حتّى أدرك الصف، فلمّا عرف النبي ﷺ ذلك قال له: «زادك الله حرصًا، ولا تعد»^(١). لا تفعلها ثانية، لكن قال له: «زادك الله حرصًا». أي: إنّهُ قدّر الباعث الَّذي دفعه إلى هذا العمل، وهو أنّه أراد ألا تضيع منه الركعة، فقال: «زادك الله حرصًا ولا تعد». يعني عملك خطأ، لم يقل من أوّل الأمر: عملك خطأ. ولكن جاء بهذه المقدّمة: «زادك الله حرصًا».

الإشفاق على المخطئ:

وكان ﷺ - مع هذا - يشفق على المخطئ إذا أخطأ، خصوصًا إذا لم يكن ممّن دخلوا الإسلام من قديم، إذا كان حديث عهد بالإسلام، أو من أهل البادية؛ كالأعرابي الَّذي دخل المسجد، وأراد أن يبول فيه، فهمّ به الصحابة، فقال لهم النبي: «لا تزرموه - أي: لا تقطعوا عليه بولته - وصبوا عليه ذنوبًا من ماء؛ فإنّما بُعثتم ميسرين، ولم تُبعثوا مُعسّرين»^(٢). علاج هذه المشكلة دلو من الماء، خصوصًا أنّ المسجد لم يكن مفروشًا بالسجاد ولا بالحصير، وإنّما بالحصباء، فسيذهب الماء أثر الرائحة، ثمّ

(١) رواه البخاري في الأذان (٧٨٣)، عن أبي بكرة.

(٢) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

يجف هذا كله، فقال الرجل: اللهم ارحمني، وارحم محمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا. فقال له النبي ﷺ: «يا أعرابي، لقد حَجَّرتَ واسعًا»^(١). فهكذا كان يراعي خطأ المخطئ، ويرفق به.

وجاء معاوية السلمي إلى النبي ﷺ ودخل الصلاة، وكان حديث عهد بالإسلام، فعطس أحد الصحابة في الصلاة، فقال له: يرحمك الله. فرمقه الصحابة بأبصارهم. فقال: واثكل أمياه، ما بالكم تنظرون إليّ هكذا؟ فضربوا على أفخاذهم، لم يكلموه، أرادوا أن يسكتوه فسكت، وبعد الصلاة، يقول معاوية: جاءني النبي ﷺ فوالله ما رأيت مُعلِّمًا أحسن منه، ولا أكرم منه، ولا أرحم منه، والله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، ولكن قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التحميد والتكبير وقراءة القرآن»^(٢).

الشدة على بعض المخطئين:

هكذا كان ﷺ يشفق على المخطئ، وخصوصًا إذا كان أهلًا لأن يُشفق عليه، ولكنه يشتد على مَنْ ليس كذلك، كما قال لعائشة، وقد ذكرت ضررتها صفية بنت حُيي، فقالت: ما يعجبك من صفية إلا أنها كذا. قال الراوي: تشير إلى أنها قصيرة. فقال لها النبي ﷺ: «يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته»^(٣). فهناك كلمة تُعكر بحرًا.

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في المساجد (٥٣٧)، وأحمد (٢٣٧٦٢)، عن معاوية بن الحكم السلمي.

(٣) رواه أحمد (٢٥٥٦٠)، وقال مخزّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الأدب (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٢)، وصحّحه الألباني في غاية المرام (٤٢٧).

وكان يشتد خصوصًا إذا كان الخطأ يتعلق بالعقيدة، كما رأى مع عمر بن الخطاب صحائف من التوراة، فسأله: «ما هذا؟». قال: صحائف من التوراة. قال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب - متحيرون فيما عندكم - والله لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني»^(١).

وكان يشتد كذلك إذا كان الخطأ يمثل اتجاهًا، كما حدث حينما جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلمّا أخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر؟!

قال أحدهم: أمّا أنا فإنّي أصليّ الليل أبدًا ولا أنام. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء؛ فلا أتزوّج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أمّا والله، إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنني أصوم وأفطر، وأصليّ وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»^(٢). لا يريد أن تقوم رهبانية في الإسلام، ويدخل الغلو على المسلمين شيئًا فشيئًا، فكان يقف ضد هذا الاتجاه، هكذا كان ﷺ.

التربية بالتدرّج:

وكان يُربي أصحابه بالتدرّج، يأخذهم بالتدرّج شيئًا فشيئًا، لا يشتد عليهم في أوّل الأمر، ولكن يعلم أنّ التدرّج من سنن الله الكونيّة، ومن

(١) رواه أحمد (١٥١٥٦)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والدارمي في المقدمة (٤٤٩)، وأبو يعلى (٢١٣٥)، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٣٤/١٣): رجاله موثقون، إلا أن في مجالده ضعفًا. عن جابر بن عبد الله.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس.

سنن الله الشرعيّة، ويُعلّم أصحابه ذلك إذا أرسلهم في بعثة إلى بعض البلاد، حينما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلُ كِتَابٍ». أي: إِنَّهُمْ لَيْسُوا وَثْنِينَ كَسَائِرِ الْعَرَبِ، هُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّصَارَى، فَعِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ عِلْمِ الدِّينِ «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلُ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ». أي: ابدأ أصِلْ الْأَصُولَ، ثُمَّ ابْنِ عَلَيْهَا الْفُرُوعَ، لَا تَبْدَأْهُمْ بِالْأَعْمَالِ وَهُمْ لَمْ يَبْدُؤُوا بِالْعَقِيدَةِ، فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبْدَأَ بِالْأَسْسِ.. بِالْعَقَائِدِ، فَإِذَا تَأَصَّلَتِ الْعَقَائِدُ بَنَى عَلَيْهَا الْفُرُوعَ وَالْأَحْكَامَ التَّفْصِيلِيَّةَ.

لَا بَدَّ مِنَ الْكَلِّيَّاتِ قَبْلَ الْجَزْئِيَّاتِ، وَالْأَصُولِ قَبْلَ الْفُرُوعِ، «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةَ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(١). وهكذا يبدأ بالصلاة الركن الديني اليومي، ثمّ بالزكاة الركن المالي الاجتماعي، خصوصاً أنّ الصلاة تبدأ من أوّل ما يدخل المرء الإسلام، ولكن الزكاة تجب عليه بعد أن يحول الحول، ويأتي وقت الحصاد، وهكذا يبدأ بالصلاة ثمّ بالزكاة، وهكذا الفرائض الأخرى، فكان ﷺ يؤمن بالتدرّج ويتبعه مع أصحابه.

رعاية الفروق الفرديّة:

وكان يعلم أصحابه كلّ بما يحتاج إليه. في التربية الحديثة يُقال: رعاية الفروق الفرديّة. المعلّم الحق، والمعلّم النافع هو الذي يراعي الفروق الفرديّة، حتّى وزارات التربية تعمل مدارس خاصّة للمتفوقين،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

لأنهم يسعهم ما لا يسع الآخرين، يقدرون على ما لا يقدر عليه المتوسطون، ولذلك المعلم الناجح هو الذي يعرف من طلابه الذكي من المتوسط من البليد، ويجب كل إنسان على قدر سعة واديه، ومن هنا يعطي هذا ما لا يعطي ذاك، ويكلف هذا ما لا يكلف ذلك، لا تكلف الضعيف بما تكلف به القوي، ولا تكلف الغبي بما تكلف به الذكي.

ولذلك نجد النبي ﷺ يجب عن السؤال الواحد بإجابات مختلفة، لماذا؟ لأنه يراعي حال السائل، فالعالم والمربي والمجيب مع السائل كالطبيب مع المرضى، لا يعطي المرضى جميعاً دواءً واحداً، لأن الذي يشكو بطنه غير الذي يشكو رأسه، غير الذي يشكو عينه، لكل أحد دواء غير دواء الآخر، وقد يشكو اثنان من وجع بطنيهما ويختلف سبب الوجع، واحد يشكو الإمساك، وواحد يشكو الإسهال، فهذا غير ذاك، ولذلك كانت أجوبته ﷺ تختلف باختلاف السائلين.

يسأله أكثر من سائل: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فيقول لأحدهم: «الصلاة على وقتها»^(١). ويقول لآخر، وقد سأل: أي الإسلام خير؟ قال: «تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٢). ويسأله أكثر من سائل: ويقول يا رسول الله أوصني فيقول لأحدهم: «قل: آمنت بالله، ثم استقم»^(٣). ويقول لآخر: «صل رحمك»^(٤). ويقول لآخر: «لا تغضب»^(٥). لأنه يلمح بفراسته وبصدق نظره أن هذا الرجل عصبي

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧)، ومسلم في الإيمان (٨٥)، عن ابن مسعود.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٣٨)، عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٣)، عن أبي أيوب.

(٥) رواه البخاري في الأدب (٦١١٦)، عن أبي هريرة.

المزاج يحتاج إلى أن نوصيه بألا يغضب، وأن الآخر مهمل في أسرته فيحتاج أن نوصيه ببر الوالدين، أو بصلة الأرحام، وهكذا.

كان ﷺ نِعَمَ المُرَبِّي، ونِعَمَ المُعَلِّم، لا تَتَّسَعُ خطبة ولا خطبتان ولا ثلاث للحديث بتفصيل عن منهجه ﷺ في التربية، وأساليبه ﷺ في التربية، ولذلك نحتاج إلى أن نقرأ في ذلك حتَّى نتفقه في هذه السيرة العظيمة التي جعلها الله أسوة لكلِّ المؤمنين، ولكلِّ البشر، مُحَمَّدٌ ﷺ أسوة لكلِّ البشر في كلِّ مجال من مجالات الحياة، جعله الله تعالى المثل البشري الأعلى لِيُقْتَدَى به، وتُتَّخَذَ منه الأسوة، ليتعلم النَّاسُ منه المنهج الوسطي، لا منهج الغلاة، ولا منهج المُقَصِّرِينَ، لا منهج الإفراط، ولا منهج التفريط؛ بل هو المنهج الوسط للأمة الوسط: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفعنا بسيرة هذا الرسول العظيم، وأن يجعله لنا خير مُعَلِّم وخير أُسوة، وأن يجعله شفيعاً لنا في يوم الحساب؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وادعوه يستجب لكم.





الخطبة الثانية

أمّا بعدُ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون:

لي في هذه الخطبة الثانية ثلاث كلمات: الكلمة الأولى عن فلسطين، والكلمة الثانية عن تفرق المسلمين، والكلمة الثالثة عن خطبة الرئيس الأمريكي أوباما التي وجَّهها إلى المسلمين.

١ - ذكرى النكبة الثانية:

كلمتي الأولى بمناسبة ذكرى النكبة الثانية، منذ ثلاثة أسابيع تحدثنا عن مرور إحدى وستين سنة على النكبة الأولى، النكبة الكبرى، نكبة ضياع فلسطين وإقامة دولة إسرائيل، استطاع الصهاينة في غفلة من العرب والمسلمين أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة فلسطين، وأن يشرّدوا أهلها في آفاق العالم، أن يستوطنوا هذا البلد، وأن يشرّدوا أهله.

هناك استعمار استيطاني كالاستعمار الفرنسي في الجزائر، استوطن الجزائر وهي ليست وطنًا له، ولكنّه استوطنها مع أهلها، وأبقى أهلها فيها، ولكن الاستعمار الصهيوني استعمار استيطاني إحلالي، أي أنّه يطرد أهل البلاد ليحل محلهم، انظروا إلى الغريب الذي جاء من آفاق الأرض، من كل مكان في العالم، طرد أهل البلد، وأقام مقامهم، وحلّ محلّهم، وادّعى أن هذه الأرض أرضه، وهذا الوطن وطنه.

هذه هي النكبة الكبرى الأولى التي قامت على أساسها دولة إسرائيل، وللأسف وجدنا بعض العرب يهنؤون إسرائيل بمناسبة استقلالها، بمناسبة عيدها الوطني السنوي بالتاريخ العبري، وهو قبل ١٥ مايو في التاريخ

الميلادي المعروف، فبعث أحد الزعماء العرب ببرقية إلى الإسرائيليين يهنئهم فيها بعيدهم الوطني، أي بالنكبة الكبرى لفلسطين.

تحدثنا عن النكبة الكبرى في الخطبة الماضية بمناسبة مرور إحدى وستين سنة على نكبة فلسطين الأولى، واليوم نتحدث عن الذكرى الثانية والأربعين لنكبة فلسطين الثانية، النكبة التي سمّاها بعضهم (النكسة)، ولا أدري لماذا سمّوها النكسة؟ كأنّهم كانوا منتصرين ثمّ انتكسوا، للأسف لم ينتصروا عمرهم في معركة ضد إسرائيل، ولكن سموها (النكسة)، سمّاها ما تسميها: نكسة، نكبة، مصيبة، كارثة.

حدثت هذه النكبة منذ اثنتين وأربعين سنة، وزاد من فداحة هذه النكبة أنّنا كنا قبلها نملاً الدُّنيا صياحاً وصراخاً: سنؤدب إسرائيل، ومن وراء إسرائيل، سنلقي إسرائيل في البحر، سنفعل وسنفعل! ثمّ ما أسرع ما كانت الهزيمة، يسمون هذه الحرب (حرب الأيام الستة)، والحقيقة في نظري هي حرب الساعات الست، لأن في الست ساعات الأولى انكشف الأمر، انكشف القناع، وظهرت الحقيقة للعيان، واستطاعت إسرائيل أن تضرب الطيران المصري والسوري، وأن تضرب المطارات، وتحتل ما تريد أن تحتله في سرعة البرق.

ذهبت الصيحات التي كنا نسمعها: تأديب إسرائيل، ومن وراء إسرائيل. لم تغن شيئاً للأسف، لأننا دخلنا المعركة ولسنا مع الله، فلم يكن الله معنا! كنا ننظر إلى كل جهة إلّا إلى جهة السماء، ونستعين بكل مخلوق إلّا الله تعالى الخالق، فلم نقل: يا رب. كانوا يوزعون على الجنود في المعركة صور الممثلين والممثلات، والمطربين والمطربات، لم يوزعوا عليهم المصحف، لم يوزعوا عليهم الأذكار، كما يقول الله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. لم نقل لهم: قولوا: يا رب انصرنا.

دخلنا المعركة وليس معنا القرآن، بينما دخل اليهود المعركة ومعهم التوراة، دخلوا المعركة يهودًا، ولم ندخلها مسلمين حقًا، فانتصروا علينا، انتصرت القلّة على الكثرة، وكانت النكبة الثانية، احتلوا ما بين القنطرة والقنيطرة، القنطرة في مصر والقنيطرة في الجولان في سوريا، احتلوا سيناء، واحتلوا ما احتلوا من الأردن، واحتلوا ما احتلوا من سوريا، وابتلعوا فلسطين، كل هذا تم في ستّ ساعات.

وبعد ذلك تغيرت الفلسفة السياسية للعرب، كانوا العرب قبل ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧م يقولون: لا بدّ أن نزيل باطل إسرائيل، إسرائيل قامت على باطل، وكل ما بُني على باطل فهو باطل، والباطل يجب أن يزول، والاعتصاب يجب أن يزول، والظلم يجب أن يزول. وظلت هذه الفلسفة حتّى ٥ يونيو ١٩٦٧م.

ثم تغيّرت الفلسفة وقالوا: يجب أن نزيل آثار العدوان. كأنّما أضفى عدوان ٦٧ الشرعية على عدوان ٤٨، وصار مقبولًا، وليتهم أزالوا آثار عدوان ٦٧، فحتى هذا العدوان لم يزل إلى اليوم.

لا زالت إسرائيل تحتل الضفة الغربيّة، وتحتل القدس، وتفعل ما تفعل في القدس، تغيّر معالمها، تريد أن تُهوّد المدينة، تقوم بالحفريات تحت المسجد الأقصى، حتّى أنشأت مدينة سياحيّة تحته، ممّا يهدّد المسجد الأقصى بالخطر، ويزعمون أن هناك هيكل سليمان، وأنّهم يبحثون عنه، ومنذ أن احتلوا القدس من اثنتين وأربعين سنة لم يجدوا أثرًا لهذا الهيكل المزعوم.

وعلى وجه الأرض يفعلون ما يفعلون، يحاولون شراء المنازل، وتهجير أهل المدينة، يهدمون المنازل القديمة، ولا يسمحون لأحد من المسلمين أو المَسِيحِيِّين أن يبني بيتًا جديدًا، ويضيقون عليهم في كل شيء، والعرب والمسلمون في غفلة عن قضية المسجد الأقصى وقضية القدس الشريف، وبعضهم يحاول التّطبيع مع إسرائيل، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

لا بدّ للأُمّة أن تتنبه إلى هذا الخطر، إلى ما يحيق وينزل بالمسجد الأقصى من فوق، ومن تحت، وعن يمين، وعن شمال، لا بدّ أن تتنبّه الأُمّة، وعلماء الأُمّة، وقادة الأُمّة، وحكام الأُمّة، والمؤسسات المدنية في الأُمّة إلى هذا الخطر الذي يهدد المسجد الأقصى وحرمة وساحاته، ويهدد مدينة القدس كلها.

٢ - تفرق الأُمّة:

الكلمة الثانية - أيّها الإخوة - تتعلّق بحال المسلمين، بما أصاب المسلمين، ماذا نقول؟ نقرأ الصحف كل يوم، نطالع نشرات الأخبار في التلفازات، المسلمون وحدهم هم الأُمّة المتفرقة، حيث يتجمّع العالم، ويتنادى الناس بالوحدة وبالتضامن وبالتقارب في كل مكان، والمسلمون وحدهم هم الذين يتباعدون بعضهم عن بعض، يجافي بعضهم بعضًا، بل يعادي بعضهم بعضًا، بل يقتل بعضهم بعضًا، ماذا حدث لهذه الأُمّة؟ ماذا نقول؟

انظر إلى فلسطين، وانظر إلى الصومال، وانظر إلى العراق، وانظر إلى أفغانستان، وانظر إلى باكستان، انظر إلى الاقتتال بين المسلمين بعضهم وبعض، بل في بعض الأحيان يحدث الاقتتال بين الإسلاميين

بعضهم وبعض، بين الدعاة إلى الإسلام، إلى تحكيم الإسلام، دُعاة الحركات الإسلامية يقاتل بعضهم بعضًا، أليس هذا ما يجري في الصومال؟ بعد أن خرج الأحباش الأثيوبيون من الصومال بدأ الإسلاميون يقاتل بعضهم بعضًا! يا قوم أليس لنا عقول؟ هل يجوز للأمة أن يسفك بعضها دماء بعض؟ ألا يجوز للمسلمين أن يتفاهموا بالعقل يومًا؟ ألا يجوز أن يحتكموا إلى من يصلح بينهم؟ «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء، والبغضاء هي: الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر»^(١). التفرق هو الكفر كما قال النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٢).

هذا ما يجب أن ننوّه به، ونحن في الاتّحاد العالمي لعلماء المسلمين دعونا المختلفين والمتفرقين والمقتتلين إلى أن يجلس بعضهم إلى بعض، ويسمع بعضهم من بعض، ولكن كما قال الشاعر:

لقد أسمعْتُ لو ناديتَ حيًّا ولكن لا حياة لمن تُنادي^(٣)

٣ - خطبة الرئيس الأمريكي في العالم الإسلامي:

والكلمة الثالثة حول خطبة الرئيس الأمريكي (أوباما)، وتوجيهه خطابًا خاصًا للمسلمين أو للعالم الإسلامي.

(١) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢١٢٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦١/٣): حسن لغيره. عن الزبير بن العوام.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

(٣) نسبه ياقوت الحموي لكثير عزة، انظر: معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م، وقد نُسب لعبد الرحمن بن الحكم في الأغاني (٨٢/١٥)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.



هناك أناس أسرفوا في التفاؤل حول هذا الخطاب، وظنّ بعضهم أنّ أمريكا قد غيّرت سياستها، وغيّرت اتّجاهها، وأصبحت صديقة للمسلمين، وستحل المشاكل ما بين عشية وضحاها، وهذا من السذاجة التي لا تصح أن تقابل بها مثل هذه الخطب السياسية.

وهناك في المقابل أناس يرفضون هذا الخطاب من أصله وبكُلّيته، ويقولون: اطرّدوا هذا الرجل قبل أن يأتي، ولا تسمحوا له بالمجيء.

وأنا لست مع المسرفين في التفاؤل، ولا مع المسرفين في سوء الظن، يجب أن نعلم أن أمريكا لا يحكمها رجل واحد، وإن كان رئيسها نفسه، فهذا بلد مؤسّسات، ثمّ هناك موارد تحكم هذا البلد من عقود أو قرون، فلا لا نطن أن هذه الموارد تُهمل وتُلقى في سلة المهملات بسرعة.

نحن نرحب مبدئيًا بخطاب أوباما، لا على أنّه يحل المشاكل، ولكن على أنّه بداية للتعامل مع العالم الإسلامي - كما قال - على أساس الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة، نحن نُقرّ هذا المبدأ.

ونُقرّ أنّ الرجل حاول التودّد إلى المسلمين، وحاول أن تكون لغته غير مستفزة، على خلاف لغات من قبله، مثل بوش وأمثال بوش الذي قال: إننا نخوض حربًا صليبيّة. ثمّ اعتذر عن هذه الكلمة.

لهذا الرجل أوباما جذور إفريقيّة، وجذور إسلاميّة، لعل هذه الجذور تؤثر فيه، ومن تأثيرها أنّه استنكر بوضوح الاستيطان الإسرائيلي، ولم يصف حماس بأنها إرهابيّة، وإن كان وصفها بالعنف.

وصف حماس بالعنف، ولم يصف إسرائيل بالعنف، وهذا عجب من العجب، فحماس في موقف الدفاع عن الأرض والعرض والحرّيات،

ومن حقّ المُدافع أن يستخدم ما استطاع من القوّة للدفاع عن أرضه وعرضه وحِمّاه، أمّا إسرائيل فهي عدوانيّة، قامت من أوّل يوم على العدوان، وعلى الاغتصاب، وعلى هتك الحرمات، وعلى أن تدوس المقدّسات؛ فكيف توصف حماس بالعنف، ولا توصف إسرائيل بالعنف؟

لقد حاول الرجل أن يستشهد بالقرآن، وأن يستشهد بالتوراة والإنجيل، وإن كان سوّى بين التوراة والقرآن في الدعوة إلى السلم، ونقل عن التلمود أنّ التوراة تدعو إلى السلام، وما رأيت في التوراة فقرة أو جملة تدعو إلى السلام، كل ما في التوراة دعوة إلى الحرب، حتّى إنّ الله ﷻ يسمونه فيها (رب الجنود) العساكر، وليس كالقرآن الذي يسميه رب العالمين، أو الرحمن الرحيم.

التوراة تقول لموسى حينما يدخل بلدًا من البلدان بعيدًا عما يسمونه أرض الميعاد: عليك أن تدعوها، فإذا اصطلحت معك، وسلّمت لك، فجميع أهلها عبيد لك، وإلا فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، لا تستثنِ طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا.

أمّا أرض الميعاد التي يسكنها الكنعانيون واليبوسيون وغيرهم من الشعوب السبعة، هذه الأرض إذا دخلتها فأبدها عن بكرة أبيها، لا تستبق فيها نسمة حيّة^(١). هكذا تقول التوراة، فكرة الاستئصال التي رأيناها عند الأوربيين حينما دخلوا أمريكا، وحاولوا أن يستأصلوا الهنود الحمر، وحينما دخلوا أستراليا، وحاولوا أن يستأصلوا أهلها الأصليين واستأصلوهم، هذه فكرة توراتيّة، (أبدهم عن بكرة أبيهم، لا تستبق فيها نسمة حيّة)؛ فكيف سوّى أوباما بين التوراة والقرآن؟

(١) سفر التثنية (١٠/٢٠ - ١٨)

نحن على كل حال لا نسرف في التفاؤل بهذا الخطاب، ولكن نقول: لعله خطوة من الخطوات، ولعل الرجل يُغيّر من سياسة أمريكا ولو تغييرًا جزئيًا، ولو على مراحل، ولكننا رأيناه للأسف يخرج الجنود من العراق ليبعث بهم إلى أفغانستان، فهو يستبدل حربًا بحرب، وهذه الحرب أو تلك ضد المسلمين.

نحن - يا أيّها الإخوة - لا نعتد إلا على الله وحده، ثمّ على أنفسنا بعد ذلك، إذا رأى خصومنا قوّتنا وتماسكنا ووحدة صفنا احترامونا، وحاولوا أن يوجدوا حلولًا لمشاكلنا، أمّا إذا تمزّقنا وتنازعنا، وأصبح بعضنا يحارب بعضًا فمن لم يحترم نفسه لم يحترمه غيره.

سَأَكْرِمُ نَفْسِي إِنِّي إِن أَهْنَيْتُهَا لَعَمْرُكَ لَمْ تَكْرُمْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدِي^(١)
وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها، وأجرنا من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة؛ إنَّك سميعٌ قريب.

(١) نسبه البحري للمري انظر: حماسة البحري ص-٣٢٧، تحقيق د. محمّد إبراهيم حُور وأحمد محمد عبيد، نشر هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م. وروى ابن عساكر أنّ الأصمعي سمع كناسًا ينشدها، انظر: تاريخ دمشق (٨٦/٣٧)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.



الذوق الرفيع عند النبي ﷺ (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

لا زال حديثنا متصلًا بسيرة مُحَمَّد ﷺ، وبشخصية مُحَمَّد ﷺ، وهي أعظم شخصية في الوجود البشري، أدبها الله فأحسن تأديبها، وعلمها فأكمل تعليمها، كما قال الله تعالى له: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

لا زلنا حول هذا الرسول وسيرته التي هي مدرسة كاملة، يتعلم كل إنسان منها ما يحتاج إليه ليرقى بنفسه، ويكمل ذاته، ويبلغ في مراتب العلا والسمو النفسي والروحي والخلقي والسلوكي ما يستطيع أن يبلغه.

الذوق والأدب في حياة النبي:

ونتحدث اليوم عن أمر من أمور الشخصية المُحمَّديَّة هو ما يسمَّيه النَّاسُ في عصرنا (الذوق)، وكان كثير من السلف يسمَّيه (الأدب)، وربَّما كان الذوق أخص من الأدب، لأن الذوق عبارة عن سلوك رفيع مبعثه رهافة

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٨ مايو ٢٠٠٩م.

الحس، ورقة الطبع، ودقة الشعور، ومراعاة مشاعر الناس، بحيث لا يجرح إحساس أحد بكلمة أو بمنظر أو برائحة، أو بأي شيء يسوء الآخرين.

مَنْ فَقَدَ هَذَا الْأَدَبَ أَوْ هَذَا الذَّوْقَ أَوْ هَذَا الْمَعْنَى لَيْسَ مُجْرَمًا وَلَا فَاسِقًا، وَلَكِنَّهُ إِنْسَانٌ قَدْ يُسَمَّى فَاحِشًا، قَدْ يُسَمَّى بَذِيئًا، قَدْ يُسَمَّى النَّاسُ مِدْبَأً^(١)، قَلِيلُ الذَّوْقِ، جَلْفًا، أَوْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ.

القرآن الكريم مصدرًا للذوق الرفيع:

وقد بلغ مُحَمَّدٌ ﷺ في سلامة الذوق، وفي رهافة الحس، وفي حسن معاملة الناس مبلغًا يجعله أسوة لسائر البشر كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. هكذا كان ﷺ.

وكان مرجعه الأول في هذا الذوق الرفيع هو القرآن الكريم، فقد كان خُلِقَ القرآن، والقرآن يُعَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ الذَّوْقَ الرَّفِيعَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، إِذَا تَحَدَّثْتَ فَلَا تَزْعَجْ مَنْ حَوْلَكَ بِرَفْعِ الصَّوْتِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصِيَّةِ لَقْمَانَ لابنه: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]. لِيَكُنْ مَشْيُكَ قَصْدًا وَسَطًا، لَا بَطِيئًا مَتَمَاوِتًا، وَلَا مَسْرَعًا مَهْرُولًا، ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، هَلْ تَحِبُّ أَنْ تُضْمَّ إِلَى عَائِلَةِ الْحَمِيرِ، وَتَرْفَعْ صَوْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِدُونِ مَبَرَّرٍ؟

آداب دخول المنازل:

هَذَا الْقُرْآنُ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

(١) المدبُّ في لغة أهل مصر: الذي يلقي الكلام على عواهنه دون تفكير، وقد يسيء إلى محدثه دون أن يشعر.

الاستئناس أبلغ وأعمق من الاستئذان، فيمكن أن تستأذن فتدق على الباب، لكن الاستئناس شيء وراء ذلك، أن تبحث: هل هذا الوقت لائق بالزيارة أم لا؟

رجل جاء من السفر، ولمَّا يُفَرِّغ صناديق أمتعته؛ هل يليق أن تذهب إليه وتزوره في هذا الوقت؟ لا، لا بدَّ أن تترك له فرصة ليفرغ لك، أو رجل في ساعة القيلولة يستريح هو وأهله هل تذهب وتدخل عليه حتَّى لو باستئذان؟ هب أنَّه رجل حيي ويأذن لك، أليس ذلك على حساب راحته، وعلى حساب خصوصيته؟ لا بدَّ أن تستأنس هل الوقت مناسب أم لا؟ لا تزوره في وقت متأخر، لا تزوره في وقت القيلولة، لا تزوره في وقت هو مشغول فيه، هكذا يعلمنا القرآن: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾.

ويقول القرآن: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨]. بعض السلف يقول: حاولت أن أنال هذا الفضل، أن أذهب إلى رجل فيقول لي: ارجع. فأرجع، وأكسب قوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾. فلم أجد. عنده ذوق لا يذهب بحيث يقول له أحد: ارجع. وهو يريد أن ينفذ الأمر الإلهي فيكسب الثواب: ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾. وبعض الناس لو فعلنا هذا، وقلنا له: ارجع، ليس هذا الوقت مناسبًا. يأخذ على خاطره، ويسجل عليك موقفًا، لكن القرآن يُعلمنا هذا الأدب.

استئذان الأطفال والخدم قبل الدخول:

والقرآن يُعَلِّم الأطفال والخدم: أي وقت يستأذنون؟ كما في الأوقات التي فيها خصوصية للرجل مع أهله، فيقول:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِزَّذْنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨].

ليستأذنكم خدمكم، وصبيانكم في هذه الأوقات الثلاثة، أمَّا الأوقات الأخرى، فلا بأس أن يدخل ابنك وبنتك وخادمك فيها، لكن هذه الأوقات لا، لا بدَّ أن يستأذنوا فيها، يدقُّوا الباب، فالقرآن يُعلِّم الجميع - حتى الأطفال - الأدب والذوق.

الأدب مع النبي ﷺ:

والقرآن يُعلِّم الصحابة الأدب والذوق مع قائد مثل رسول الله فيقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]. لا تتسلَّل وتتركه وتمشي بدون استئذان، لا، ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾، ويعلمهم كيف يتأدَّبون في خطاب رسول الله ﷺ، فيقول: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. تعلم الصحابة هذا الأدب.

ونزلت سورة تُعلِّم الصحابة الأدب مع رسول الله، والأدب بعضهم مع بعض، هي سورة الحجرات، وفيها يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٢، ٣].

تعلموا الأدب مع نبيهم وقائدهم العظيم، أن يغضوا أصواتهم عند رسول الله.

الأدب مع المسلمين:

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]. لا تعيبوا أنفسكم، لا يعب بعضكم بعضاً، لا تذكر أخاك بأسوأ ما فيه، حتى لو كان فيه ما تقول لا يجوز، واحد يقول: أنا أقول للأعور: يا أعور!

لا يليق بمسلم أن يقول ذلك، بل لا يليق أن تُعرض به بأي طريقة، حتى لو كان كلاماً عادياً من غير تعريض، لا تتكلم عن هؤلاء الناس أصحاب العاهات بما يسوؤهم، فلأنك سليم لا تحس بهذه الإساءة، ولكن لو تكلمت عن صاحب عاهة من العاهات بما يمس شعوره يؤذيه هذا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]. هكذا علّم القرآن المسلمين الذوق الرفيع والأدب العالي.

مثال الذوق الرفيع في كل شيء:

وكان النبي ﷺ قرآناً حيّاً، قرآناً مُفسّراً، كان يُفسّر القرآن بأقواله وبأفعاله، بأخلاقه وبسلوكه؛ فكان مثال الذوق الرفيع في كل شيء، في كلامه إذا تكلم يخفض صوته، إلّا إذا كان في خطبة معيّنة احمرت عيناه، وعلا صوته واشتد غضبه، كأنه نذير جيش صبحكم ومساكم^(١)، ولكن في حديثه العادي كان خفيض الصوت، لا يتكلم بكلمة تسوء من يسمعه أو من يجالسه، أجمع الصحابة جميعاً على أنه ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا لعاناً ولا صخاباً في الأسواق^(٢)، لا تسمع صوته من بعيد في السوق.

(١) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٧)، عن جابر.

(٢) رواه أحمد (٢٥٤١٧)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في البر والصلة (٢٠١٦)،

وقال: حسن صحيح. عن عائشة.

دخل إليه رجل من زعماء الأعراب، وكان سيئ الخلق وغلظ الطبع، وقيل له: فلان ينتظرك. فقال: «بئس أخو العشيرة». قالت عائشة: فلما ذهب إليه ليستقبله هشَّ إليه وانبسط إليه. فبعد أن انصرف الرجل قالت عائشة: يا رسول الله، قلتَ عن الرجل هذا، ثمَّ هشتَ إليه وانبسطت إليه؟! فقال: «يا عائشة، متى عهدتني فاحشًا؟»، متى عهدتني بذيئًا في القول؟ أو خارجًا عن الأدب والذوق مهما كان هذا الشخص؟ «إن شرَّ النَّاس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه النَّاس اتقاء شره»^(١). كان هذا أدبه إذا تكلم مع الناس.

الإصغاء للمتكلم:

وإذا سمع النَّاس يصغي إلى المتكلم بكل اهتمام، ينظر إليه، ويعطيه أذنه، ويستمتع منه، ولا يميل بوجهه عن محدثه وإن أطال، وبعض النَّاس يطيلون، يظل مقبلًا عليه بوجهه، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتَّى يكون الآخر هو الَّذي ينصرف عنه، يقول أنس: كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه، لا ينزع يده من يده حتَّى يكون الرجل الَّذي ينزع^(٢).

ولم يكن هذا الأمر خاصًا بالرجال الأحرار، بل العبد والأمة أيضًا، يقول أنس: إن كانت الوليدة - أي الأمة - من ولائد المدينة لتأتي، فتأخذ بيد رسول الله ﷺ فما يدع يده من يدها، وتمضي به في طرقات المدينة حتَّى يقضي حاجتها^(٣). لا ينزع يده من يدها من ذوقه وحيائه وأدبه وتواضعه، حتَّى تنزع هي يدها من يده ﷺ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٩١).

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق (٢٤٩٠)، وقال: غريب. وقال الألباني في ضعيف الترمذي (٤٤٤): ضعيف؛ إلا جملة المصافحة فهي ثابتة.

(٣) رواه أحمد (١٢٧٨٠)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف، وقد صحَّ الحديث بغير هذا اللفظ. وابن ماجه في الزهد (٤١٧٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٦٧)، عن أنس بن مالك.

وكان كما يقول أنس: إذا تناول أذنه رجل - وضع فمه في أذنه يسر إليه حديثاً - لا ينزع أذنه منه حتّى يكون الرجل هو الذي ينصرف عن رسول الله ﷺ^(١).

هكذا كان ذوقه ﷺ في معاملته مع الناس، لا يباشر الناس بما يكرهون، جاء إليه رجل عليه صفرة فكرهها، قال: «لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة». قال الراوي: وكان لا يكاد يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه^(٢).

ما بال أقوم يفعلون كذا:

وإذا رأى على بعض الصحابة ما يلام يصعد المنبر ويقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا. لا يواجه الشخص بعيه في وجهه، واللبيب يفهم بالإشارة، حتّى قال العلماء: إن حديث «إنّما الأعمال بالنيّات». قاله النبي ﷺ بمناسبة أن بعض الصحابة هاجروا لكي يتزوّجوا نساء يحبونهم، ومن هؤلاء صحابي كان يحب امرأة اسمها أم قيس، وكان الصحابة يسمونه فيما بينهم (مهاجر أم قيس)، لم يهاجر لله ورسوله، ولكن هاجر من أجل أم قيس.

ولكن النبي ﷺ لم يذكر أحداً في حديثه، بل قال: «إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٣٧٨/١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٨٠).

(٢) رواه أحمد (١٢٣٦٧)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الترمذ (٤١٨٢)، عن أنس بن مالك.

يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١). وكل إنسان يفهم ما قصد بالحديث.

لم يكن يواجه الأفراد بالسوء، إلا أن تُنتهك حرمت الله؛ فيغضب لله وعجل، ولكن كانت طريقته العامة التعميم، الخطاب العام، حتى لا يؤذي مشاعر الناس.

آداب الزيارة والاستئذان:

في الزيارة والاستئذان يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له، فليرجع»^(٢). دُق الباب أو الجرس ثلاث مرّات؛ فإذا لم يرد عليك أحد ارجع، اعلم أن القوم مشغولون، لا يحبون استقبال أحد.

لكن هناك بعض الناس يظل يضغط على جرس البيت حتى إذا كان هناك نائم أيقظه، أو مُصلّ أزعجه، أو إنسان يقضي حاجته عاجله من راحته، وهذا لا يصح، تعلم من رسولك ﷺ، كُن مُؤدّباً مُهذّباً في تعاملك مع الناس، كُن حسن الحديث، لا تتفيهق، ولا تشدّق، ولا تظهر للناس أنك الفصيح البليغ، لا تفعل هذا حتى لا يكرهك الناس، فالمتعالم على الناس والمتفاحص عليهم يكرهه الناس، وأقلل في كلامك ما استطعت، ولا تُطل على جليستك.

المظهر الحسن والكلام الحسن:

وليكن منك المنظر الحسن، والكلام الحسن، والرائحة الحسنة،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في البيوع (٢٠٦٢)، ومسلم في الآداب (٢١٥٣)، عن أبي سعيد الخدري.

ليكن كل ما يصدر منك طيبًا في طيب، كلامك طيب، وصوتك طيب، ورائحتك طيبة، ولذلك أوصى ﷺ بالسواك، لأنَّ ممَّا يؤذي النَّاس رائحة الفم، خصوصًا بعد الأكل، أو بعد طول السكوت، أو بعد النوم، قال: «السواك مَطْهَرَةٌ للفم، مَرْضَاة للرب»^(١). ويغني عن السواك في عصرنا الفرشاة، نظف فمك حتَّى لو بأصابعك أو بأيِّ شيء يقوم بالغرض، المهم ألا تُقبل على النَّاس ورائحتك غير طيبة.

ولا تذهب إلى المسجد بثياب المهنة، فالنبي ﷺ نهى عن الذهاب بثياب المهنة، ليَتَّخِذ المسلم ثوبًا غيره، ففي ثوب المهنة العرق والغبار والزيوت وروائح المهنة، فقال: «ما على أحدكم لو اتَّخَذ ثوبين لجمعه سوى ثوبي مهنته»^(٢). ولا يقال في هذه الحالة: الإسلام دين التواضع، ودين المساواة. لا، فهذه الثياب تؤذي إخوانك.

الرائحة الحسنة:

ولهذا حرَّض النبي ﷺ على غسل الجمعة، وفي بعض الأحاديث: «غُسل الجمعة واجب على كل محتلم»^(٣). وقال: «حقُّ على كلِّ مسلم في كلِّ سبعة أيَّام يومٌ يغسل فيه رأسه وجسده»^(٤). وكذلك يمس طيبًا: المسك أو الورد، من أنواع الطيب التي كان العرب يستعملونها، والآن توجد أنواع

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم قبل حديث (١٩٣٤)، ووصله أحمد (٢٤٣٣٢)، وقال مخرَّجوه:

حديث صحيح لغيره. والنسائي في الطهارة (٥)، عن عائشة.

(٢) رواه أبو داود (١٠٧٨)، وابن ماجه (١٠٩٦)، كلاهما في الصلاة، وابن خزيمة في الجمعة

(١٧٦٥)، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٦٧)، عن يحيى بن حبان.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٨٧٩)، ومسلم (٨٤٦)، كلاهما في الجمعة، عن أبي

سعيد الخدري.

(٤) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٦، ٣٤٨٧)، عن أبي هريرة.

صناعية يمكن أن تستعملها ولا تذهب إلى الناس كما أنت على اعتبار أن الإسلام دين المساواة، هو دين المساواة؛ ولكن لا تؤذ إخوانك.

بل إنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزَلْنَا، وَلْيَعْتَزَلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ»^(١) لا تذهب إلى المسجد وأنت آكل هذه الأشياء، كُلها بعد الصلاة، إذا كان ولا بدَّ أن تأكل منها قبل الصلاة اغسل فمك بحيث تزول عنك الرائحة ولا تؤذ إخوانك، فالرسولُ كان يشدد في هذا، ويقول: لا تصل في المسجد مع هذا؛ عقوبة له، فيحرم من صلاة الجماعة أو صلاة الجمعة بسبب هذه الرائحة، فأَي عقوبة لهذا الإنسان؟! وذات مرَّة وجد رجلاً رائحته شديدة الكراهية؛ فأمر أن يُخرج من المسجد^(٢)، لِيُعَلِّمَ المسلمين أَنَّهُ لا تساهل في هذه الأمور.

محبة الجمال:

هكذا كان ﷺ يحب أن تكون رائحته طيبة، وكلامه طيبًا، وكل ما يصدر منه طيبًا، و«الله طيب لا يقبل إِلَّا طيبًا»^(٣)، «إِنَّ الله جميل يحب الجمال»^(٤)، فيحب للمسلم أن يكون جميلًا في مظهره، كما هو جميل في مخبره، ولذلك كان يعد ليوم الجمعة لباسًا خاصًا، يُصَلِّي به الجمعة، ويلقى به الوفود، ليست عنده ثياب كثيرة كما نرى في عصرنا، بعض الناس عندهم خزائن مليئة بالملابس، لا، هي ملابس قليلة بعضها يخصصها ليوم العيد أو للقاء الوفود، حينما يأتيه وفد من الخارج يلقي

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٥٥)، ومسلم في المساجد (٥٦٤)، عن جابر.

(٢) رواه مسلم في مواضع الصلاة (٥٦٧)، عن عمر بن الخطاب.

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، عن ابن مسعود.

به هؤلاء النَّاسِ، ولا يلقاهم بثوبٍ جميلٍ، ليس وسخًا أو كريه الرائحة، هكذا كان ﷺ.

وقال في يوم من الأيام: «لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». فقال له أحد أصحابه: يا رسول الله، إنني أحب أن يكون ثوبي حسنًا، ونعلي حسنًا. وفي رواية: إنني رجل أولعت بالجمال في كل شيء، حتّى لا أحب أن يفوقني أحد بشراك نعل (رباط الحذاء)، أحب أن يكون رباط حذائي أجمل رباط، رجل متأنق؛ فهل هذا من الكبر؟ قال: «إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال، الكبر بطرُ الحقِّ، وغمط الناس»^(١).

ليس الكبر أن تلبس الثوب الجميل، ولا أن تلقى النَّاسَ بمظهر حسن، الكبر بطر الحق: أن تردَّ الحق، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وغمط الناس: أن تحتقر النَّاسَ، تعتقد أنك أفضل منهم وأرفع منهم، وأنهم دونك في المنزلة، «بحسب امرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم»^(٢).

كان النبيُّ يحبُّ الجمال، ويحب أن يكون أصحابه بمنزلة من الجمال، وخصوصًا في المسجد، كما قال الله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ حُذُوًا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

آداب الطعام:

وكان ﷺ إذا أكل لا يأكل بكلِّ يده، بأصابعه الخمس، تعرفون أنَّهم لم يكونوا يأكلون بالملعقة، وكان هناك من يأكل بيده كلها، ولكن

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٦٤٤)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، عن أبي هريرة.

النبي ﷺ كان يأكل بثلاث أصابع^(١)، وكان ربيبه عمر بن أبي سلمة - ابن زوجته أم سلمة - يأكل معه، وكانت يده تطيش في الصفحة، في إناء الأكل، يمينًا وشمالًا، وفي الداخل والخارج، فقال له: «يا بُني، سَمَّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مِمَّا يليك»^(٢). يعلمه الذوق والأدب في الأكل، وهكذا كان ﷺ يفعل، ولم يكن يقرن بين أمرين، لا يأكل قطعتين مع بعض أو تمرتين معًا^(٣)، يأكل واحدة فقط، هكذا كان ذوقه ﷺ في الأكل.

وإذا دُعِيَ من أحد أصحابه، لا يأخذ معه أحدًا إلا أن يستأذن مَنْ دعاه، جاء رجل ليدعوه، وكانت عائشة موجودة، فقال له: «وهذه؟». قال: وهذه^(٤). لا مانع أن تأتي.

ودعي ﷺ لطعام مع بعض أصحابه؛ فصحبهم رجل لم يكن من المدعوين، فقال النبي ﷺ لصاحب الوليمة: «إِنَّ هَذَا قَدْ تَبَعْنَا؛ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذِنَ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَرْجِعَ؟». قال: بل قد أذنت له يا رسول الله^(٥). فهكذا يراعي أذواق الناس، لا يفرض عليهم مَنْ يريد.

وبعض السلف يقول: في القرآن آية نزلت في الثغلاء من الناس، الَّذِينَ لَا يَرَاعُونَ مُشَاعِرَ الْغَيْرِ، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ

(١) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٢)، وأحمد (٢٧١٦٧)، عن كعب بن مالك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٥٥)، ومسلم في الأشربة (٢٠٤٥)، عن ابن عمر.

(٤) رواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٧)، عن عائشة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٣٤)، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٦)، عن أبي مسعود

البدرى.

فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴿٥٣﴾ [الأحزاب: ٥٣].

حياء النبي ﷺ :

كان النبي ﷺ قد أولمَ وليمة ليدخل بزينب بنت جحش، ودعا بعض الصحابة فأكلوا، وبعد الأكل أطالوا الجلوس وأطالوا الحديث، لم يراعوا أن هذا رجلاً سيدخل بزوجته؛ فيتيحوا الفرصة ويذهبوا، فكان هذا سبباً في أن ينزل الله قرآناً يعلمهم الأدب والذوق، ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾، فبعض الصحابة أو التابعين قال: هذه آية نزلت في الثقلاء من الناس^(١). الذين لا يراعون الأذواق والظروف، فهكذا كان ﷺ.

كان ﷺ إذا عطس غطى أنفه بيده أو بثوبه، أو بمنديله أو بأي شيء من هذا، وولّى وجهه إلى الجهة الأخرى؛ بحيث لا يواجه الآخرين بالعطاس، حتّى لا يخرج رذاذ منه يؤذي جليسه^(٢).

وكذلك إذا تشاءب أيضاً، فالتشاؤب مبعثه الكسل، وهو لا يريد من المسلم أن يكون كسلاناً، فإذا حدث هذا يغطي فمه بيده أو بثوبه أو بمنديله^(٣).

وهكذا إذا تجشأ، وهو ما يسميه العامة (التقرع)، وهو ما يكون من كثرة الشبع وامتلاء البطن، تتنفس المعدة، فكان ﷺ إذا تجشأ أحد أمامه يقول له: «كفّ عنا جشاءك؛ إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جَوْعًا

(١) تفسير القرطبي (٢٢٣/١٤)، من قول حماد بن زيد، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٢) رواه الترمذي في الأدب (٢٧٤٥)، وقال: حسن صحيح. عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٥)، وأبو داود في الأدب (٥٠٢٦)، عن أبي سعيد الخدري.

يوم القيامة»^(١). فكان هذا توجيهًا للصحابة ألا يسرفوا في الطعام، «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»^(٢).

ملاطفة الصغار:

وهكذا كانت حياته كلها ﷺ حافلة بالذوق، ولا أستطيع في خطبة واحدة أن أجمع كل المظاهر التي رأينا فيها ذوقه ﷺ، ولكنه كان حساساً سليم الذوق مع أهله، ومع أولاده، مع الصبيان الصغار يلاطفهم، يقول لعمير ابن أم سليم، وهو أخو أنس بن مالك من الأم: «يا أبا عُمَيْر، ما فعل النُّغَيْر؟»^(٣) فهو مع أهله، مع الصغار، مع الكبار، مع العجائز من النساء، مع الشيوخ من الرجال، مع الضعفاء حتى مع الجواري والإماء: كان في غاية الذوق صلوات الله وسلامه عليه، نسأل الله تعالى أن يجعل لنا نصيباً من الائتساء بهديه الكريم، وبخُلُقهِ العظيم، اللهم آمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

* * *

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٨)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠١٥)، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (١٧١٨٦)، وقال منخرجه: رجاله ثقات، غير أن يحيى بن جابر الطائي تكلموا في سماعه من المقدام، فإن صح سماعه منه فالحديث صحيح، وإلا فمقطوع. والترمذي في الزهد (٢٣٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٩)، والحاكم في الرقاق (٣٣١/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٢٨/٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٥)، عن المقدام بن معد يكرب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٢٩)، ومسلم في الآداب (٣١٥٠)، عن أنس.



الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ:

فلي أئِها الإخوة معكم كلمتان:

زيارة بابا الفاتيكان للأردن:

الكلمة الأولى حول زيارة بابا الفاتيكان لمملكة الأردن الشقيق، وقد احتج الإسلاميون هناك على زيارة البابا، وأنا معهم في هذا الاحتجاج؛ لأنَّ البابا أساء إلى رسول الإسلام، وإلى دين الإسلام في خطبته في ألمانيا بعد انتخابه بعدة أشهر، بدون مقدمات، وبدون مبررات، هاجم الإسلام بأنَّه دين عنف، وهاجم رسول الإسلام بأنَّه لم يأت بجديد إلَّا أنَّه نشر دينه بالسيف. ولذلك احتجنا عليه في الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وطالبناه بأن يعتذر لأُمَّة الإسلام عن إساءاته، وكل إنسان يصيب ويخطئ، وكانت أمامه فرصة أن يقول: إنِّي لم أقصد أن أسيء إلى المسلمين، وهذه فلتة لسان، أو أي شيء من هذا. ولكنَّه لم يفعل، ولذلك قرَّر الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين تجميد العلاقات مع البابا، ومع الفاتيكان حتَّى يصدر منه اعتذار أو موقف يغطِّي هذا الموقف أو يمسحه، ولم يحدث ذلك إلى اليوم.

ولذلك كنا نوذُّ أن يقول له المسؤولون في الأردن: نرجو قبل أن تزورنا أن يصدر منك شيء تصلح به ما بينك وبين المسلمين. أمَّا أن يسيء هؤلاء، ولا يجدون من يغضب لله ولرسوله، وللإسلام ودعوته وأُمَّته؛ فهذا ما لا نقبله بحال، هذه هي الكلمة الأولى.

زيارة الصحفي المسيء لقطر:

والكلمة الثانية تدور حول الصحفي الدانماركي الذي زار قطر في الأسبوع الماضي، وتعلمون موقف الدانمارك وصحافتها من مُحَمَّد رسول الله ﷺ، وتعلمون الرسوم الكاريكاتورية التي رأيناها بأعيننا، وهي رسوم مقززة لا يقبلها منطق، ولا يقبلها دين، ولا يقبلها خلق، ولا يقبلها ذوق في حق رسول هو أعظم رسل الله ﷺ، وهي تسيء إلى أمة كبرى.

إنَّ الإساءة إلى مُحَمَّد ﷺ تعني الإساءة إلى مليار ونصف مليار من البشر، كلهم يقدونه بأنفسهم وبآبائهم وأمهاتهم، فداه أبي وأمي رسول الله ﷺ، فهؤلاء أسأؤوا إلى رسول الله، ولم يعتذروا، لم يعتذر رئيس وزرائهم، ولم يعتذر رسامهم، ولم تعتذر الصحيفة التي نشرت هذه الإساءات لرسول الله ﷺ، وقد علمتم أنَّ العالم الإسلامي في ذلك الوقت من أقصاه إلى أقصاه ثار على هذه الرسوم، ولم يقبل أن يُهان نبيُّه ﷺ، ويغض الطرف عن هذا الأمر.

ولكن هؤلاء يقولون: إنَّ المسلمين قوم نساؤون، سرعان ما تنطفئ جذوتهم، وسرعان ما ينسون الإساءة والجريمة. نحن ننادي بمقاطعة البضائع الإسرائيلية والأمريكية، فيتحمس المسلمون مدة من الزمن، ثمَّ بعد مدة يفترون، وهكذا في الإساءة إلى رسول الله ﷺ.

هذا الرجل الذي جاء إلى قطر ما كان لقطر أن تسمح له، وقد اتصل بي الإخوة المسؤولون، وقالوا لي: إنَّ بعض الصحف قالت: إنَّه الرسام الذي رسم هذه الصور المسيئة، وليس بالرسام، ولكنه محرر بالصحيفة، ونحن لم نقصد، ولم نكن نعرفه.



ولكن الجهل بهذه القضايا والغفلة عنها ليست عذراً، لا تكفي عذراً، نحن نعلم أنّ للدانمارك موقفاً من الإسلام ورسوله ونبيّه، وكتابه وشريعته وأمّته، وكان موقفاً معروفاً في العالم الإسلامي، فحينما يُدعى الناس في اليوم العالمي للصحافة للاحتفال به؛ فينبغي أن ندقق في المدعويين؛ حفاظاً على حرمة ديننا، وحرمة رسولنا ﷺ، وما كان ينبغي الغفلة عن هذا الأمر.

لقد رأينا لزماً علينا أن نعرّف بهذا الأمر لتظلّ الأمّة على يقظة في حقّ دينها وقرآنها ورسولها وعقيدتها وشريعته حتّى لا يتناول عليها المتناولون، ولا يعتدي عليها المعتدون.

اللهمّ أكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضَ عنا وأرضنا، اللهمّ لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، ربنا تقبل منا إنّك أنت السميع العليم، وثب علينا إنّك أنت التواب الرحيم.

مُحَمَّدٌ ﷺ رسول السلام والجهاد (١)^(١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

نعود إلى ما كنا ابتدأنا فيه في السنة الماضية، والتي قبلها من الحديث عن سيرة رسول الله ﷺ وسيرة صحابته، كنا بدأنا في هذه السلسلة؛ ردًا على الذين أساءوا إلى رسول الله ﷺ بإشاعة هذه الرسوم الكاريكاتورية المسيئة، إلى شخصية أعظم خلق الله وصفوة رسل الله مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فداؤه أبي وأُمِّي!

نتحدث اليوم عن موضوع جديد، كنت قد حدثتكم عن مُحَمَّدٍ الْعَابِدِ، وَمُحَمَّدِ الزَّاهِدِ، وَمُحَمَّدِ ذِي الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، وَمُحَمَّدِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، وَالْيَوْمَ نَتَحَدَّثُ عَنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ السَّلَامِ وَرَسُولِ الْجِهَادِ مَعًا.

المستشرقون والمبشرون من الغربيين يتهمون محمدًا بأنه رجل متعطش للدماء، نشر دينه بالسيف، حتى البابا حينما حضر في ألمانيا أول محاضرة له قال على لسان إمبراطور بيزنطي: إِنَّ مُحَمَّدًا

(١) أُلْقِيَتْ فِي مَسْجِدِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ بِالدُّوْحَةِ، بِتَارِيخِ ٦ فَبْرَايِرِ ٢٠٠٩ م.

لم يأت بجديد، كل ما أتى به أنه نشر الدين بالسيف. وقد رددنا على ذلك في حينه^(١).

محمد لم ينتصر بالسيف؛ وإنما انتصر على السيف:

لم ينشر مُحَمَّد ﷺ دينه بالسيف، لم ينتصر بالسيف، ولكنه انتصر على السيف، فقد رُفِع السيف في وجهه، استعملت القوة الطاغية الباطشة في حق أصحابه؛ منذ أول يوم نادى بدعوة التوحيد. جاء مُحَمَّد ﷺ بدعوة يدعو النَّاس فيها إلى هجر عبادة الأحجار والأوثان، وإلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، هل في هذا ما ينافي العقل أو ينافي الفطرة أو ينافي المنطق؟!

لا بد من الحياة الآخرة:

وجاء مُحَمَّد ﷺ بأن هناك وراء هذه الدنيا آخرة تُوفَّى كل نفس فيها ما كسبت، وتُخلَّد فيما عملت من خير أو شر، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فليس الموت نهاية المطاف، ولكن بعد الموت حشر، وبعد الحشر حساب، وبعد الحساب ثواب وعقاب، وجنة ونار، أفي هذا ما يخالف الحكمة، أو يخالف العقل؟ هل الحكمة أن يموت النَّاس، وقد ظلم الظالم، وقتل القاتل، وبغى الباغي، ولم ينل عقابه، أفلت من العقاب؟! أليس من العدل أن يأخذ الظالم عقوبته، وأن ينال الخير مثوبته؟!

كم من النَّاس الأخيار عاشوا في الدنيا يضحون ويبدلون؛ ولم ينالوا إلاَّ الإساءة والظلم، عاشوا في حياتهم مُضْطَهدين، وربَّما ماتوا شهداء،

(١) في خطبة (الرد على بابا الفاتيكان) في ٢٢ شعبان ١٤٢٧هـ الموافق: ١٥ سبتمبر ٢٠٠٦م. ورددنا عليه ردًا علميًا موثقًا في كتابنا: البابا والإسلام، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، فليراجع.

ماذا أخذوا إذن؟ أين مثوبتهم؟ أين العدالة؟ أين الحكمة؟! كانت الحكمة أن تكون هناك دار آخرة يُجزى النَّاس فيها بما عملوا، يأخذ المظلوم حقه، وينال الظالم عقوبته، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، هذا هو الباطل الذي يتنزه الله تعالى عنه.

عقائد الإسلام وقيمه وأخلاقه:

جاء مُحَمَّد ﷺ بهذه العقائد، وجاء بعبادات يعبد النَّاس بها ربهم، لا يعبدون أصنامًا لا تبصر ولا تسمع، ولا تعطي ولا تمنع، ولا تضر ولا تنفع، إنما يعبدون الله الذي خلقهم ورزقهم ودبر أمرهم.

جاء الإسلام بقيم أخلاقية، أن يبر النَّاس آباءهم وأمهاتهم، أن يصلوا أرحامهم، أن يحسنوا إلى جيرانهم، أن يحبوا لغيرهم ما يحبون لأنفسهم، وأن يكرهوا للنَّاس ما يكرهون لأنفسهم.

جاء مُحَمَّد ﷺ بمكارم الأخلاق، جاء بكل خير، كما قال أحدهم: لم يأت بشيء أمر به يقول العقل: ليته لم يأمر به. ولم يأت بشيء نهى عنه يقول العقل: ليته لم ينه عنه. بل كل ما جاء به موافق للعقل، موافق للفطرة، موافق للعدل، موافق للحكمة، هذا ما جاء به مُحَمَّد ﷺ.

العدل والمساواة:

جاء بالعدل بين النَّاس جميعًا، لا فرق بين غني وفقير، ولا بين مأمور وأمير، ولا بين صغير وكبير، النَّاس سواسية أمام أحكام الله، وأمام تكاليف الشرع، وأمام عقوبات الشرع. لم تُفرض الصلاة على طائفة وتُعفى منها طائفة، ولم تُفرض الزكاة على طائفة وتُعفى منها طائفة؛ كما

عند اليهود، بعض الطوائف تُعفى من الزكاة ومن الضرائب الدينية، لا، هذه فرائض على الناس جميعًا.

جاء مُحَمَّدٌ بالمساواة بين الناس كما نرى في هذه الصلاة، هل هناك صفوف للأسرة الحاكمة و صفوف لغيرها؟ هل هناك صفوف متقدمة للوزراء ووكلاء الوزراء ومديري العموم، والذين في الدرجات الدنيا يجلسون إلى الورا؟ يستطيع أي إنسان أن يجلس في الصف الأول إذا جاء مبكرًا، هذه هي المساواة التي جاء بها مُحَمَّدٌ ﷺ، جاء بالعدالة.

الرفق بالمستضعفين:

جاء بالرفق بالمستضعفين من الناس، الذين كانوا يداسون بالأقدام، وليس لهم حقوق تُرعى: العبيد، والنساء، والصغار الذين لم يكن لهم حق في الميراث، لا تُورث امرأة، ولا يُورث صغير؛ لأنهما لا يحملان السلاح، الذي يحمل السلاح ويدافع عن الحمى وعن حوزة القبيلة هو الذي يرث، أمّا الصغار ذكورًا أو إناثًا؛ فلا حقّ لهم في الميراث، والنساء لا حقّ لهنّ في الميراث، فجاء مُحَمَّدٌ برسالة تورث الجميع، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

الحرية والكرامة لبني الإنسان:

جاء مُحَمَّدٌ برسالة تقرّر العدل والمساواة والحرية والكرامة لبني الإنسان - كل بني الإنسان - بغضّ النظر عن لون جلودهم، وعن لون أعينهم: زرقاء أو خضراء أو سوداء، وعن طبيعة شعرهم: أجعد أم ناعم أو غير ذلك؛ بل الإنسان من حيث هو إنسان، بغضّ النظر عن لونه، عن

جنسه، عن أرضه، عن طبقته، جاء الإسلام يكرم هذا الإنسان. والرسالة التي جاء بها مُحَمَّدٌ ﷺ جاءت تعلن هذا على الناس.

وكان هذا شيئاً جديداً على العرب والعجم، الذين وزَّعوا الناس طبقات عليا ووسطى وسفلى، هكذا كان الأمر عند الهنود، وعند الفرس، وعند الرومان، وحتى عند العرب وإن لم يكن بالمعنى الحرفي عند هؤلاء، ولكن كان كبراء العرب لهم شأنهم، غير العبيد وغير المستضعفين.

مقاومة المشركين لمبادئ الإسلام:

جاء مُحَمَّدٌ بهذه الرسالة، فزلزلت كيان القوم، إنَّه يريد أن يغيِّر الحياة، يريد أن يكون بلال بن رباح مثل عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة وهؤلاء الناس؛ فوقفوا ضد هذه الدعوة، الدعوة إلى التوحيد، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والدعوة إلى العدالة والحرية، والكرامة والمساواة.

وقف القوم يحاربون محمداً ﷺ، هو يدعوهم بالكلمة الطيبة، بالمنطق الحكيم، بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلهم بالتي هي أحسن، لا بالتي هي أخشن، فرفعوا في وجهه سيف القوة، رفضوا دعوته، وعذبوا أصحابه ممَّن لا سند لهم ولا ظهر، ولا قبيلة تحميهم، فصبوا عليهم سياط العذاب صَبًّا، وصبر النبي ﷺ، وصبر الصحابة.

وفي وقت من الأوقات قاطعوهم، عقدوا معاهدة فيما بينهم: أن يقاطعوا محمداً وأصحابه، ومن انتصر له من أهله ولو كانوا مشركين، من بني الْمُطَّلِب وبني هاشم، يقاطعوهم مقاطعة اقتصادية، ومقاطعة اجتماعية، فلا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، ولا يُزوجونهم

ولا يتزوجون منهم، ثلاث سنين حوصروا في شُعبٍ يسمّى (شُعب أبي طالب)، أكلوا فيه أوراق الشجر حين لم يجدوا غيره؛ فدميت أفواههم من قسوة ما يأكلون، حتّى قال سعد بن أبي وقّاص: إنّهُ ذهب يبول مرّةً فارتطم بوله بجلدةٍ جافّةٍ فأخذها وغسلها وتركها حتّى جفّت ودقّها، قال: ثمّ سفتها في ثلاثة أيّام^(١).

قريش هي من رفعت السيف في وجه الإسلام:

من الذي رفع السيف في وجه الآخر؟ هل مُحَمَّد أم قريش والمشركون؟ لقد آذوا النبي ﷺ وأصحابه في مكّة ثلاثة عشر عامًا، كلها أذى، وكلها بلاء، وكلها جراحات، وكلها آلام، وكلها صاب وعلقم لرسول الله ﷺ ولأصحابه.

وبعد ثلاثة عشر عامًا أذن الله لرسوله ولأصحابه معه أن يهاجروا إلى يثرب التي سُمّيت المدينة، ليُكوّنوا لهم قاعدة صلبة، يقيموا عليها مجتمع الإسلام ودولة الإسلام، وفي هذه المرحلة أذن لهم بالجهاد، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿ [الحج: ٣٩ - ٤٠]، أذن الله لهم أن يدافعوا عن أنفسهم، ﴿لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ * يُقاتلهم الكفار، لا ينبغي أن يخافوا، ولا أن يهابوا من المرحلة المقبلة، بل يُقبلوا عليها متوكلين على الله، وإن كان عدوهم أقوى منهم بمراحل ومراحل.

الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق:

هؤلاء الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم، وليس هناك شيء أشقّ على الإنسان من أن يخرج من وطنه، وأن يخرج من بلده، وأن يخرج من

(١) الروض الأنف للسهيلى (٣/ ٢١٦ - ٢١٧).

مسقط رأسه، ومنبت نفسه، وملتقى ألفائه وأحبائه، أن يخرج مضطراً، وهؤلاء لم يخرجوا من أنفسهم، إنما أخرجوا إخراجاً من ديارهم بغير حق؛ إلا أن يقولوا: ربنا الله. لم يكن لهم ذنب إلا أنهم أعلنوها صريحة: ربنا الله. ليس هبل ولا مناة، ولا اللات ولا العزى، ولا هذه الأحجار، لا وثن ولا حجر، ولا شمس ولا قمر، ولا نبت ولا شجر، ولا جن ولا بشر، لا شيء غير الله وحده يستحق العبادة.

قانون التدافع:

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]. تشير هذه الآية إلى قانون من قوانين هذا الكون، ومن قوانين هذا الاجتماع البشري هو قانون التدافع، أن يدفع الناس بعضهم بعضاً، يحاول القوي أن يأكل الضعيف، يحاول الكبير أن يتلع الصغير، يحاول كل إنسان أن يفرض نفسه على الآخرين فيدفعه الآخرون، هذا قانون التدافع، لولا أن الله يهيئ أناساً يدافعون عن الحق لهلك الضعفاء، وذهب الفقراء تحت الأقدام، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فبفضل قانون التدافع هذا حُميت الأديان، وحُميت بيوت العبادة: الصوامع، والبيع، والمساجد، معابد اليهود، وكنائس النصارى، ومساجد المسلمين، حُميت كلها بواسطة قانون التدافع، لولا أن هناك من يقوم ليدافع عن الحق ويحمل سيفه لضاعت الأديان، وذهبت حرية التدئين، ووقف المسلحون الأقوياء من أهل العدوان يمنعون الآخرين من أن يصلوا في معابدهم، فكانت شرعية القتال في الإسلام دفاعاً عن حرية الأديان جميعاً، المسلم يدافع

عن حرية التدين، حرية أن يُعبد الله في الأرض كما يشاء الناس، لا يفرض الإسلام إكراهًا على أحد، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

المشركون أول من بدأ القتال:

كانت تلك أول آية شرعت القتال في الإسلام، ثم كانت الغزوات غزوة بعد غزوة، لم يبدأ المسلمون بغزو المشركين، هم الذين بدؤوا بغزو المسلمين، كانت أول غزوة هي غزوة بدر، ذهب المشركون من مكة إلى بدر قرب المدينة متحدّين للنبي ﷺ وأصحابه، يقولون: نحن هنا يا محمد. وقالها أبو جهل حينما علم أن العير التي جاء بها أبو سفيان قد نجت، كان النبي ﷺ قد خرج هو ومجموعة قليلة من أصحابه ليتعرّضوا لعير قريش، القافلة التجارية القادمة من الشام، يريدون أن يستولوا عليها؛ عوضًا عما استولى عليه المشركون من أموالهم ودورهم، وعقاراتهم وبساتينهم في مكة، يريدون أن يضربوهم ضربة اقتصادية، وللاقتصاد أهمية في الحروب، ومنه المقاطعة الاقتصادية، فكان لا بدّ للمسلمين أن يقفوا هذا الموقف، ولكن نجا أبو سفيان بقافلته، وقال لقريش: لم يعد هناك معنى لخروجكم، ارجعوا إلى بلدكم. فأبى أبو جهل وقال: لا بدّ أن نذهب إلى بدر، وننحر الجزور، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، ويسمع بنا العرب؛ فلا يزالون يهابوننا أبد الدهر. أراد عملية إعلامية لإرهاب الآخرين، وهذا تحدّد سافر للرسول ﷺ وللمجموعة الإسلامية، فلم يقبل النبي هذا التحدي، وأراد أن يلقاهم بالمجموعة الصغيرة التي خرج بها للقافلة، خرج للعير لا للنفير.

عدم تكافؤ المسلمين والمشركين في بدر:

وفعلًا كانت غزوة بدر التي سمّاها الله في كتابه ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، ثلاثمائة وثلاثة عشر شخصًا من المسلمين في مقابل حوالي ألف شخص من المشركين، خارجين مُجهّزين للحرب، أمّا المسلمون فخرجوا للقاء العير وهم يأملون أن يستولوا عليها بسهولة، ولم يكونوا مُجهّزين لحرب، لم يكن معهم إلا فرسين اثنين: فقط فرسان، والفارس كراكب الدبابة في عصرنا، وهم معهم مائة فارس.

والمسلمون معهم سبعون بغيرًا يتعاورون عليها، كل واحد يركب مرحلة من المراحل، وكان مع الرسول اثنان من الصحابة فأرادا أن يريحاها، فقالا: اركب يا رسول الله، نحن أشب منك ونقدر على المشي. فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»^(١). أمشي كما تمشون، كل واحد يأخذ نوبته!

بهذا الاستعداد الضئيل: بهذا العدد القليل، وبهذه العدد الضعيفة، بهذا الاستعداد الذي لم يتم ولم ينضج: قابل النبي ﷺ المشركين من قريش، ونصره الله عليهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. نصر الله القلة على الكثرة، ونصر الله الضعف على القوة، لأن الذي كان يدير المعركة من فوق سبع سماوات هو الله ﷻ، الذي يقول: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

(١) سبق تخريجه ص ١٩٩.

غزوة أحد والخندق في عقر دار المسلمين:

وبعد بدر جاءت غزوة أحد، كانت أحد غزوًا للمسلمين في عقر دارهم، أرادوا أن يأتوا إلى داخل المدينة، وكان الرأي الأول أن يبقى المسلمون داخل المدينة، ولكن شباب الأنصار قالوا: هذا عارٌ علينا أن يدخلوا علينا دارنا، نلقاهم في الخارج^(١).

وجاءت بعد ذلك غزوة الخندق، غزوة الأحزاب، قريش ومن حالف قريش من غطفان وغيرها من قبائل العرب، جاؤوا في عشرة آلاف غازٍ من الغزاة، جيش عرمرم أضعاف عدد المسلمين، ولكن الله نصر المسلمين أيضًا بجند من عنده، ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: ١٠، ١١].

هذه الغزوة التي أنزل الله فيها جنودًا لم يرها الناس كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]. هذه الغزوة يقول الله تعالى في ختامها: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وكفى الله المؤمنين القتال:

انظروا إلى هذه العبارة: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾. هل يقول هذه العبارة إنسان متعطش لدماء الآخرين، أم هو إنسان يريد السلام؟ إذا انتهت المعركة بغير قتال وبغير دماء يعلق الله فيقول: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾.

(١) سيرة ابن هشام (٢/٦٣، ٦٤).

الحمد لله، انتهت بغير دماء، وانتهت بغير قتال، لا من هنا ولا من هناك، هذا هو السلام الذي يريده مُحَمَّدٌ ﷺ.

اضطرار النبي للقتال:

لم يكن مُحَمَّدٌ ﷺ هو الذي رفع السيف في وجوه الآخرين؛ بل الآخرون هم الذين اضطروه أن يرفع السيف ويشهر السيف، ويعد العدة، ويقابل القوة بالقوة، هذا هو المنطق، ولذلك جاء قول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ أَنَّهُوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩١ - ١٩٤].

هل في هذا اعتداء؟ الذي يقول: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾، ﴿فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾، ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾، مع أنكم تقاتلونهم كما يقاتلونكم؛ لكن إياكم أن تعتدوا فتقتلوا امرأة، أو شيخاً كبيراً، أو صبياً صغيراً، أو أحداً لا يقاتل، فتفسدوا في الأرض، لا، بل إياكم أن تعتدوا؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ويقول: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]. وفي آية أخرى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. فهي من ناحية الكم أكبر، ومن ناحية كيف أشد، لماذا؟ لأن القتل اعتداء على الكيان المادي للإنسان: جسم الإنسان، والفتنة اضطهاد الإنسان في دينه، في عقيدته، اعتداء على

الكيان الروحي للإنسان، ولذلك كانت الفتنة أشد من القتل، والفتنة أكبر من القتل.

والقرآن يقول: ﴿ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ ﴾ [الأنفال: ٣٩]. حَتَّى لَا يُفْتَنَ أَحَدٌ فِي دِينِهِ، حَتَّى يَكُونَ النَّاسُ أحرارًا، ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، مَنْ أَجَلَ توفير الحرية للناس يقاتل المسلمون، ليؤمن من آمن عن بيّنة، ويكفر من كفر عن بيّنة، ويهلك من هلك عن بيّنة، ويحيى من حي عن بيّنة؛ فمن الذي يدعو إلى السلام؟ ومن الذي يدعو إلى الحرب؟

رفع السيف مواجهة للعدوان:

محمد ﷺ يدعو إلى الحرب حينما تقتضي الأسباب المُوجبة لذلك، حينما يُعتدى على المسلمين، حينما يُراد للإنسان أن يخرج من دينه الذي آمن به، ويُعذّب من أجل ذلك، كما فعل مع بلال وعمار، وياسر والد عمار وأم عمار، والكثير من المسلمين والمسلمات، الذين أوذوا في الله إيذاءً شديداً، وصبروا على ذلك صبراً جميلاً، ولم يتزحزحوا عن دينهم.

ولكن كان لا بدّ أن يأتي يوم يُرفع السيف في وجه هؤلاء الذي رفعوا السيف في وجه الإسلام المسالم، شرع الجهاد في الإسلام، وقاتل مُحَمَّدٌ ﷺ وأصحابه في سبع وعشرين غزوة، شهدها رسول الله ﷺ بنفسه مع أصحابه، منها الغزوات الكبار: بدر وأحد والخندق، وخيبر وفتح مكّة، والطائف وحنين وغيرها، وهناك غزوات ليست مشهورة مثل هذه، كما أرسل أصحابه في أكثر من خمسين سرية إلى القبائل والنواحي المختلفة.

لم يأتِ الإسلام إلينا غنيمة باردة:

المسلمون في عشر سنوات في المدينة - خصوصاً من السنة الثانية تسع سنوات - لم يبقَ بيت في المدينة إلّا وكان منه شهيد أو شهيدان، أو ثلاثة أو أربعة من الشهداء، هذا الإسلام لم يصل إلينا عفواً صفواً، ولكن بُذلت فيه الأرواح، وأريقَت فيه الدماء، وضُحِي فيه بكلِّ غالٍ ورخيص، لم يأتِ إلينا الإسلام غنيمة باردة، ولا بيضة مقشورة، وإنّما قاتل فيه المقاتلون، وعُذِّب فيه المُعَذَّبون، واضطُهد فيه المُضْطَهدون في سبيل الله، وكان لا بدّ للمسلمين أن يقاتلوا عن دينهم، وأن يعدوا لأعدائهم ما استطاعوا من قوّة كما أمر الله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولا زالت في الموضوع بقية نكملها في الأسبوع القادم إن شاء الله، نتحدّث عن مُحمَّد نبي الجهاد ونبي السلام، هو أعظم من دعا إلى السلام، وأعظم من تمسك بالجهاد دفاعاً عن سبيل الله والمستضعفين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم فاستغفروه؛ إنّهُ هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

قضية فلسطين:

لا زالت قضية غزّة حامية الوطيس، لا زالت إسرائيل تصول وتجول، وتعربد وتضرب هنا وهناك، لم تحترم ما أعلنته من وقف إطلاق النار، وقلمًا يحترم اليهود عهدًا أو ميثاقًا؛ منذ نقضوا ميثاق رسول الله ﷺ وعهده الذي واثقهم به، حينما ذهب إلى المدينة فجعل معهم معاهدة جعلتهم أمة مع المسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ولكنهم نقضوا هذا العهد، نقضوا هذه الاتفاقية، وكانت غزوة بني قينقاع وغزوة بني النضير، ثم غزوة بني قريظة الذين مالوا الأحزاب ونقضوا عهدهم، وانضموا إلى الأحزاب المغيرين على المدينة، على عكس ما تأمرهم به الاتفاقية وتناديهم به بصراحة: أن يؤدّوا المال وال السلاح والرجال إلى المسلمين إذا احتاجوا إلى ذلك، أمّا أن ينضموا إلى أعدائهم المغيرين عليهم؛ فهذا منتهى الخيانة والنكث بالعهود، فهذه سنة اليهود من قديم!

لم تفتح المعابر كما نادى الجميع هنا وهناك بضرورة فتحها، ولا بدّ من وقف العدوان والانسحاب، ولا بدّ من فكّ الحصار نهائيًا وفتح المعابر بصفة مستمرة، وأولها معبر رفح الذي هو معبر مصري فلسطيني، أي أنّه بأيدينا، ولكن الناس واقفون هناك على معبر رفح، لا يستطيعون أن يدخلوا بما معهم من مواد الإغاثة أو غيرها.

وأخيرًا استولى الصهاينة على سفينة الإخوة التي بعثها اللبنانيون، فتشوها ولم يجدوا فيها شيئًا، لكنهم لم يتركوها، أخذوها قرصنة منقطعة

النظير؛ بكلّ مقاييس القرصنة والعدوان، والتحدّي السافر للعالم، وللأمم المتحدة ولمجلس الأمن، وللأخلاق وللأديان، ولكلّ الأعراف والقوانين، كأنّما الدُّنيا لهم، البحور والمياه إقليمية وغير إقليمية أصبحت ملكًا لهم، استولوا على هذه السفينة، وأخذوا من فيها يحققون معهم، وما لهم عليهم سلطان، ولكن هكذا تريد إسرائيل أن تفرض نفسها.

ما دمنا مهيزي الجناح، ما دمنا منزوعي السلاح، ما دمنا مكشوفي السّاح، ما دمنا هكذا؛ فلا جريرة على إسرائيل ولا جناح: أن تفعل ما تفعل بنا، تعبت بنا وبمقدّساتنا وبمقدّراتنا، لأننا للأسف لم نقف وقفة رجل واحد، تفرقنا شذر مذر، تشرذمنا يمينًا ويسارًا، وأصبح هناك معتدلون، وهناك متطرفون، من هو المتطرف في نظرهم؟ الذي يدافع عن حُرّماته، الذي يدافع عن مقدّساته، الذي يذود عن حِمّاه، الذي يقول للظالم: قف عند حدك يا ظالم. الذي يؤازر المستضعف، أهذا متطرف؟ لقد ظلمت القيم، وزوّرت المفاهيم، وحُرّفت الكلم عن مواضعها!

إنّنا في غاية الأسف لما يحدث، والعرب لا زالوا حتّى الآن متفرقين، لم يقفوا وقفة رجل واحد مقابل هذا العدوان السافر، لم يقولوا كلمة واحدة، لم يقولوا: لا للعدوان، لا للتجبر والاستكبار في الأرض. هذا ما نريده من العرب ومن قادة العرب، ومن قادة المسلمين في أنحاء العالم.

إنّنا نُحيّي تركيا، ورئيس وزراء تركيا رجب الطيب أردوغان، الذي وقف وقفة الرجال، وانسحب من ملّتي دافوس، وقال: هذه آخر مرّة أحضر هذا الملتقى، انتهى دافوس بالنسبة لي. لأنّه أبى أن يسمع من يتحدّث عن إسرائيل، ويتكلم بيريز وهو منتفش ومنتفخ، ولم يجد من يرد عليه، يقول ما يقول ويسمع النّاس له ويصفقون له، ولا تزال غزة

محاصرة تعاني الجوع، وتعاني الحصار، هل نصفق له على العدوان؟
أبى الرجل أن يستمر في هذا الأمر، وانسحب من الملتقى، وكان من
واجب الأمين العام للجامعة العربية أن ينسحب معه.

هذا هو الموقف، أصبح العرب للأسف في موقف يرثى له، أصبحنا
نرثى لموقف العرب، ونبكي لموقف العرب، ونحزن على موقف العرب
إن كان الرثاء والبكاء والحزن يُغني فتيلًا.

نسأل الله ﷻ أن يردّ هذه الأمة إلى دينها ردًا جميلًا، اللهم اجمع
كلمة هذه على الهدى، وقلوبها على التقى، ونفوسها على المحبة،
ونياتها على الجهاد في سبيلك، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل،
اللهم أيدّ إخواننا المجاهدين في سبيلك في فلسطين، وفي العراق، وفي
أفغانستان، وفي كلّ مكان، اللهم شدّ أزرهم، وسدّد رميتهم، اللهم
احرسهم بعينك التي لا تنام، واكلاهم في كنفك الذي لا يُضام، اللهم
افتح لهم فتحًا مبينًا، واهدهم صراطًا مستقيمًا، وانصُرهم نصرًا عزيزًا،
وأتم عليهم نعمتك، وأنزل في قلوبهم سكينتك، وانشر عليهم فضلك
ورحمتك، اللهم عليك باليهود الغاصبين المعتدين، ومن حالفهم من
الصليبيين الحاقدين الكائدين، اللهم إنّنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك
من شرورهم، اللهم رُدّ عنا كيدهم، وفلّ حدّهم، وأدلّ دولتهم، وأذهب
عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلًا على أحد من عبادك المؤمنين،
اللهم يا منزل الكتاب، ويا مُجري السحاب، ويا سريع الحساب، ويا
هازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم،
ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا
للذين آمنوا؛ ربّنا إنّك رؤوفٌ رحيم.



مُحَمَّدٌ ﷺ رسول السلام والجهاد (٢) (١)

الخطبة الأولى

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

لا زال حديثنا موصولاً عن رسول الله ﷺ، نقتبس منه الهدى، ونأخذ منه الهدى، ونقتبس منه النور في حياتنا ولحياتنا، لديننا ودنيانا، لأولانا وآخرانا، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

تحدثنا في الخطبة الماضية عن رسول الله ﷺ، رسول الجهاد ورسول السلام، كيف يكون رسولاً للجهاد ورسولاً للسلام؟ كيف يجمع بين المتناقضين؟

حياة جهاد متواصل:

أَمَّا أَنَّهُ رسول للجهاد فهذا أمر لا شك فيه، ولا نزاع؛ فقد كانت حياته كلها جهاداً متواصلاً؛ منذ بدأ رسالته في مكة إلى أن توفاه الله تعالى في المدينة، ثلاث وعشرون سنة كلها جهاد، (لم يبلع فيها ريقه)، كل حياته

(١) أُلقيت في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة، بتاريخ ٢٠ فبراير ٢٠٠٩م.

جهاد متصل؛ منذ أنزل الله عليه: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِّثُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٧].

جهاد البلاغ والاحتمال في مكة:

كان جهاده في مكة جهاد التبليغ والإيصال وجهاد الصبر والاحتمال، كان يجاهد بتبليغ القرآن، يتلو عليهم آيات الله تعالى، ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

هكذا كان يتلو عليهم القرآن، يبلغهم القرآن، ويبلغهم بالقرآن، ويناقشهم في قضايا وجودهم، لماذا خلقوا؟ وهل خلقوا ليوحدوا أم ليشركوا؟ وفي قضايا آخرتهم، وفي قضايا الوحي والنبوة، يضلل آباءهم، ويسفّه أحلامهم، ويسب آلهتهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٤ - ١٩٥]، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، القرآن يناقشهم في كل قضاياهم، في هذه الآلهة التي يعبدونها، ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

ويناقشهم في قضية الآخرة، هل معقول أن تنتهي هذه الدنيا وقد ظلم فيها الظالمون، وطغى فيها الطاغون، وتجبر فيها المتجبرون، ثم تنفض هذه السوق ولم يأخذ الظالم عقوبته، ولم ينل الخير مثوبته؟ هذا هو الباطل الذي يتنزه الله تعالى عنه، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ *﴾ [ص: ٢٧، ٢٨]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ *﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

يستبعدون أن يحيا الإنسان بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ *﴾ [يس: ٧٨ - ٨١]. هكذا يناقشهم في هذه القضايا.

ويناقشهم في قضايا النبوة، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا *﴾ [يونس: ٢]، أمثل هذا يُعجب منه أم هذا هو مقتضى الحكمة؟ أيخلق الله الناس ثم يتركهم فلا يهديهم سبيلاً، ولا يُعرفهم طريقه؟

إيقاظ العقول وتزكية النفوس:

كان القرآن في هذه المدة هو الرسالة التي توقظ العقول بالمناقشات، بالحوار الدائم، سمى الله هذا (جهاداً كبيراً)، يقول: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا *﴾ [الفرقان: ٥٢]. أي: جاهدكم بالقرآن، كان المشركون يتسللون خفية، يختفي بعضهم من بعض

ليسمعوا القرآن، ويخافون على صبيانهم ونسائهم أن يسمعوا القرآن فيشوشون عليه، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، كان هذا نوعاً من الجهاد في مكة.

جهاد الصبر والمصابرة:

ونوع آخر هو جهاد الصبر والمصابرة، الصبر على الأذى، الصبر على العذاب، احتمال ما يلقي به المشركون المستضعفين من المؤمنين، كان من المؤمنين رجال لهم عصبية من القبائل تحميهم، وبعضهم ليس له عصبية، ليس من قريش، ليس من أهل مكة، مثل عمار بن ياسر كان غريباً عن أهل مكة، أو لأنه من العبيد مثل بلال بن رباح.

أوذى بلال، وأوذى عمار، وأبو عمار، وأم عمار، ومروءة عليهم النبي ﷺ وهم يُعذَّبون، فلم يملك أن يصنع لهم شيئاً، وقال لهم: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»^(١). ومات أبو عمار تحت العذاب، ومات أم عمار تحت العذاب، واضطر عمار أن يقول كلمة الكفر ليخرج بها من تحت نير العذاب، وجاء إلى النبي يبكي وينتفض، ونزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

جاء خباب بن الأرت إلى النبي ﷺ وهو متوسد رداءه في ظل الكعبة يشكو إليه من شدة ما لقي من المشركين، ويقول: يا رسول الله، ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ لماذا لا تدعو ربك أن ينزل بهؤلاء القوم العذاب العاجل لينقذنا منهم، فجلس النبي ﷺ وهو مُحَمَّرٌ وجهه وقال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار؛

(١) سبق تخريجه ص ٥٥.

فيُوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر، حتَّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلاَّ الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١). اصبروا، المستقبل لكم، الغد لهذا الإسلام.

كان جهاد النبي وأصحابه في مكَّة جهاد صبر ومصابرة. والمصابرة: أن تغلب عدوك في الصبر، لأنَّ عدوك يصبر على باطله، فأولى بك أن تصبر على حقك، المشركون يصبرون على آلهتهم، ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، يتواصوا بهذا، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، يسخرون من مُحَمَّد ﷺ، ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبْرَنَا عَلَيْنَا﴾ [الفرقان: ٤٢]، فهم يصبرون على الشرك وعلى الآلهة وعلى الأصنام التي لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، فكيف لا يصبر أهل الحق على حقهم؟ لا بدَّ أن يصابروا، أن يغالبوهم في الصبر، أن يكونوا أرسخ منهم وأقوى منهم صبرًا.

كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة:

كان هذا جهاد النبي ﷺ وجهاد أصحابه في ثلاث عشرة سنة بمكة، حتَّى أذن الله له بالهجرة، وكان الصحابة يأتون إلى النبي ﷺ ما بين مضروب ومكسور ومجروح، ويقولون: يا رسول الله، ائذن لنا أن نقاتل، أن ندافع عن أنفسنا، فيقول لهم: «لم يؤذن لي بعد، كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة»^(٢). ولم

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢)، عن خباب بن الأرت.

(٢) سبق تخريجه ص ١٩٨.

يكن من الحكمة أن يقاتلوا وهم في فجر دعوتهم، يحتاجون إلى أن يكونوا الجيل الأول بهدوء وحكمة وأناة، ما كان من الحكمة أن يخرجوا في كتيبة فدائية تُكسر الأصنام: ثلاثمائة وستون صنماً حول الكعبة، ثم تكون النتيجة أن يجتمع أهل مكة عليهم وهم قلة قليلة، لن يستطيعوا الثبات أمامهم، وبعد ذلك يصنع المشركون آلهة جديدة غير الآلهة التي حطمت، فما الإله عندهم إلا حجراً ينحته أحدهم، ما أسير الأمر عليهم، ما أكثر النحاتين عندهم، فلم يكن من الحكمة أن يكسروا أصنامهم، حتى أذن الله لهم بالهجرة.

الإذن بالقتال لدفع الظلم والعدوان:

وبعد الهجرة جاء الإذن الأول في القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمِعُ وَبِيعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿[الحج: ٣٩، ٤٠]. جاء الإذن بالقتال لهؤلاء المظلومين، ما آذوا أحداً، ما ظلموا أحداً، ما فعلوا شراً، إلا أنهم قالوا: ربنا الله، ربنا الله الذي خلقنا، وخلق من قبلنا، وخلق السماوات والأرض، ودبر كل أمر، ورزق كل حيٍّ. أمّن يقول: ربنا الله. يؤذى ويُعذَّب، ومن يقول: ربنا الحجر. يُترك ليتماذى في شره وغلوائه؟

قانون التدافع:

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت كل بيوت العبادة، هناك سنة كونية أو قانون كوني يسمى (قانون التدافع)، أن الله يدفع الناس بعضهم ببعض، هذا القانون هو الحياة في الأرض، والعمران في الأرض،

وإلا لترك الأمر للأقوياء يأكلون الضعفاء، لا، بل لا بد أن يبعث الله من يدافع عن المضطهدين والمستضعفين والمظلومين، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

هكذا جاء في الإذن الأول: الصوامع والبيع؛ كأن المسلمين حينما كانوا يقاتلون: يدافعون عن حق الأديان كلها في الوجود، يدافعون عن صومعة الراهب، وعن بيعة اليهودي أو النصراني، عن الكنيسة وعن المسجد، يريدون لحرية الدين أن تتوطن في الأرض، ألا يضطهد أحد في دينه، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. أي حتى لا يفتن أحد في دينه، حتى لا يُصبَّ عليه سياط التعذيب ليكره على تغيير دينه، معناه أنه ليست هناك حرية، فالإسلام يقاتل من أجل حرية المتدين في البقاء على دينه، ولم يُكره الإسلام أحداً قط على أن يترك دينه ويدخل في الإسلام، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ولماذا يكون إكراه في الدين والرشد والغبي واضحان؟

الإسلام يقاتل من أجل تحقيق السلام والحرية:

ليس في الإسلام إكراه قط، إنما الجاهلية هي التي أرادت أن تُكره المسلمين حتى يخرجوا من هذا الدين الجديد، أمر الإسلام بالقتال حتى لا تكون فتنة، وتكرر هذا في القرآن مرتين: في سورة البقرة، وفي سورة الأنفال: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. من أسلم أسلم لله: لا كرهاً، ولا اتباعاً لأحد، ولا نزولاً على رغبة مخلوق؛ بل لله وحده.

القرآن يقول: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]. وفي آية أخرى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. فهي أكبر من ناحية الكم، وأشد من ناحية کیف، لماذا؟ لأن القتل اعتداء على جسم الإنسان، على الكيان المادي للإنسان، ولكن الفتنة اعتداء على ضمير الإنسان، على الكيان الروحي والمعنوي للإنسان، وحقيقة الإنسان هي هذا الكيان الروحي والمعنوي، ولذلك اعتبرها القرآن أكبر من القتل، وأشد من القتل.

الإسلام إذن يقاتل من أجل السلام، ومن أجل الحرية، هكذا كان مُحَمَّدٌ ﷺ، إذا قاتل فإنما يقاتل ليقرّر السلام في الأرض، الجهاد وسيلة والسلام غاية، يريد أن يقرّر السلام في الأرض، ويقرّر الحرية للناس في الأرض حتّى يختاروا لأنفسهم، فالأمر أمر مصير، قضية الدين هذه هي قضية الوجود، قضية المصير، الإنسان في بعض الأمور الدنيوية يقول: هذه قضية مصيرية. وكم يمكن أن يعيش في الدنيا؟ المجتمع كله والدنيا كلها متاع قليل، إنّ القضية المصيرية الحقّة هي قضية الإيمان والكفر، قضية الجنة والنار، أتخلد في الجنة أم تخلص في النار؟ حق وباطل، فهذه القضية يجب أن تترك للناس.

القتال غير محبب للنفوس:

من أجل ذلك قاتل مُحَمَّدٌ ﷺ، فحينما يضطر إلى القتال يقاتل، كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ظل ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالجدال بالتي هي أحسن، لم يرفع سيفاً، ولم يحمل رُمحاً، ولم يقاتل أحداً، هو الذي كان يُقاتل، ولكن إذا طفق الكيل وطغى السيل؛ فلا بد من وقفة

أمام الباطل، حتّى لا يتجبر الباطل! لا بدّ من إعداد القوّة لمقابلة المبطلين المتجبرين، المستكبرين في الأرض بغير الحق.

ومن هنا بدأ النبي ﷺ منذ هاجر إلى المدينة يعدّ القوّة البشريّة، يعدّ جيشاً قادراً على الدفاع عن هذه الأرض الجديدة، التي أصبحت أرض الإسلام، وأصبحت دار الإسلام، أقام الإسلام مجتمعاً مسلماً، ودولة مسلمة، لأول مرّة يخاطب القرآن هذا المجتمع بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. لم ينزل القرآن بهذه الصيغة إلّا في مجتمع المدينة، لأنّه أصبح هناك جماعة مؤمنة: لها قوّة، ولها أرض، ولها حدود تدافع عنها.

معاهدة المدينة مع اليهود:

وعندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة لكي يظهر حسن نيّته، وأنّه لا يريد بأحد شرّاً، وقد كان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قُرَيْظَة، فحالفهم النبي ﷺ، وعقد معهم اتفاقية معاهدة؛ ليكونوا مع المسلمين في سلمهم وحربهم، مع الرسول وأصحابه، فهم جميعاً سكان المدينة، ولا بدّ أن يكونوا متعاونين في السلم والحرب، في السراء والضراء، فهي معاهدة تكافلية تضامنية: في أوقات السلم، وفي أوقات الحرب، وفي أوقات الشدة، وفي أوقات الرخاء، هكذا فعل النبي ﷺ، المعاهدة التي سميت الصحيفة التاريخية، التي يعتبرها كثير من النّاس بمثابة دستور مكتوب لأهل المدينة، لعله أوّل دستور مكتوب يحدد العلاقة بين النبي ﷺ وبينهم، وبين المؤمنين بعضهم وبعض، ولكن اليهود هم الذين غدروا، وهم الذين نقضوا هذه العهود قبيلة بعد قبيلة، حتّى خان بنو قُرَيْظَة النبي في أخرج الأوقات.

نقد اليهود للمعاهدة:

حينما جاءت قريش وغطفان والقبائل؛ لغزو النبي ﷺ والمؤمنين في عقر دارهم، في غزوة الأحزاب، والمسلمون يحتاجون إلى نصره اليهود بسلاحهم ورجالهم، فإذا بهم يعلنون نقض العهد، قالوا: هذه فرصة لن نتكرر؛ لنقضي على مُحَمَّد وأصحابه.

كان النبي ﷺ يريد السلام، ما كان يريد الحرب، السلام عنده غاية، والحرب عنده ضرورة، إذا اقتضت الضرورة حارب، وهكذا علم أصحابه، قال لهم: «لا تتمنّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»^(١). فهو يعلمهم ألا يتمنّوا الحرب، ولا يتمنّوا أن يلقوا العدو، وإذا عوفيتهم من الحرب فهي نعمة، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فإذا اضطررتم إلى لقاء الأعداء فكونوا رجالاً، كونوا أبطالاً، اثبتوا واصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف.

كراهية كلمة (حرب):

لم يكن النبي ﷺ يحبُّ الحرب، حتّى كلمة (الحرب) مكروهة عنده ﷺ، يقول: «أحبُّ الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها: حارث وهمّام»، حارث: أي عامل، يكسب ويشغل. والهمّام: المريد الذي يهتم بالشئ ويريده، وكل إنسان حارث وهمّام، «وأقبح الأسماء: حرب ومرة»^(٢). الأسماء التي فيها خشونة، فبدل أن يكون الاسم حرباً اجعله

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٢٤)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد والسير، عن عبد الله بن أبي أوفى.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٢٧.

سلامًا، كان اسم أحدهم حزن؛ فسَمَّاه سهلاً^(١)، وإحداهن اسمها عاصية؛ فسماها جميلة^(٢)، وهكذا، فما كان يحب التسمي بحرب، كان العرب قديمًا يتخذون اسم (حرب)، مثل أبي سفيان بن حرب، وحينما ولد لسيدنا علي ابنه الحسن جاء به إلى النبي ﷺ، فقبله وحنَّكه وسأل عليًا: «ماذا سمَّيته؟». قال: سمَّيته حربًا. فقال له: «بل سمَّه حسنًا». ونفس الشيء حينما ولد له الحسين، سأله: «ماذا سمَّيته؟». قال: سمَّيته حربًا. فقال له: «بل سمَّه حسينًا». وآخر «سمَّه محسنًا»^(٣). قال سيّدنا علي: كنت أريد أن أُكَنِّي بأبي حرب^(٤). لأنَّه كان فارس الإسلام، وكان محبًّا للجهاد.

ولكن كلمة حرب من المفردات الكريهة في المعجم الإسلامي، في قاموس مُحَمَّد ﷺ، فلم يكن محبًّا للحرب ولا متعطشًا للدماء كما يقول الأفاكون من المبشرين والمستشرقين أعداء الإسلام: إن محمّدًا رجل متعطش للدماء قتالًا، لا والله ما كان متعطشًا للدماء، وإنَّما كان يحب السلام، ودينه دين السلام، حتَّى كلمة السلام وإسلام من مادة لغوية واحدة، هي مادة (سلم).

الإسلام دين السلام:

وتحية المسلمين في الدُّنيا والآخرة السلام، المسلم يلقي المسلم في الدُّنيا فيقول: السلام عليكم. وفي الآخرة: ﴿نَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١٩٠)، عن حزن بن أبي وهب.

(٢) رواه مسلم في الآداب (٢١٣٩)، وأحمد (٤٦٨٢)، عن ابن عمر.

(٣) رواه أحمد (٧٦٩)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٦٩٥٨)، والحاكم في معرفة الصحابة (١٦٥/٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه أبو داود الطيالسي (١٣١)، والبزار (٧٤٣)، والطبراني (٩٧/٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٨٧٠): رواه البزار والطبراني بنحوه بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح.

كلام أهل الجنة سلام في سلام، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿[الواقعة: ٢٥، ٢٦]، والملائكة تدخل عليهم فتقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]. والله تعالى من أسمائه (السلام)، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ولذلك شاع عند المسلمين اسم (عبد السلام)، لعله لا يوجد في أمة من الأمم من يُسمَّى (عبد السلام) إِلَّا المسلمين. والجنة اسمها (دار السلام)، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، والله تعالى يدعو المؤمنين إلى السلام: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

سلام الأقوياء لا الجبناء:

ولكن النبي ﷺ يريد السلام من طريق القوة، لا يريد سلام الضعفاء، سلام المُستخْذِينَ، سلام المُستسلمين، كالسلام الذي تريد أن تفرضه علينا إسرائيل وعلى الفلسطينيين، هذا ليس سلامًا، هذا هو الذي نهى الله عنه حينما قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. السلام الذي يأتي عن طريق الوهن وطريق الاستخذاء هذا ليس سلامًا، إنما نريد السلام الذي يأتي عن طريق القوة، وقد أشار القرآن إلى ذلك حينما قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. أعدوا كل ما تستطيعون من قوَّة.

السلام المسلح!

منذ أيام سألني أحد الإخوة: هل يجوز لنا أن نمتلك أسلحة الدمار الشامل؛ كالأسلحة النووية، والأسلحة الكيماوية، والأسلحة الجرثومية؟ قلت له: نعم نمتلكها، ولكن لا نستخدمها، نملكها لنرهب بها عدو الله،

﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، تخوَّفونهم، إذا ملكنا الأسلحة النووية خافوا أن يعتدوا علينا، كما رأينا بين الاتحاد السوفيتي والأمريكان، وبين الهند وباكستان، ما يسمَّى (السلام المُسلَّح).

علينا أن نمتلك القوة، ورباط الخيل في عصرنا هي الدبابات والمصفحات والمجنزرات والغواصات، هذه هي خيل عصرنا، لا يكفي أن نعد الخيل لنقابل بها الدبابة؛ فما عاد هذا يكفي، يمكن للخيل أن تستعمل في بعض المهام، إنما لا بدَّ أن نعد لكل عصر عدته لنرهب عدوَّ الله، لا نريد أن نعتدي على أحد، ولكن نُخوِّف أعداءنا حتَّى لا يطمعوا في الاعتداء علينا.

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها:

وبعد أن قال الله هذا قال في الآية التالية مباشرة: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ * وإن يُريدوا أن يخذعوك فإتبَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴿[الأنفال: ٦١، ٦٢]. قدَّم حسن الظن على سوء الظن، تأمل إلى أي حد الإسلام متسامح في هذه النواحي، لا يريد شرًّا بأحد، يريد أن يفتح صدره للناس، إن مالوا للسلم فمل إليه، وإن أرادوا أن يخذعوك فلا تخف؛ الله معك، ﴿فإتبَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ولكن هل جنح اليهود للسلم؟ بعض النَّاس اتَّخذوا هذه الآية حجة في الاتفاق مع اليهود، ولكن اليهود لم يجنحوا للسلم أبدًا، كيف يجنح للسلم من أخذ أرضي؟ إن قبل أن يجنح للسلم، فعليه أن يرجع لي أرضي، أمَّا أن يحتل أرضي، ويأخذ حقِّي، ويغتصب حرماتي، ويفعل ما يفعل، ويقول: أنا جانح للسلم! كيف يجنح للسلم من يحتل بيتي،

ويأخذ ممتلكاتي، ويترك لي جزءاً في بئر السلم، ويقول لي: تعال أصالحك؟ هذا غير معقول، فما جنح اليهود للسلم أبداً.

وقد رأينا عدوان اليهود أخيراً في غزة، هل هؤلاء جانحون للسلم؟ الذين فعلوا ما فعلوا في غزة، الذين قتلوا الشيوخ والأطفال والنساء، والكبار والصغار، والمدنيين والعزل من السلاح، وهدموا البيوت على أهلها، واستخدموا الأسلحة المحرمة دولياً، وأسلحة جديدة أمدتهم بها أمريكا لم تستخدم من قبل قط، هل الذين فعلوا ذلك جانحون للسلم؟

جاء وفد أمريكي يزور غزة هذه الأيام يقول: إن ما رأيناه من آثار الدمار والتخريب والقتل في غزة مذهل. الأمريكيان ذهبا من شدة ما رأوا من غلو في التخريب والتدمير، الذي فعله اليهود في غزة؛ أيكون هؤلاء جانحين للسلم؟

يعتبر الإسلام الصلح وحقن الدماء فتحاً:

إنَّ الإسلام إذا جنح أعداؤه للسلم جنح لهم، وتوكل على الله، لكن بشرط أن يكون جنوحاً حقيقياً، حينما أظهر أهل مكة من المشركين جنوحاً للسلم في غزوة الحديبية، جنح الرسول لهم، وعقد معهم صلح الحديبية؛ على ما كان فيه من شروط في ظاهرها إجحاف بالمسلمين، حتَّى قال بعض الصحابة: أنعطي الدنيَّة في ديننا يا رسول الله؟ ولكن رسول الله كان أبعد منهم نظراً، وقبل هذه الشروط، وسمَّى الله ذلك فتحاً، ونزلت في ذلك سورة الفتح، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، هو فتح، وفتح مبين، وبعض الصحابة قالوا: يا رسول الله، أفتح هو؟ قال: «نعم هو فتح»^(١). لم يتصوروا

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الجزية (٣١٨٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٥)، عن سهل بن حنيف.

فتحًا بغير حرب، أنعمل معاهدة صلح ونسمّيها فتحًا؟! يتصورون الفتح فقط بالجيوش، نعم هو فتح سلمي، والإسلام يقر الفتح بالسلم.

إعداد العدة إذا فرضت الحرب:

هذا هو مُحَمَّدٌ ﷺ، هو رسول الجهاد، ورسول الحرب، إذا فرضت الحرب عليه كان بطلاً، وكان نعم القائد، وكان في مقدمة الجيش، يقول علي بن أبي طالب فارس الإسلام: كنا إذا اشتدت الحرب، وحمي الوطيس، اتقينا برسول الله (أي: احتمينا به) فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه^(١).

كان يعدُّ العدة، ويتَّخذ العيون والطلائع: المخابرات يرسلها إلى أماكن الأعداء ليعرف أخبارهم، ويعرف موضع قوته، وموضع ضعفهم، ويتحصَّن بما يتيسَّر له من الحصون كما فعل في غزوة الأحزاب من حفر الخندق، الذي رآه مشركو قريش ومن معهم فقالوا: هذه مكيدة ما كانت لتفعلها العرب. العرب يعرفون أسلوب الهجوم المباشر، لا يعرفون أسلوب الحفر ولا الحصون، كانت مكيدة جديدة أشار بها سلمان الفارسي، فأخذ بها النبي ﷺ، وشارك فيها بنفسه، وإلا كانت المدينة تستباح أمام عشرة آلاف مقاتل، فيهم الأبطال والفرسان.

حُسن تدبير المعركة:

كان النبي ﷺ قائدًا يحسن التدبير في المعركة، يضع من يصلح في الميمنة فيها، ومن يصلح في الميسرة فيها، والساقة والمقدمة والمؤخرة والقلب، ويستخدم النزعة القبليّة، أنتم يا معشر الأوس هنا، وأنتم يا معشر الخزرج هنا، وأنتم يا بني خزاعة هنا. يستخدم العصبية القبلية

(١) سبق تخريجه ص ١٨٧.

أحياناً مع العصبية الإسلامية، كل ما يمكن أن يُستثار في الإنسان يُستخدم في المعركة، حتّى المرأة لها موقعها، كانت رفيدة رضي الله عنها تشتغل ممرضة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، والسيدة عائشة وأم سلمة وغيرهما من نساء النبي ونساء الصحابة يملأن القرب، ويسقين العطشى، ويحملن الجرحى، ويضمدن الجراح، كل واحد له دوره.

الحرب الأخلاقية:

ولعلنا نأتي في خطبة أخرى نتحدّث عن قيادة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم للحرب، وهي حرب أخلاقيّة، حرب لا تُنتهك فيها حرمة، لا يُقتل فيها إنسان لا شأن له بالقتال، لا تقتل امرأة، ولا يقتل وليد، ولا يقتل شيخ كبير.

أخلاقيّات الحرب في الإسلام تحتاج إلى خطبة خاصّة نبين فيها كيف كان مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم، كما وصفه ربه، حتّى في حالة حربه مع أعدائه، وهم يعتدون عليه، هم الذين جاؤوا من بلادهم ليغزوه في عقر داره، ومع هذا استخدم معهم العنصر الأخلاقي.

كان مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم رسول الجهاد، ورسول السلام، وعندما يكون رسول الجهاد يكون المجاهد الأوّل، وعندما يكون رسول السلام يكون المسالم الأوّل، كل شيء في موضعه، السلام حينما يجب السلام، والحرب حينما تجب الحرب. صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله. وكما قال المتنبي: ووضع الندي في موضع السيف بالعلّا مضرّ كوضع السيف في موضع الندي^(١) أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه؛ إنّهُ هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

(١) ديوان المتنبي ص ٣٧٢.

الخطبة الثانية

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

المصالحة في قطر بين أهل دارفور:

في الأسبوع المنصرم جرى أمر كبير في الدوحة عاصمة قطر، يُحسب في ميزان أمير قطر ودولة قطر والمسؤولين في قطر، هو الخطوة الأولى في الصلح بين الإخوة السودانيين، الإخوة أهل دارفور.

ودارفور بلد القرآن، هي التي علّمت السودان كله القرآن، بل علّمت أكثر إفريقيا القرآن، صحيح أهلها دارفوريين، ولكن القرآن عربهم، ألا إنَّ العربيّة من أحدكم ليست بأب ولا أم، ولكن العربيّة اللسان، فمن تكلم العربيّة، فهو عربيّ، وهؤلاء يتكلمون العربيّة، ويُعلّمون العربيّة، ويحفظون القرآن، ويُعلّمون القرآن، فكيف لا يكونون عربًا؟ لماذا تُنظر إلى الأصول والعروق؟ الاستعراب أصل، قریش وقبائل الشمال كلها تسمّى العرب المستعربة، أي لم يكونوا عربوا، استعربوا فأصبحوا عربًا، وأصبحوا هم ذؤابة العرب وقمّة العرب، ومنهم بُعث النبي العربي مُحَمَّد ﷺ، فهؤلاء الدارفوريون عرب في الحقيقة.

ولكن هناك فتن ومؤامرات ومكايد تدخل فيها جهات شتى، تريد أن تؤلّب الإخوة بعضهم على بعض، وتستغل أشياء معيّنة حتّى تقوم الحرب، ويقتل الإخوة، ويقتل بعضهم بعضًا، وهذه مصيبة حدّثنا منها النبي ﷺ، وقال: «لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

ولكن للأسف قامت الحرب في دارفور بين العرب والإفريقيين، وما كان ينبغي لها أن تقوم، وحدث ما حدث، واستغلها الغرب، ونفخ فيها لتزداد اشتعالًا، وتزداد اتصالًا ودوامًا.

وأخيرًا انتهى الإخوة إلى قطر، وقامت قطر بدور مأجور عند الله، ومشكور عند الناس، في التقريب بين الإخوة، وفي الإصلاح بين الإخوة بعضهم وبعض، خصوصًا الإخوة الذين لا يزالون متمسكين بالوطنية والإسلام، هناك من باع نفسه لإسرائيل؛ فليذهب إلى الجحيم، أمّا من بقي على دينه وعلى وطنيته وعلى عروبه وعلى إسلامه؛ فهؤلاء هم الجديرون بأن نصلح بينهم.

لقد قامت قطر بدور عظيم يُكتب لها كما كُتب لها دورها في الإصلاح بين الإخوة في لبنان، وكما نرجو أن يُكتب لها وهي الآن تقوم بدور في الإصلاح بين الإخوة في فلسطين، نرجو أن تتم دورها في هذا الإصلاح بين هؤلاء الإخوة، فما يجوز لهم أن يتقاتلوا والعدو محيط بهم عن أيّمانهم وعن شمائلهم، ومن بين أيديهم ومن خلفهم، ومن تحتهم، كيف يتقاتلون وكيف يتخاصمون.

وأمام قطر دور آخر ينتظرهم من الإخوة في الصومال، نرجو أن يقوموا به كما قاموا بغيره، وهم أهل لهذا إن شاء الله، النبي ﷺ قال لأصحابه: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ. وَالْبَغْضَاءُ: هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلُقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلُقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَوْمِنُوا، وَلَا تَوْمِنُوا حَتَّى تَحَابُوا، أَفَلَا أَنْبَأَكُمْ بِمَا يَثْبُتُ ذَلِكَ لَكُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(١). إذا كان هذا إصلاحًا بين

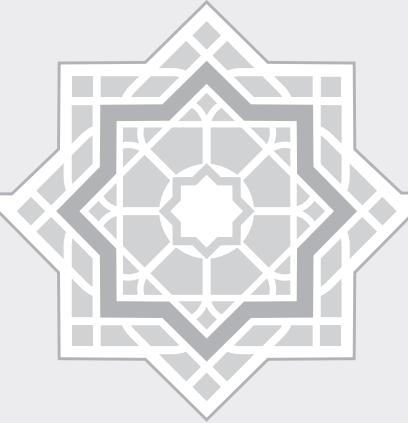
(١) سبق تخريجه ص ٣١١.

فردين أو بين أسرتين، فما بالك بالإصلاح بين قبيلين من قبائل الأمة،
أمة يقتتل بعضها مع بعض؛ فمن يصلح بينهم له عند الله ثواب عظيم،
﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ
النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

اللهم أكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا
ولا تُؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، اللهم كُنْ لنا ولا تكن علينا، وأعنا
ولا تُعن علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا،
واهدنا ويسر الهدى إلينا، وانصرنا على من بغى علينا، اللهم اجمع كلمة
أمتنا على الهدى، وقلوبها على التّقى، ونفوسها على المحبة، وعزائمهما
على عمل الخير وخير العمل، اللهم انصرها على أعدائها وأعدائنا، اللهم
انصرنا نصرًا عزيزًا، وافتح لنا فتحًا مبيّنًا، اللهم افتح لإخواننا المجاهدين
فتحًا مبيّنًا، واهدهم صراطًا مستقيمًا، وانصرهم نصرًا عزيزًا، وأتمّ عليهم
نعمتك، وأنزل في قلوبهم سكينتك، وانشر عليهم فضلك ورحمتك،
اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم عليك باليهود الغاصبين
المستكبرين الظالمين، اللهم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر،
اللهم أنزل عليهم بأسك الذي لا يردُّ عن القوم المجرمين، اللهم لا تدع
لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين، اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا
في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، اللهم لا تهلكننا
بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا مَنْ لا يخافك ولا يرحمنا،
وارفع مقتك وغضبك عنا، واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً سخاء رخاءً
وسائر بلاد المسلمين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان،
ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا؛ ربنا إِنَّكَ رؤوف رحيم.

نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.







فهرس الآيات القرآنية الكريمة



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٦، ٥	٧٥
﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾	٧	٧٥
سورة البقرة		
﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾	٨	١٩٠، ١٩٦
﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾	٩	١٩٠، ١٩٦
﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾	١٠	١٩٠
﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾	٨٧	٤٩
﴿أَوْ كَلَّمَا عَلَيْهِمْ عَاهِدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	١٠٠	٤٩، ١٢٣
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِي﴾	١١١	٣٩
﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾	١١٢	٣٩
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾	١٢٩	٢٩٤
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾	١٤٠	١٥٣

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾	١٤٣	٣٠٦، ٨٨
﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾	١٥٣	٢٧٢
﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾	١٥٦	٢٨٧
﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾	١٥٧	٢٨٧
﴿ وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾	١٩٠	٣٤٢
﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُموهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾	١٩٤ - ١٩١	٣٥٥، ٣٥٤، ٣٤٢
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾	٢٠٦	٣٢٥
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾	٢٠٧	٦١، ٤
﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴾	٢٠٨	٣٥٩
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾	٢١٤	١٢٥
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ ﴾	٢١٦	٣٥٥، ١٤٤، ١١٢
﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾	٢١٧	٣٥٥، ٣٤٢
﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾	٢٥١	٣٥٤، ٣٣٨
﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾	٢٥٥	٣٠٠
﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾	٢٥٦	١٥٨، ٣٣٩، ٣٥٤، ٣٤٣
﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾	٢٦٨	٢٠
﴿ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾	٢٨٢	١٥٣
﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾	٢٨٣	١٥٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة آل عمران		
﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾	٣١	١٩
﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾	٣٢	١٩
﴿ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾	٦٤	١٩٧، ٦٣، ٣٠
﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾	١١٠	٤١
﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾	١٢٣	٣٤٠، ٧٩، ٩٢
﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾	١٣٧ - ١٣٩	١٠٢
﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾	١٣٩	٢٣٣
﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾	١٤٠	١٠٢، ٨٨، ٢٠٨، ٢٠٧
﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾	١٤١	٢٠٨، ١٠٢، ٨٨
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾	١٤٢	٢٠٨، ١٠٣، ٨٨
﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾	١٤٤	٢٠٩، ٢٠٨، ٨٨
﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا ﴾	١٤٦	١٠٤
﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾	١٤٧	١٠٤، ٧٧
﴿ فَجَاءَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾	١٤٨	١٠٤
﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾	١٥٢	٩٥، ٨٧، ٤، ٢٠٦، ١٠٣، ٩٩
﴿ فَأَثْبِكُمْ غَمًّا نَغَمٍ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾	١٥٣	١٠٢
﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾	١٥٤	٢٠٧، ١٠٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾	١٥٥	٨٣
﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾	١٥٩	٩٤، ١١٧، ٢٢٩، ٢٣٩، ٢٨٠
﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾	١٦٠	١٢٧، ٨٨
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾	١٦٤	٢٧٨، ٢٤٠
﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾	١٦٥	١٠٣، ٨٧
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾	١٦٩	١٠٢
﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾	١٧٠	١٠٢
﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾	١٧٢	٢١٥، ١٢٨، ١٠٤
﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾	١٧٣	٢١٥، ١٠٤
﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾	١٧٤	٢١٥، ١٢٨، ١٠٤
﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾	١٧٥	٢١٥
﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾	١٧٩	٢٠٧، ١٠٣، ٨٩
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾	١٨٥	٢٢٨
﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	٢٠٠	٢٣٣
سورة النساء		
﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾	٧	٣٣٥
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾	٥١	١١٦
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾	٥٢	١١٦
﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾	٧٧	١٩٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَقَنْلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	٨٤	١٨٨
﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُونَ كَمَا تَأْمُونُونَ﴾	١٠٤	٢٣٣، ١٠٢
﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾	١١٣	٣١٥، ٢٩٥
﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾	١١٤	٣٦٦
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾	١٢٣	٣٩
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾	١٢٤	٣٩
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾	١٣٥	١٣١
﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾	١٦٤	١٥٧
﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾	١٦٥	١٥٦
سورة المائدة		
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾	٢	٢٥٣
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾	٨	١٣١
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	١١	١١٤، ٤٤
﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِّثْقَلَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدْسِيَةً﴾	١٣	٤٩
﴿فَإِذْ هَبَّ آتَنَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾	٢٤	٢٠٢
﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾	٢٧	٢٢٢، ٢٢١
﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾	٢٨	٢٢٢
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	٣٠	٢٢٢
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾	١٠٤	١٧٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأنعام		
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾	٩٠	٧٨ ، ٤٥
﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾	١٢٤	٢٤٢ ، ١٦٢ ، ١٦١
﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾	١٢٧	٣٥٩
﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾	١٥١	٣٤٩
سورة الأعراف		
﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾	٣١	٣٢٥
﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾	٣٤	٢٠٦ ، ٣٨
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾	٤٣	٢٨٦
﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾	٨١	١٥٨
﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾	١٥١	٢٧٠
﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾	١٥٨	١٥٩ ، ٢٩ ٢٨١ ، ٢٤١
﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾	١٦٨	٤٨
﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾	١٨١	٢٤٢
﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾	١٩٤	٣٤٩ ، ١٧٨
﴿الْهَمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾	١٩٥	٣٤٩ ، ١٧٨
سورة الأنفال		
﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾	١٧	٣٤٠
﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾	٢٦	١١٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾	٢٧	٢٤٧
﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾	٣٠	١٤٥، ٤٤
﴿وَقَدْ نِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ﴾	٣٩	٣٥٤، ٣٤٣
﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ النِّقَى الْجَمْعَانِ﴾	٤١	٣٤٠
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾	٤٥	٣٠٩، ١٤٤
﴿وَلَا تَنْزِعُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾	٤٦	٣١٤، ١٤٤
﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٥٥	١٢٣
﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُونَ﴾	٥٦	١٢٣
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾	٦٠	٣٥٩، ١٨٥ ٣٤٤، ٣٦٠
﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	٦١	٣٦٠
﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾	٦٢	٣٦٠
﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾	٦٥	١٨٨
سورة التوبة		
﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾	١٠	٥٠
﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾	٣٢	٢٣٢، ١٧٢، ١٠٥
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾	٣٣	٢٣٢، ١٧٢، ١٠٥
﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾	٤٠	١٤٥
﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾	٧٣	١٧٧
﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾	٨١	٢٠٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾	١١١	٩١
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾	١٢٨	٢٨٠، ٢٣٩، ٦٨
سورة يونس		
﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾	٢	٣٥٠
﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾	٢٣	١٢٤
﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وِرْثَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾	٥٨	٢٨٦
﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾	٦٥	٥٥
سورة هود		
﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾	٥٠	٢٨١، ٢٤١
﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾	٦١	٢٨١، ٢٤١
﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا﴾	٨٢	١٥٩
﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾	٨٣	١٥٩
﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾	٨٤	٢٨١، ٢٤١
سورة يوسف		
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾	٢	٢٩٠
﴿لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾	٨٧	٢٤٦
﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾	٩٢	٢٢٢، ٢١٢، ٢١١
﴿هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾	١٠٨	٢٧١
﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾	١١٠	١٢٥
﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾	١١١	١٧٤، ١٦٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الرعد		
﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾	١٧	٢٣٩
﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾	٢٤	٣٥٩
سورة إبراهيم		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾	٤	٢٩١
﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾	٧	٢٠
﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾	٤٠	٢٧٠
﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾	٤١	٢٧٠
سورة الحجر		
﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾	٩٤	١٧٨ ، ٥٣
﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾	٩٧ - ٩٩	٢٦٨
سورة النحل		
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾	٣٦	١٥٨ ، ١٥٧
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾	٨٩	٨ ، ١١١ ، ١٦٠ ، ١٧٤
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾	٩٠	٧٧
﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾	٩٦	٢٥٧
﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾	١٠٣	٥٥
﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾	١٠٦	٣٥١
﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾	١٢٦	٢٢٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الإسراء		
﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾	١	٦٨
﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾	٨١	٢٣٩، ٢٠٩
﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾	٩٣	٢٧٩
﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾	٩٥	٢٧٩
سورة الكهف		
﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾	٦	٢٨٤
﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾	٢٧	٣٤٩
﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾	٢٩	٣٤٣
سورة الأنبياء		
﴿أَضَعْتُ أَحْلِمَ بَلِ افْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾	٥	٥٥
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾	١٨	١٢٧
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾	٢٥	١٥٨
﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾	٣٤	٢٧٩
﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾	٩٢	٢٥٣
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾	١٠٧	٢٥، ٤٧، ١٥٩، ٢١٨، ٢٤١، ٢٨١
سورة الحج		
﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾	٣٠	١٥٣
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾	٣٩	١٩٩، ٢١٩، ٢٢٠، ٣٣٧، ٣٥٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾	٤٠	٢١٩، ٢٢٠، ٣٣٧، ٣٥٤، ٣٥٣، ٣٣٨
﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾	٤١	٢٢٠، ٢١٩
﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾	٧٥	٢٨٠
سورة المؤمنون		
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿	٩ - ١	٢٦٤، ٢٤٣
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ﴾	١١٥	٣٥٠
﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾	١١٦	٣٥٠
سورة النور		
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾	٢٧	٣١٧، ٣١٦
﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾	٢٨	٣١٧
﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾	٣٩	٥٠
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾	٥٨	٣١٨
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾	٦٢	٣١٨، ١٢٠
﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾	٦٣	٣١٨، ١٢٠، ١٩
سورة الفرقان		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾	١	٢٩، ١٥٩، ٢٤١، ٢٨١
﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾	٣	٣٤٩
﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿	٥	٥٥
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾	٣١	١٦٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَا الَّذِي بِعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾	٤١	٣٥٢
﴿ إِن كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾	٤٢	٣٥٢
﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾	٥١	١٧٧
﴿ فَلَا تَطِيعَ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾	٥٢	١٧٧، ١٨٤، ١٩٦، ٢١٨، ٢٧١، ٣٥٠
سورة الشعراء		
﴿ لَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾	٣	٢٨٤
﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾	٢١	٤١
﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾	١٦٥	١٥٨
﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾	١٦٦	١٥٨
﴿ وَلَئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾	١٩٢ - ١٩٥	٢٩٠
سورة النمل		
﴿ وَإِنَّكَ لَلْغُلَافَى الْقُرْءَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾	٦	١٤، ٢٩٥
﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴾	٥٥	١٥٨
﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾	٧٠	٢٨٥
سورة القصص		
﴿ يَمْسُكُ إِلَهُ الْمَلَائِكَةِ قُلُوبَهُمْ لَقَوْلِكَ فَارْجُ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾	٢٠	٤٠
﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾	٢١	٤٠
﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾	٢٦	١٥٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾	٥٠	١٣٠
﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾	٦٨	١٦١
سورة العنكبوت		
﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾	١ - ٦	١٨٤
﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾	١٦	٢٨١ ، ٢٤١
﴿ فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾	٢٦	٤٠
﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾	٣٠	١٥٨
﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾	٤٥	٧٧ ، ٢١
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾	٦٩	١٧٥
سورة الروم		
﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾	٢ - ٥	٢٨٧
﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾	٤٧	١٢٧
سورة لقمان		
﴿ وَأَغْضَضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾	١٩	٣١٦
سورة الأحزاب		
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾	٩	٤٤ ، ١١٤ ، ١٤٢ ، ٣٤١
﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾	١٠	٤٤ ، ٥٠ ، ١٢٥ ، ١٣٩ ، ٢١٤ ، ٣٤١ ، ٢٢٦

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾	١١	١٢٥، ١٢٦، ١٣٩، ٢١٤، ٢٢٦، ٣٤١
﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾	١٢	١٢٦
﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾	١٣	١٢٦
﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ ﴾	٢١	١١، ٢٤، ٣٣، ٤٥، ٧٨، ١١٢، ٢٤٠، ٢٨٠، ٣١٦، ٣٤٨
﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾	٢٢	١٢٧
﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾	٢٣	٦٣، ٩٦، ١١٣
﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾	٢٥	١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ٢٢٦، ٣٤١، ٣٥٧
﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾	٢٦	١٤٧
﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَعِيْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْشُوهَا ﴾	٢٧	١٤٧
﴿ وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾	٤٠	١٦٠، ٢٤١
﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾	٤٤	٣٥٨
﴿ شَهِدَا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسَرَاجًا مُنِيرًا ﴿	٤٥، ٤٦	١٤
﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾	٥٣	٣٢٦، ٣٢٧
﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾	٥٦	٢١
سورة سبأ		
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾	٢٨	١٥٩
﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴾	٣٩	٢٠، ٦٦، ٢٦٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة فاطر		
﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾	٢٤	١٥٧
﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾	٤٣	٩٠، ١٠٥، ١٢٤، ١٣٥
سورة يس		
﴿فَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾	٧٦	٢٨٤
﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾	٧٨ - ٨١	٣٥٠
سورة الصافات		
﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾	٩٩	٤٠
سورة ص		
﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾	٤	٥٥
﴿وَأَنطَلَقَ أَلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾	٦	٣٥٢
﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾	١٧	٥٥، ٢٦٨
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾	٢٧	٣٥٠
﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾	٢٨	٣٣٤، ٣٥٠
﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾	٣٥	٢٧٠
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾	٨٧	٢٩، ١٥٩، ٢٨١
﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾	٨٨	٢٩
سورة الزمر		
﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾	٢٨	٢٩٠
﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾	٣٠	٢٢٨، ٢٧٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة غافر		
﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾	٧٥	٢٨٦
سورة فصلت		
﴿حَمَّ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	١ - ٧	١٨٠
﴿كَتَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾	٣، ٤	٢٩٠
﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾	٥	١٧٨
﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾	١٣	١٨٠
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾	١٥	١٩١
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾	٢٦	٣٥١
سورة الشورى		
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾	١١	٣٠
﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾	١٣	١٥٧
﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾	٤٠ - ٤٣	٢٢٢
﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ﴾	٥٢	١٦٧
سورة الدخان		
﴿مُعَلِّمٌ مَّتَجَنَّوْنَ﴾	١٤	٥٥
سورة الأحقاف		
﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾	٣٥	١٥٧
سورة محمد		
﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾	٧	١٢٧، ٩١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾	١٦	١٣٠
﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُ أَعْمَالَكُمْ ﴾	٣٥	٣٥٩
سورة الفتح		
﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾	١	٢٢٦، ٣٦١
﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾	٢	٢٦
﴿ فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾	١٠	١٣٥، ١٢٤
﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾	٢٤	٢٢٧
سورة الحجرات		
﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾	٢	٣١٨
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾	٣	٣١٨
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾	١٠	٢٥٣
﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾	١١	٣١٩
﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾	١٣	٣١
سورة الذاريات		
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	٥٦ - ٥٨	٢٥٨
سورة الطور		
﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾	٣٥	٣٤٩
﴿ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾	٣٦	٣٤٩
سورة النجم		
﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾	٥	٢٩٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنُوءَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۚ﴾	١٩ - ٢٣	٣٠
﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ﴾	٢٣	١٧٨
سورة الواقعة		
﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا ۚ﴾	٢٥، ٢٦	٣٥٩
سورة الحديد		
﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ ۚ﴾	٧	٣٢
سورة الحشر		
﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ۚ﴾	٨	٦١
﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ۚ﴾	١٠	٢١، ٢٧٧
﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ۚ﴾	٢٣	٣٥٩
سورة الصف		
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ۖ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوفٍ ۚ﴾	٤	٢٥٤، ٢٧٦
﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ۖ اسْمُهُ أَحْمَدُ ۚ﴾	٦	٢٢١
سورة الجمعة		
﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ۚ﴾	٢	٢٩٣، ٢٩٤
سورة الطلاق		
﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ﴾	٢	١٥٢
﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۚ﴾	١٢	٢٥٨
سورة التحريم		
﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ۖ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾	٩	١٧٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة القلم		
﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾	١ - ٤	٢٤٠ ، ٢٣ ، ٤
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	٤	٢٤٢ ، ١٦٥ ٢٨٠ ، ٢٥٧
سورة نوح		
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾	١	٢٨١ ، ٢٤١
﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾	٢٨	٢٧٠
سورة الجن		
﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾	١	١٨٣
﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾	٢	١٨٣
سورة المزمل		
﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَزْمَلُ * فِرَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا * يَصْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾	١ - ٥	٥٤ ، ٤٢ ٢٦٠ ، ٢٥٩
﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾	١٠	٥٥ ، ٥٤
﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾	١١	٥٥
﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾	٢٠	٦٦ ، ٢٠
سورة المدثر		
﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾	١ - ٧	٣٤٩ ، ٥٤
﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾	٣١	١٤٣
﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ﴾	٤٦ ، ٤٧	٢٦٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة التكويد		
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾	٢٧	٢٨١، ١٥٩
سورة المطففين		
﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾	٢٩ - ٣١	٦٣
سورة الطارق		
﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾	١٥، ١٦	١٤٥
سورة الفجر		
﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾	٢٧	١٧٥
سورة الضحى		
﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَءَاوَى﴾	٦	١٧٦، ١٦٧، ١٦٣
﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾	٧	١٧٦، ١٦٧
﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾	٨	١٦٧
سورة العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾	١	٢٥٩
سورة الزلزلة		
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾	٧	٣٣٣
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾	٨	٣٣٣
سورة العصر		
﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾	١ - ٣	٢٩٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النصر		
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾	٣ - ١	٢٦٩
سورة المسد		
﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ *﴾	٥ - ١	١٧٩ ، ١٦٦ ، ٥٤

* * *







فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



رقم الصفحة	الحديث
أ	
٢٨٦ ، ٢٨٥	آمَنْتُ بِي حِينَ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقْتَنِي حِينَ كَذَّبَنِي النَّاسُ
١٣٥ ، ١٢٤	أَبْشُرُوا وَأَمْلُوا بِنَصْرِ اللَّهِ وَجَلَّ
٩٨	أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ نَزَعَ الْحَلَقَتَيْنِ بِأَسْنَانِهِ
٢٩٩	أَتَدْرُونَ مَنْ الْمَفْلَسُ؟. قَالُوا: الْمَفْلَسُ فِينَا مَنْ لَا دَرَاهِمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ
٢٦٧	اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ
١٠١ ، ٩٩ ، ٨١	أَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَمْرَةَ بْنَ جَنْدَبٍ، وَرَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ
١٦	أَجُوعُ يَوْمًا فَأَصْبِرُ، وَأَشْبَعُ يَوْمًا فَأُشْكِرُ
٣٥٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧	أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ: عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ
٢٧٤	أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ
٢٤٧	أَدُّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ
٣٢٢	إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، فَلْيَرْجِعْ
٢٩٩ ، ٢٩٨	إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا؛ فَالْقَاتِلَ وَالْمَقْتُولَ فِي النَّارِ
٢٦٢	إِذَا أَمَّ أَحَدُكُمْ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ وَرَاءَكُمْ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَالْمَرِيضَ وَذَا الْحَاجَةِ
٣٢٧	إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَى فِيهِ



رقم الصفحة	الحديث
٣٢١	إذا تناول أذنه رجل - وضع فمه في أذنه يسر إليه حديثًا -
٣٠٠	إذا سلكت فجًا سلك الشيطان فجًا آخر
٢٢٢ ، ١٤٨	اذهبوا فأنتم الطلقاء
٥٣	أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تُغير عليكم أكنتم مُصدّقي؟
٢٧٢ ، ٢٧	أرحنا بها يا بلال
٣٠٠ ، ١٣٥ ، ٨٤	ارم فداك أبي وأمي
٢٦١	استخلف أبا بكر أن يُصلّي بالنّاس، وصلى وراءه
١٥١	استنصت لي الناس. اجعلهم يسكتون حتّى أبلغهم الرسالة
١٠٠	اشتد غضب الرحمن على رجل قتله نبيه
٧٠	أشدّ النّاس بلاء الأنبياء، ثمّ الصّالحون، ثمّ الأمثل فالأمثل
٢٠٢	أشيروا عليّ أيّها النّاس
٢٧٣	أفلا أحبّ أن أكون عبدًا شكورًا
٢٢٨	أقبح الأسماء حربٌ ومُرة
٢٦٣	أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد
٢٦٧	إلا شيئًا قليلًا يرصده لدين
٢٦٧	ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد
٣٢٤	الله طيب لا يقبل إلا طيبًا
٢٦٤	اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي لساني نورًا
٢٤٩	اللهم أصليح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي
٦٦	اللهم أعط منفقًا خلفًا. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا
٢٨٨ ، ٢٤٦	اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون



رقم الصفحة	الحديث
٢٧١	اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري
٢٧١	اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت
١٨٨	اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم
٢٧٠	اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك
١٨٢، ٧١ ٢٨٨، ٢٤٥	اللهم إنّي أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس
٢٦١	اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب
٢٦٥	اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض
٢٦٣	اللهم ربّنا لك الحمد ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شئت
٥٧	اللهم عليك بالملأ من قريش. ففزع القوم لدعوته ﷺ
٢٦٢	اللهم لك ركعتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، خشع لك سمعي وبصري
٢٦٣	اللهم لك سجدتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، وعليك توكلتُ
١٤١	اللهم منزل الكتاب، ومُجري السحاب، وسريع الحساب، اهزم الأحزاب
١٨٨	اللهم مُنزل الكتاب، ومُجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصُرنا عليهم
١٨	ألم أخبر أنّك تصوم النهار وتقوم الليل؟! قال: بلى، يا رسول الله
٢٣٠	أليست نفساً
٩٨	أمّا أنت فقد أعفاك الله، ولا حرج عليك
٢٩٤	أمّا هؤلاء فيدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم
٢٧٢	أمّا وإنّك أحبُّ بلاد الله إلى الله، وإنّك لأحبُّ بلاد الله إليّ
٣٢٥، ٣٢٤	إنّ الله جميل يحبُّ الجمال، الكبر بطر الحقّ، وغمط الناس
١٦٥، ١٠	إنّ الله ضرب عليّ النوم، فلم أستيقظ حتّى طلعت الشمس
٢٤٦	إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيباً



رقم الصفحة	الحديث
١٠٨	إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ
٢٤٨	إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا أَجْسَادِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ
٢٩٤	إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتَنًا وَلَا مُتَعَتًّا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيسِّرًا
٢٢٨	إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الرِّفْقَ، وَيَكْرَهُ الْعَنْفَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ
٩٤	إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرَ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، هَذَا حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ
٣٢	إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ
٥٣	إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ - وَاللَّهُ لَوْ كَذَبَتِ النَّاسُ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُمْ
٣٢٠	إِنْ كَانَتِ الْوَلِيدَةُ - أَيْ الْأُمَّةُ - مِنْ وَلَائِدِ الْمَدِينَةِ لَتَأْتِي
٢٤٨	إِنَّ لَبَدَنكَ عَلَيْكَ حَقًّا - أَيْ فِي الرَّاحَةِ - وَلَعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا
١٣٥	إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرِ
٨٦	إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجُمُوحِ
٣٢٦	إِنَّ هَذَا قَدْ تَبَعْنَا؛ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَرْجِعَ
٣٠٢	إِنْ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلَحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ
٩٧	إِنَّ هَذِهِ لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ؛ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ
٢٤١، ١٦٠	أَنَا الْعَاقِبُ فَلَا نَبِيَّ بَعْدِي
١٤٣	أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، مَاذَا تَفْعَلُ؟ اذْهَبْ وَخَذِلْ عَنَا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ
٣٠٠	أَنْتَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي
٣٠٣، ١٨	أَنْتُمْ الْقَوْمُ الَّذِينَ قَلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَّا وَاللَّهِ، إِنِّي لِأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ
٢٩٨	انْصِرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا
٣٠٤	إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ
٣٢٢، ٣٢١	إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ

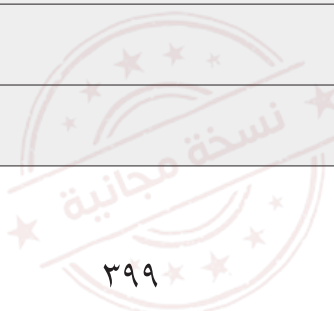


رقم الصفحة	الحديث
٢١٨ ، ٤٧ ، ٢٦	إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مَهْدَاةٌ
٢٤٩ ، ٤٥	إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ
٢٧٤	إِنَّهُ لِيُغَاثُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ
٢١٩	إِنِّي أَمَرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلَا تَقَاتِلُوا، كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
٢٨٢	إِنِّي بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً
٢٨٨	إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَخْرُجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
١٤٧	اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ
٨١	أَوْصَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَصِيَّةَ جَامِعَةٍ مَانِعَةٍ، أَلَّا يَتْرَكُوا أَمَاكِنَهُمْ
١٦٩	أَوْ مُخْرَجِيَّ هُمْ؟! .!
٣٠٠	أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؟. قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ
٢٦٦	أَقِظُوا صَوَاحِبَ الْحُجَرِ - حَجَرَاتِ أَزْوَاجِهِ - يَا رَبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَّةٌ
٢٩٨	أَيْكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ
٢٩٨ ، ٢٩٧	أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ ... إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ
ب	
٣٢٥ ، ٢٤٩	بَحْسَبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ
٢٠٤	بَعَثَ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرَ أَبِي سَفْيَانَ
٢٤١ ، ١٥٩ ، ١٥٧	بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً
٢٤٦ ، ٥٩	بَلْ أَرْجُو أَنْ يَخْرُجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا
١٨٨	بَلْ أَنَا أَقْتُلُكَ
١٤٠	بَلْ هُوَ أَمْرٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتِ الْعَرَبَ رَمَتَكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ
٢٠٣	بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ... الرَّأْيُ مَا أَشَارَ بِهِ الْحُبَابُ

رقم الصفحة	الحديث
٣٢	بُني الإسلام على خمس
٣٢٠	بئس أخو العشيرة... إن شرَّ النَّاسِ عند الله منزلة يوم القيامة
ت	
٩٨	تَرَسَ عليه أبو دُجَانَةَ، والنبل يقع على ظهره
٣٠٥	تُطْعِمُ الطعام، وتقرأ السلامَ على مَنْ عرفتَ وَمَنْ لم تعرف
ج	
٢٦٧	جئته وهو أبغض النَّاسِ إليَّ، وعُدت وهو أحبُّ النَّاسِ إليَّ
٢٧٢، ٢٦	جُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة
٦٢	الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نقيلا ولا نستقيل
ح	
٣٢٣	حقٌّ على كلِّ مسلم في كلِّ سبعة أيَّامٍ يومٌ يغسل فيه رأسه وجسده
١١٨	الحكمة ضالة المؤمن، أُنِيَ وجدها فهو أحقُّ بها
خ	
٣٠٠	خالد سيف من سيوف الله
٢٤٤	خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفَّ
د	
٣٦٥، ٣١١	دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء. والبغضاء: هي الحالقة
٩٠	دعوهم، زملوهم في دمائهم وثيابهم حتَّى يُبعثوا بها يوم القيامة
ر	
٢٢٩	الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء
٢٦٩	ربِّ اغفرْ لي وتبْ عليَّ



رقم الصفحة	الحديث
ز	
٣٠١	زادك الله حرصًا، ولا تعد
٢٥٩، ١٦٨، ٧١ ٢٨٧، ٢٨٥	زملوني زملوني... والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم
س	
٢٦٣	سبحانَ ربِّي الأعلى
٢٦٢	سبحان ربِّي العظيم
٢٦١	سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرُكَ
٢٦٢	سُبُّوح، قُدُّوس، ربُّ الملائكة والروح
٢٦٣	سجد وجهي للذي خلقه وشقَّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسنُ الخالقين
٢٦٣	سمع الله لمن حمده
٣٢٣	السواك مَطْهَرَةٌ للفم، مَرْضَاةٌ للرب
ش	
١٣٩، ١١٧	شاورهم في أحد
١٤١، ١٣٩، ١١٧	شاورهم في بدر
٢٠٢، ٢٠٠، ٢٧	شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر
ص	
٢٠٥	صارع ركانة فصرعه
٣٥١، ٢٨٥، ٥٥	صبرًا آل ياسر، فإنَّ موعدكم الجنة
٣٠٥	الصلاة على وقتها
٣٠٥	صِلْ رَحِمَكَ





رقم الصفحة	الحديث
٢٠٩	صَلَّى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ لِلَّهِ تَعَالَى
١٢١	الضربة الأولى أضاءت لي مدائن كسرى وما حولها. قالوا: يا رسول الله
ع	
٢٨٦	عام الحزن
١٥٣	عدلت شهادة الزور الإِشْرَافَ بالله تعالى
١٤١	عَرَّقَ اللهُ وَجْهَهُ فِي النَّارِ
١٦١	عَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَدَبَ قِضَاءِ الْحَاجَةِ
غ	
٣٢٣	غُسْلُ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ
ف	
٣٠٤	فَإِنْ هُمْ أَطَاعُواكَ لِذَلِكَ؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ
٢٠٢	فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
٩٨	فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ (أبا عامر الفاسق)
٢١٢	فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ تَحْكِيمَ يَهُودِ بَنِي قَرِيظَةَ لِسَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ
٢١٢	فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، وَحَكَمَ فِيهِمْ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ
٢٠٣	فَهَوَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ
ق	
٩٠	قَدِمُوا الْأَقْرَأَ لِلْقُرْآنِ
٣٠٥	قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ
١٤١	قُولُوا: اللَّهُمَّ اسْتِرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا
٦٠	قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ، وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمَ



رقم الصفحة	الحديث
	ك
٢٦٦	كان إذا دخل العشر شدّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله
٢٧٤	كان إذا عمل عملاً أثبتته
١١٧	كان ﷺ أكثر النَّاسِ مشاورة لأصحابه
٢٣، ٦٨، ٧٠، ١١٧، ١٧٥، ١٧٧، ٢٤٣، ٢٤٥، ٣١٦	كان خلقه القرآن
٣٥٢، ٣٥١	كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيُجاء بالمنشار
٣١٩	كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته واشتد غضبه
٣٢٧	كان ﷺ إذا عطس غطّى أنفه بيده
٣١٩	كان في خطبة معيّنة احمرت عيناه، وعلا صوته واشتد غضبه
٣٢٠	كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه، لا ينزع يده من يده
٢٧	كان الهلال يمر ثمّ الهلال ثمّ الهلال
٣٢٦	كان يأكل بثلاث أصابع
٢٧	كان يصوم حتّى يقول الناس: لا يُفطر. ويُفطر حتّى يقول الناس: لا يصوم
٢٧	كان يضع الحجر على بطنه من شدة الجوع
٢٠٢	كأنّك تريدنا يا رسول الله
٣٢٨، ٣٢٧	كفّ عنا جشاءك؛ إنّ أكثر النَّاسِ شبعاً في الدُّنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة
٣٢	كلُّكم لآدم، وآدم من تراب
١٨٧، ٢٠٦، ٢٠٨، ٣٦٢، ٣٦٤	كنّا إذا احمرّت الحَدَق، وحمي الوطيس، واشتدّ البأس، اتّقينا برسول الله



الحديث	رقم الصفحة
ل	
لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده	٢١٠، ١٤٢
لا، إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، ولكنَّ الكِبَر بطُرِّ الحقِّ وغمَطُ الناس	٢٤٩
لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، اسألوا الله السلامة من الدماء والقتال	٣٥٧، ١٤٤
لا تجيبوه... قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم	١٠١، ٨٩
لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض	٣٦٤، ٣١١
لا تزرموه - أي: لا تقطعوا عليه بولته - وصبوا عليه ذنوبًا من ماء؛ فإنَّما بُعثتم ميسرين، ولم تُبعثوا مُعسِّرين	٣٠١
لا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تغلّوا	٢٤٧
لا تغضب	٣٠٥
لا تقتلوا وليدًا، ولا تغدروا، ولا تُمثّلوا	٢٢٩
لا تقوم الساعة حتّى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون	٧٤
لا تنزع البرمة - أي: القصعة - ولا الخبز من التنور حتّى آتي	١٣٨
لا حاجة لنا فيها، إنّه خبيث جثته، خبيث دينه، خذوه ولا نأكل ثمن الموتى	١٣٧
لا يأكل قطعتين مع بعض أو تمرتين معًا	٣٢٦
لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر	٣٢٥، ٢٤٩
لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله	٢٦٨
لا يلدغ المؤمن من جحر مرتّين	٢٢٣
لقد حكمت بحكم الله فيهم	١٤٧
لقد رأيت الملائكة تغسله	٨٦
لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا لعانًا ولا صخابًا في الأسواق	٣١٩



رقم الصفحة	الحديث
٣٥٢	لم يؤذن لي بعد، كُفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة
٤٩	لماذا تصومون هذا اليوم؟. فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى
٢٢٩	لن تدخلوا الجنة حتى ترحموا. قالوا: يا رسول الله، كلُّنا رحيم
٢٠٧، ٢٠٥، ١٨٧	لن تُراعوا لن تُراعوا
٣٢١	لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة
١٨٧	لولا أن أشقَّ على أُمّتي ما قعدتُ خلفَ سرِّيَّةٍ أبدًا
١٧٥	ليكون خُلُقُه القرآن
٤٩	لئن عشتُ إلى قابل لأصومنَّ التاسع
م	
٣٤٠، ٥	ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما
١٠٠	ما أنصفنا أصحابنا
١٨٦	ما بعث الله نبيًّا إلَّا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم؛ كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة
٢٩٩	ما تعدون الصُّرعة فيكم؟. قالوا: مَنْ لا يصصره الرجال
٢٢٩	ما دخل الرفق في شيء إلَّا زانه، ولا نُزع من شيء إلَّا شانه
١٧	مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي
٣٥٨	ماذا سميت؟. قال: سمَّيته حربًا. فقال له: بل سمَّه حسًّا
١٣٨	ماذا معك يا ابنتي؟. قالت: كذا وكذا يا رسول الله جئتُ بها لأبي وخالي
٢٠١	ما رأيتُ أحدًا أكثرَ مشاورة من النَّبيِّ ﷺ
٢٠٠	ما رأيتُ أحدًا يحبُّ أحدًا كحبِّ أصحابِ محمَّدٍ ﷺ
٢٤٥	ما ضرب رسول الله ﷺ بيده أحدًا قط



رقم الصفحة	الحديث
٣٢٣	ما على أحدكم لو اتَّخذ ثوبين لجمعه سوى ثوبي مهنته
١٣٩	ما قولكم أن نعطيكم ثلث ثمار المدينة، وترجعون منصرفين عن قريش؟.
٢٠٧، ٢٠٥، ١٨٧	ما كان لنا أن نصرعكَ ونأخذ غَنَمَكَ
٩٤، ٨٠	ما كان لنبي لبس لأُمته أن يضعها حتَّى يحكم الله بينه وبين أعدائه
٣٢٨	ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه
١٧٦	ما من أحدٍ منكم إلَّا وله شَيْطان. قالوا: حتَّى أنت يا رسولَ الله؟!
٣٠٣	ما هذا؟. قال: صحائف من التوراة. قال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب
٧٢	ما يُبَدِّل القول لديّ، هي في العمل خمسٌ، وفي الأجر خمسون
٣٥	مثل القائم على حدود الله والواقع فيها؛ كمثل قومٍ استهموا على سفينة
٩٨	من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فليُنظر إلى هذا
٢٢٩	من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الخير
٣٢٤، ٥	من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا، أو ليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته
٦٤	مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا
٢٦٦	مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ
١٤٦	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلَّا في بني قُريظة
٩٧	من يأخذ هذا بحقه؟. فأحجم الصحابة، وقام أحدهم
٨٤	من يأخذ هذا السيف بحقه؟. فأجفل النَّاسُ، وقال أبو دُجَانة: أنا أخذه بحقه
٢٧٦	المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضُه بعضًا
ن	
١٧	نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة
٢١٠	نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ يَا أُمَّ هَانِي، لَا يَفْقَرُ بَيْتٌ فِيهِ خُلٌّ



رقم الصفحة	الحديث
٣٦١، ٢٢٧	نعم هو فتح
٢٤٧	نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم
٢٤٧	نهى عن قتل النساء والصبيان
و	
١٨٤	والله، إِنَّكَ لأَحَبُّ بلاد الله إلى الله، وأَحَبُّ بلاد الله إليَّ
٢٨٥، ٦٩	والله لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فوالله إِنَّكَ لتصل الرحم
٩٩	والله لَمَوْقُفُهَا خَيْرٌ من فلانٍ وفلان
٢٤٤	والله لولا القِصَاص يومَ القيامة؛ لأوجعتُكَ بهذا السَّوَاك
١٩٩	والله ما أَنتما بأقوى مِنِّي على المشي، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر
٢٨، ١٧	والله يا ابنَ أَخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إلى الهلال، ثُمَّ الهلال
٢٧٣، ٢٧، ١٥	وَأَيْكُمْ مثلي؟ إِنِّي أَيْتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي
٣٢٤	وجد رجلًا رائحته شديدة الكراهية؛ فأمر أن يُخرج من المسجد
٢٦٢	وَجَّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئًا وما أنا من المشركين
٢٠	ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يُصادفها عبدٌ مسلم يدعو الله بخيرٍ
٢٧٢	وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة
٢٠٢	وكان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه فَلَقَةُ قمر
٢٨١	وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّة، وُبُعِثَ إلى النَّاسِ كَافَّةً
٢٠٥	ولكنَّه دَرَبَ نفسه وهو يرعى الغنم
٢٠٤	ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها
١٨٨	ولوددتُ أَنِّي أُقْتَلَ في سبيل الله، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلَ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلَ
٢٦٥	وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ ممَّا افترضته عليه، وما يزال عَبْدِي
٨٥	وما عليك أن تجلس وقد رفع الله عنك الحرج؟ قال: والله يا رسول الله

الحديث	رقم الصفحة
ي	
يا أبا عُمَيْر، ما فعل النُّعَيْر	٣٢٨
يا أبا يحيى ربح البيع، ربح البيع	٦١
يا أعرابي، لقد حَجَّرت واسعًا	٣٠٢
يا أهل مَكَّة، ما تظنون أَنِّي فاعل بكم؟... يا أهل مَكَّة، اذهبوا فأنتم الطلقاء	٢١١
يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة	٥
يا أيُّها النَّاس، توبوا إلى الله؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ	٢٧٤
يا بُنَي، سَمِّ الله، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ	٣٢٦
يا بني عبدِ مَنَاف، يا بني مَخْزُوم، يا بني عَدِيٍّ، يا بني فُلان	١٦٦
يا خباب، إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ يُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ	٥٦
يا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي فَارِسٍ إِذَا أَحَاطَ بِنَا عَدُو	١١٨
يا عائشة، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!	٢٦، ١٥
يا عائشة، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ. قَالَتْ: أَوْ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا	٢٢٨
يا عائشة، لَقَدْ قُلْتُ كَلِمَةً لَوْ مُزِجْتَ بِمَاءِ الْبَحْرِ لِمَزَجْتَهُ	٣٠٢
يا عَلِيُّ، إِنَّهُ عَمْرُو، اجْلِسْ. ثُمَّ تَحَدَّى مَرَّةً وَقَالَ: هَلْ مِنْ مَبَارَزٍ؟	١٣٦
يا فَاطِمَةُ، لَا تَبْكِي فَإِنَّ اللهَ مَانِعُ أَبَاكَ	٥٦
يا مَعشَرَ قَرِيشَ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي، تَرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ	١٧٨
يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدُ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ	٢٥٣

* * *

فهرس الموضوعات

- ٤. من الدستور الإلهي للبشرية
- ٥. من مشكاة النبوة الخاتمة
- ١ - مولد النبي ﷺ
- ٧. المولد النبوي تذكير بالرسول ﷺ
- ٧. ميلاد رسالة
- ٨. ميلاده ﷺ ونشأته
- ٩. الرسول ﷺ قدوة للشباب
- ١٠. النبي ﷺ قدوة في حياته كلها
- ١١. الواجب علينا نحو سيرته ﷺ
- ١٢. سيرته ﷺ محفوظة
- ١٣. سيرة متكاملة ليس فيها دائرة حمراء
- ١٣. سيرة معروفة وواضحة
- ١٤. أبلغ دليل على صدقه ﷺ
- ١٦. لم يكن ﷺ طالب ملك
- ١٧. سيرة التوازن والاعتدال
- ٢٠. مساعدة إخواننا المحتاجين في إفريقيا



- ٢ - ذكرى ميلاد النبي ﷺ ٢٢
- رسالة الزمن كله والعالم كله ٢٨
- تغيير عقائد الناس ٢٩
- تحرير العباد لغير الله ٣١
- التشريع الذي جاء به النبي ﷺ ٣٢
- الذكرى الثانية لثورة مصر ٣٤
- ٣ - الاحتفاء بالهجرة النبوية ٣٨
- الحياة وداع واستقبال ٣٨
- وقفه حساب ٣٨
- وقفه تأمل في الهجرة ٤٠
- الاحتفاء بالهجرة والذكريات النبوية ٤٣
- الأسوة المَحْمَدِيَّة ٤٥
- الغدر ونقض العهود من طبيعة اليهود ٤٨
- ٤ - العهد المَكِّي في التاريخ الدعوي ٥١
- العهد المكي هو المرحلة التأسيسية للعهد المدني ٥١
- الدعوة تسير وفق السنن الإلهية ٥٢
- تدرج الدعوة إلى الإسلام ٥٣
- مواصلة النبي دعوته مع الصبر والاحتمال ٥٤
- الدعوة تشق طريقها بين الإيذاء والابتلاء ٥٥
- إيذاء المشركين للنبي ﷺ ٥٦
- هجرة المسلمين إلى الحبشة ٥٧



- ٥٨.....المقاطعة الاقتصادية الجائرة
- ٥٨.....دعوة قبائل العرب والذهاب إلى ثقيف
- ٥٩.....دار الأرقم بن أبي الأرقم
- ٦٠.....الإسلام لا يقبل من يعتنقه لغرض دنيوي
- ٦١.....صهيب الرومي ونموذج التضحية بالمال
- ٦٢.....بيعة العقبة من ثمار البذل والمثابرة
- ٦٢.....العهد المدني ثمرة الكفاح الطويل
- ٦٣.....الأرض لله يورثها من يشاء
- ٦٤.....واجبنا نحو كوسوفو
- ٦٧.....٥ - في ذكرى الإسراء والمعراج
- ٦٧.....حياة حافلة وسيرة مشرقة
- ٦٨.....السيرة هي التطبيق العملي للقرآن
- ٦٩.....رحلة تكريم ومواساة
- ٧٠.....الدعوة ليست وردًا بلا شك
- ٧١.....الطائف وقسوة أهلها
- ٧٢.....رحلة الإسراء والمعراج
- ٧٢.....الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى
- ٧٤.....حق المسجد الأقصى على أمة الإسلام
- ٧٤.....اليهود ليسوا أسطورة
- ٧٥.....أهمية الصلاة



- ٦ - غزوة أُحُد دروس وعبر ٧٨
- الجهاد المسلح في المدينة ٧٨
- غزوة أحد من الغزوات الكبار ٧٩
- استشارة النبي أصحابه ٨٠
- نزول النبي عن رأيه لرأي الأغلبية ٨٠
- مبادرة فتیان المسلمين، وتخاذل المنافقين ٨١
- تنظيم النبي للجيش في أحد ٨١
- أثر مخالفة أوامر القائد في المعركة ٨٢
- دفاع الصحابة عن النبي ﷺ ٨٣
- مصاب المسلمين في أحد ٨٥
- عمرو بن الجموح يطأ بعرجته الجنة ٨٥
- حنظلة الشهيد غسيل الملائكة ٨٦
- مراعاة الأسباب والسنن الكونية ٨٦
- بما كسبت أيديكم ٨٧
- الله تعالى يُعطي النصر مَنْ يستحقه ٨٨
- الأمر يتعلق بالمبادئ لا الأشخاص ٨٨
- دور الإعلام الحربي ٨٩
- غزوة أحد دروس وعبر ٩٠
- إعداد العدة وأخذ الأهبة ٩٠
- ٧ - غزوة أحد عرض وتحليل ٩٢
- مشاورة النبي أصحابه ٩٣



- ٩٣..... نزول النبي عن رأيه لرأي الأغلبية
- ٩٤..... خطة المعركة
- ٩٥..... أثر معصية أوامر الرسول
- ٩٦..... رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه
- ٩٨..... دفاع المؤمنين عن النبي ﷺ
- ٩٩..... موقف النساء والصبيان
- ١٠٠..... موقف الأنصار
- ١٠١..... الإعلام الحربي
- ١٠١..... القرآن يُقَوِّي عزائم المسلمين ويشدُّ أزرهم
- ١٠٢..... وتلك الأيام نداولها بين الناس
- ١٠٢..... حتَّى يَمِيز الخبيث من الطيب
- ١٠٣..... قل هو من عند أنفسكم
- ١٠٤..... غزوة حمراء الأسد
- ١٠٥..... الإسلام باقٍ إلى قيام الساعة
- ١٠٦..... وداع الشيخ عبد الفتاح أبو غدة
- ١٠٧..... حياة العلم والدعوة والتربية
- ١٠٨..... فقد الأمة للعلماء
- ١٠٩..... دعوة للإنفاق
- ١١١..... ٨ - غزوة الأحزاب (١)
- ١١١..... النبي ﷺ له سيرة شاملة
- ١١٢..... أهمية دراسة غزوات النبي ﷺ

- ١١٣ مرحلة الابتلاء بمكة
- ١١٣ وجوب تذكر نعم الله تعالى، وأيام الله
- ١١٤ دور اليهود في كل مصيبة تحيط بالمسلمين
- ١١٥ اليهود وشهادة الزور
- ١١٦ تحريض قبائل العرب على المسلمين
- ١١٧ مشاورة النبي أصحابه
- ١١٨ مشورة سلمان الفارسي وقبول النبي لها
- ١١٩ التعجيل بحفر الخندق
- ١٢١ آيات وعبر ودروس في حفر الخندق
- ١٢٢ غدر بني قُرَيْظَةَ بالمسلمين
- ١٢٣ محاولة سعد بن معاذ إثراء اليهود عن غدرهم
- ١٢٥ حصار المشركين واليهود للمدينة
- ١٢٦ ابتلاء للمؤمنين وإظهار للمنافقين
- ١٢٧ ثبات المؤمنين عند المحن
- ١٢٧ إن ينصركم الله فلا غالب لكم
- ١٢٨ المؤمن لا تزيده المحن إلا قوّة
- ١٢٩ تهديد جورج بوش بقصف قناة الجزيرة
- ١٣٣ ٩ - غزوة الأحزاب (٢)
- ١٣٧ وليمة جابر بن عبد الله الأنصاري
- ١٥٠ المشاركة في الانتخابات العراقية

١٠ - أعظم رسول وأعظم رسالة ١٥٦

الرسالة العامة الخالدة ١٥٦

دعوة الرسل إلى التوحيد ١٥٨

إصلاح الرسل لفساد المجتمعات ١٥٨

شمول الرسالة المُحمّديّة للزمان والمكان وشؤون الإنسان ١٥٩

معالجة أمور الحياة كلها ١٦٠

تهيئة الله لمُحمّد ﷺ ١٦١

حال العرب قبل الإسلام ١٦٢

عناية الله بمُحمّد ﷺ ١٦٣

شرف العمل والكسب ١٦٣

طهارة الأخلاق ١٦٤

نشأة مُحمّد ﷺ ١٦٦

الزواج بخديجة رضي الله عنها ١٦٧

١١ - مُحمّد الرسول المُجاهد ١٧٣

الاحتفال بمولد الرسالة ليس بدعة ١٧٣

لماذا الحديث عن الرسول المجاهد؟ ١٧٤

مراتب الجهاد عند ابن القيم ١٧٥

جهاد في كلّ جهة وبكلّ سلاح ١٧٧

لم تكن مجابهة المجتمع الجامد بالأمر السهل ١٧٧

معركة بين الرسول ﷺ وقومه ١٧٩

قریش تقاطع محمّدًا وأصحابه مقاطعة اقتصادية واجتماعية ١٨٠

- ١٨١..... عام الحزن
- ١٨٢..... رحلة الطائف
- ١٨٣..... بعد المحنة منحة
- ١٨٣..... الجهاد الكبير طوال ثلاثة عشر عامًا
- ١٨٥..... مرحلة الجهاد المسلّح
- ١٨٥..... هيّاه الله ليكون المجاهد الأوّل
- ١٨٧..... المجاهد الأوّل في ميدان المعركة
- ١٨٩..... هذا الدين لم يأت إلينا عفواً صفواً
- ١٩١..... تحية لشباب المقاومة الاستشهاديين
- ١٩٤..... ١٢ - محمّد الرسول المجاهد القائد
- ١٩٤..... شموليّة الأسوة والقدوة في حياة رسول الله
- ١٩٥..... حياة المسيح ﷺ لا تصلح أسوة لكلّ النّاس
- ١٩٦..... حاجتنا إلى دراسة السيرة الجهاديّة للرسول
- ١٩٦..... جهاد في عدّة جبهات
- ١٩٧..... مع الرسول المجاهد القائد
- ١٩٧..... لا تجوز التضحية بالرجال والجنود من أجل عملٍ جنوني
- ١٩٨..... كلّ شيء بأوان وبأجل مسمّى
- ١٩٩..... من خصائص القائد الموفّق
- ١٩٩..... ١ - أن يكون كواحد منهم
- ٢٠٠..... والفضل ما شهدت به الأعداء
- ٢٠١..... ٢ - أن يشاورهم في الأمر



- ٣ - أن يعرف خصائص جنوده وقدرات عدوّه ٢٠٣
- ٤ - أن يكون خبيرًا في الحرب ٢٠٥
- ٥ - أن يكون قوي الجسم قوي النّفس ٢٠٥
- ٦ - لا يستخفّه النصر إذا انتصر، ولا تزلزله الهزيمة إذا انكسر ٢٠٦
- من دروس أحد ٢٠٨
- العبرة بالمبادئ أم بالأشخاص؟ ٢٠٨
- ٧ - يعفو وقتما ينفع العفو ٢١١
- ٨ - يقسو حين لا تنفع إلّا الشدة ٢١٢
- ١٣ - اتّهام النبي ﷺ بالعنف والإرهاب ٢١٦
- هجوم قسّ نصرانيّ على النبي ﷺ ٢١٦
- من الحقّ إلى الباطل ٢١٧
- رسول الرحمة العامّة ٢١٨
- الدعوة بالحسنى ٢١٨
- الصبر على الأذى ٢١٨
- الإذن بالقتال ٢١٩
- سنة التدافع ٢١٩
- طبيعة رسالة المسيح ٢٢٠
- الإسلام شريعة العدل والإحسان ٢٢٢
- بين سيرة مُحَمَّد والمسيح ٢٢٤
- غزوات الرسول وسرايا أصحابه ٢٢٤
- القتال في الكتاب المقدّس ٢٢٥

- ٢٢٦..... الامتنان بنعمة السلام
- ٢٢٧..... كراهة التسمية بحرب
- ٢٢٨..... الترغيب في الرفق والتنفير من العنف
- ٢٢٩..... أخلاقيّة الحرب في الإسلام
- ٢٣٠..... ميكافليّة الغرب
- ٢٣١..... الإرهاب الإسرائيلي
- ٢٣٢..... الغيرة والغضب للرسول والمُقدّسات
- ٢٣٣..... الصدام بين فتح وحماس
- ٢٣٥..... ١٤ - عظمة أخلاق النبي ﷺ
- ٢٣٦..... أمة محمد لا تسكت عن إهانة نبيها
- ٢٣٦..... دعوات إيجابية للرد على الإساءات
- ٢٣٧..... صورة زائفة شائنة
- ٢٣٧..... الصورة الصحيحة للنبي ﷺ
- ٢٣٨..... قليل من الغربيين من أنصفوا النبي ﷺ
- ٢٣٩..... عظمة محمد وعبريته
- ٢٤٠..... شهادة الله تعالى لنبيه
- ٢٤٠..... عظمة الخُلق وعظمة الرسالة
- ٢٤١..... رسالة خالدة خاتمة
- ٢٤٢..... رسالة شاملة لشؤون الدين والدنيا
- ٢٤٢..... صاحب الخلق العظيم
- ٢٤٣..... لا انفصال بين مبادئ القرآن وحياته ﷺ

- ٢٤٤..... الرسول في بيته
- ٢٤٥..... أخلاق النبي مع أعدائه
- ٢٤٦..... أخلاق ثابتة غير متغيرة
- ٢٤٧..... الوفاء بالعهد وحفظ الأمانة
- ٢٤٨..... التوازن في الخلق النبوي
- ٢٥١..... فوز حركة حماس وواجبنا نحوها
- ٢٥٥..... موقع متخصص للدفاع عن النبي ﷺ
- ٢٥٧..... ١٥ - الرسول العابد ﷺ
- ٢٥٨..... النبي ﷺ أعبد الناس
- ٢٥٩..... العبادة زاد الطريق إلى الله
- ٢٦٠..... أخذ النبي من كل أنواع العبادة بنصيب
- ٢٦١..... صلاة النبي ﷺ
- ٢٦٤..... المحافظة على صلاة الليل
- ٢٦٦..... صيام النبي ﷺ
- ٢٦٦..... إنفاق النبي ﷺ
- ٢٦٨..... ملازمة النبي ﷺ للذكر
- ٢٦٨..... عبادة الله في السراء والضراء
- ٢٦٩..... دعاء النبي ﷺ
- ٢٧٠..... استغفار النبي ﷺ
- ٢٧١..... عبادة الدعوة والصبر والهجرة والجهاد
- ٢٧٢..... تلذذه بالعبادة

- ٢٧٣..... خشيته من الله ٨
- ٢٧٥..... فوز حركة حماس وواجب الوقت
- ٢٧٨..... ١٦ - الرسول ﷺ إنساناً
- ٢٨٠..... ذروة الكمال البشري
- ٢٨٠..... النبوة اصطفاء
- ٢٨١..... الرسالة العامة الخالدة
- ٢٨١..... إعلان عالميّة الدعوة الإسلاميّة في المرحلة المكيّة
- ٢٨٢..... إعداد الله نبيّه ﷺ للرسالة العالميّة الخالدة
- ٢٨٣..... سيرة جامعة مكتملة الحلقات
- ٢٨٤..... الجانب العاطفي في حياته ﷺ
- ٢٨٦..... فرحه ﷺ
- ٢٨٧..... الاعتدال في فرحه وفي حزنه ﷺ
- ٢٨٧..... رحلته إلى الطائف
- ٢٩٠..... مكانة اللغة العربيّة في الإسلام
- ٢٩١..... التفريط في اللغة العربيّة
- ٢٩٣..... ١٧ - الرسول ﷺ مُعلِّماً ومربيّاً
- ٢٩٣..... المُعلِّم الأوّل هو مُحَمَّدٌ ﷺ
- ٢٩٤..... تعليمه ﷺ في كل مكان وزمان
- ٢٩٥..... لغته وفصاحته ﷺ
- ٢٩٦..... منهجه وأساليبه في التربية !
- ٢٩٦..... تربية الشخصية المسلمة المتكاملة



- السؤال والجواب في الحديث النبوي ٢٩٧
- الثناء على النابهين والمتميزين ٣٠٠
- تنبيه المخطئ على خطئه برفق ٣٠١
- الإشفاق على المخطئ ٣٠١
- الشدة على بعض المخطئين ٣٠٢
- التربية بالتدرج ٣٠٣
- رعاية الفروق الفردية ٣٠٤
- ١ - ذكرى النكبة الثانية ٣٠٧
- ٢ - تفرق الأمة ٣١٠
- ٣ - خطبة الرئيس الأمريكي في العالم الإسلامي ٣١١
- ١٨ - الذوق الرفيع عند النبي ﷺ ٣١٥
- الذوق والأدب في حياة النبي ٣١٥
- القرآن الكريم مصدرًا للذوق الرفيع ٣١٦
- آداب دخول المنازل ٣١٦
- استئذان الأطفال والخدم قبل الدخول ٣١٧
- الأدب مع النبي ﷺ ٣١٨
- الأدب مع المسلمين ٣١٩
- مثال الذوق الرفيع في كل شيء ٣١٩
- الإصغاء للمتكلم ٣٢٠
- ما بال أقوم يفعلون كذا ٣٢١
- آداب الزيارة والاستئذان ٣٢٢

- المظهر الحسن والكلام الحسن ٣٢٢
- الرائحة الحسنة ٣٢٣
- محبة الجمال ٣٢٤
- آداب الطعام ٣٢٥
- حياء النبي ﷺ ٣٢٧
- ملاطفة الصغار ٣٢٨
- زيارة بابا الفاتيكان للأردن ٣٢٩
- زيارة الصحفي المسيء لقطر ٣٣٠
- ١٩ - مُحَمَّدٌ ﷺ رسول السلام والجهاد (١) ٣٣٢
- محمد لم ينتصر بالسيف؛ وإنما انتصر على السيف ٣٣٣
- لا بد من الحياة الآخرة ٣٣٣
- عقائد الإسلام وقيمه وأخلاقه ٣٣٤
- العدل والمساواة ٣٣٤
- الرفق بالمستضعفين ٣٣٥
- الحرية والكرامة لبني الإنسان ٣٣٥
- مقاومة المشركين لمبادئ الإسلام ٣٣٦
- قريش هي من رفعت السيف في وجه الإسلام ٣٣٧
- الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ٣٣٧
- قانون التدافع ٣٣٨
- المشركون أول من بدأ القتال ٣٣٩
- عدم تكافؤ المسلمين والمشركين في بدر ٣٤٠



- ٣٤١..... غزوة أحد والخندق في عقر دار المسلمين
- ٣٤١..... وكفى الله المؤمنين القتال
- ٣٤٢..... اضطرار النبي للقتال
- ٣٤٣..... رفع السيف مواجهة للعدوان
- ٣٤٤..... لم يأت الإسلام إلينا غنيمة باردة
- ٣٤٥..... قضية فلسطين
- ٢٠ - مُحَمَّد ﷺ رسول السلام والجهاد (٢)..... ٣٤٨
- ٣٤٨..... حياة جهاد متواصل
- ٣٤٩..... جهاد البلاغ والاحتمال في مكة
- ٣٥٠..... إيقاظ العقول وتركية النفوس
- ٣٥١..... جهاد الصبر والمصابرة
- ٣٥٢..... كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة
- ٣٥٣..... الإذن بالقتال لدفع الظلم والعدوان
- ٣٥٣..... قانون التدافع
- ٣٥٤..... الإسلام يقاتل من أجل تحقيق السلام والحرية
- ٣٥٥..... القتال غير محبب للنفوس
- ٣٥٦..... معاهدة المدينة مع اليهود
- ٣٥٧..... نقد اليهود للمعاهدة
- ٣٥٧..... كراهية كلمة (حرب)
- ٣٥٨..... الإسلام دين السلام
- ٣٥٩..... سلام الأقوياء لا الجبناء



- السلام المسلح! ٣٥٩
- وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ٣٦٠
- يعتبر الإسلام الصلح وحقن الدماء فتحًا ٣٦١
- إعداد العدة إذا فرضت الحرب ٣٦٢
- حُسن تدبير المعركة ٣٦٢
- الحرب الأخلاقية ٣٦٣
- المصالحة في قطر بين أهل دارفور ٣٦٤
- فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٣٦٩
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٣٩١
- فهرس الموضوعات ٤٠٥

* * *



